أخي القارئ

تمَّ تنضيد الكتب على عجل

وأيّ خطأ مطبعي

هو نتيجة الإسراع

في تنزيل هذه الكتب على النت

نزولاً عند رغبة الإخوة القرّاء

ونتيجة عدم مراجعتها

لذلك نعتذر

إن وُجدت بعض الأخطاء المطبعية

ونعد بتصحيحها لاحقاً بإذن الله تعالى

المهندس عدنان الرفاعي

النظرية الرابعة

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

الحكمة المطلقة

نظرية قرآنية
في إطلاق النص القرآني

تعرض لأول مرة في العالم

اقرأ

المهندس عدنـــان الرفـــاعي

المهندس عدنان الرفاعي

النظرية الرابعة (الحكمة المطلقة)

.. عفوا أيها السادة ..

.. هذه النظريّة

.. للباحثين عن الحقيقة ..

.. أولي الألباب في كلّ جيل ..

المهندس عدنان الرفاعي

كاتب ومفكّر إسلامي

مواليد : سورية - درعا - تلشهاب .. عام : ١٩٦١ م ..

من المؤلّفات:

"النظريّة الأولى (المعجزة)

"النظرية الثانية (القدَر)

"النظريّة الثالثة (الحق المطلق)

"النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة)

"النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر)

"النظريّة السادسة (سلّم الخلاص)

"الحق الذي لا يريدون

"قصّة الوجود

"المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء)

"محطات في سبيل الحكمة

"نقد نقد النظريّة الإعجازيّة في القرآن الكريم

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

المقدّمة

.. الحكمة ضالة المؤمن ، وأُفق العاقل ، ومُراد الصادق ببحثه عن الحقيقة ، ونور الإخلاص بشتّى مسالك الحياة .. ولا حكمة مع جهلٍ ، ولا مع عصبيّةٍ ، ولا مع حماقة .. فالحكمة نور العلم ، وطهارة الفكر ، وبراءة الصدقِ وتجرُّده ..

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ [البقرة : ٢٦٩]

وكلام الله تعالى حقٌّ مطلقٌ ، وحكمةٌ مطلقةٌ ، يستمدُّ إطلاقه من مطلق قائله سبحانه وتعالى .. وما دون الله تعالى يتعلّق بالحكمة على درجةٍ توازي علمه وإيمانه وصدقه وطهارة إرادته وتصوُّره لأُفق الحقيقة ..

وتسمو حكمة الإنسان كلّما ارتقى ببحثه وتدبُّره ، سواء في كتاب اله تعالى (القرآن الكريم) أو في مادة خلق الله تعالى في هذا الكون ، و بالتالي كلّما اقترب أكثر من حقيقة مراد الله تعالى في كتابه الكريم ، ومن حقيقة مشيئة الله تعالى عبر معرفة قوانين الكون المادِّيّة .. فمن يدعو إلى وقف التَّدبُّر والبحث في كتاب الله تعالى ، أو إلى وقف التَّدبُّر والبحث في قوانين الخلق المادِّيّة ، إنما يدعو إلى الابتعاد عن الحكمة ، والاتِّجاه نحو دياجير الظّلام وحماقات الجهل والتَّعصُّب ..

إن الذين يؤطِّرون عقولهم وتصوُّراتهم وأفكارهم داخل حدود تصوُّرات جيلٍ محدّدٍ في زمنٍ محدّدٍ ، مثلهم كمثل من يسجن نفسه في زنزانةٍ متحرِّكةٍ — دون أن يعلم تحرُّكها — على محور الزّمن ، دون أن يعرف جهتها .. وعندما ينظر إلى خارج هذه الزنزانة ويرى عالماً مختلفاً عن عالمه المسجون داخل زنزانته ، يحسب ذلك خروجاً على ما يتصوّره مطلقاً

في زنزانته ، جاعلاً ــ بذلك ــ زنزانته ميزاناً للزمن ، وكأنَّ عالمه الخاصّ هذا هو المبدأ ، والزمن يعود إلى الوراء ..

عندما نُوقف البحث والتَّدبُّر في كتاب الله تعالى ، فهذا يعني أنّنا ننظر إلى القرآن الكريم من منظار الماضي فقط ، وبالتالي نبتعد ــ كلّما تقدَّمنا بالزمن ــ عن حقيقة ما يحمله القرآن الكريم لزماننا الذي ينبغي أن ننظر إلى القرآن الكريم من منظاره .. ويكون بذلك مثلنا كمثل من يكفر بالحقائق العلميّة المكتشفة لأنَّها لا تُوافق تصوُّراته السابقة ..

إنّ إيقاف البحث في القرآن الكريم يعني إخراج الفكر الإسلامي من سيلان الزمن في هذه الحياة ، وبالتالي الخروج ــ كمسلمين ــ من الحياة ذاتها .. فمن يحمل رسالة القرآن الكريم في حضارةٍ من الحضارات ، عليه أن يعي علوم هذه الحضارة ، حتى يُدرك ما يحمله القرآن الكريم من دلالات وبراهين لهذه الحضارة ، وبالتالي حتى يؤدّي الرسالة ــ التي يحملها ــ بشكلٍ سليم ..

فمن يُحارب العقل في تعقُّله لكتاب الله تعالى ، ويحسب نفسه داعية لغير المسلمين إلى الإيمان ــ عبر عقولهم ــ بكتاب الله تعالى ، إنّما يُقرُّ ــ سواء علم بذلك أم لم يعلم ــ أنَّ هؤلاء أقرب منه عقلاً إلى كتاب الله تعالى ..

ففي العلوم الأخرى نرى أنَّ أيَّ بحثٍ جديد لا يُواجَه بالإنكار والمحاربة بالقدر الذي يُواجَه به البحث الجديد في العلوم الدِّينيّة ، ومرادُّ ذلك أنّنا في العلوم الكونيّة سلَّمنا بالبرهان العلمي المبني على القوانين الثابتة التي تحكم مكوّنات المادَّة الموجودة بين أيدينا .. فنحن نعلم أنَّ العلوم الكونيّة لم تتطوَّر إلا بعد إتباع منهج علمي ثابت ــ في البحث ــ يعتمد على البرهان التّجريبي المرتبط بالقوانين الثابتة في مادّة هذا الكون .. بينما في مسائل الدين – بشكلٍ عام – تُبنى الأدلّة في الكثير من جوانبها على روايات تمّت إضافتها إلى الفكر المحسوب على الإسلام ، وبمعايير تاريخيّة مليئة بالأهواء والعصبيّات ..

ولَمّا كان القرآن الكريم كلام الله تعالى المتعلّق بصفاته جلّ وعلا ، وبالتالي هو أكبر دقّة من قوانين المادّة المخلوقة ، فإنَّ اعتماد القرآن الكريم ميزاناً لبراهيننا وأدلتنا ، دون

اعتماد تصوُّرات غيرنا واجتهاداته ، هو سيرٌ فعليٌّ نحو وحدة الفكر الإسلامي ، وهجرٌ فعليٌّ لحيثيات الاختلاف الفكري والمذهبي الذي نتخبَّط به منذ قرون عديدة ..

إنَّ عدوّ الإسلام الأوّل هو الفهم الخاطئ للإسلام ، والتفسير الخاطئ لبعض نصوص القرآن الكريم ، وربط روح العقيدة الإسلاميّة وقواعدها وأُسسها بتعاريف ومصطلحات لا يُقرّها القرآن الكريم ، وإرغام الناس على اعتناقها وإيهامهم أنّها تحمل روح الإسلام ..

وعدوّ الإسلام الأوّل هو إيقاف البحث القرآني ، و إخراج الفكر الإسلامي خارج سير حركة الزمن ، وتقديس بعض الرّجال المحسوبين على الإسلام كطبقة كهنوتيّة تضع من إدراكها المحدود إطاراً للنّص القرآني ، بحيث يُصبح كلّ واحدٍ من هؤلاء الرّجال قاضياً وحاكماً وناطقاً باسم الله تعالى ، يحسب نفسه إسقاطاً للذات الإلهيّة في الأرض يتكلّم ويحاكم الآخرين ويتّهمهم و يكفِّرهم متى شاء ، من منطلق أنَّه يملك الحقيقة الكاملة ..

إن مسألة الإساءة في تقديس الشّخصيّات ، لا تكمن بإعطاء هذه الشّخصيّات أكثر من حجمها الطبيعي ، بمقدار ما تكمن بكون هذا التّقديس على حساب تقديس كلام الله تعالى بما يحمله من أدلّة و أحكام وبراهين .. فاهتمامٌ كبيرٌ بآراء البشر وتصوُّراتهم بالنسبة لمسائل الدين على حساب الاهتمام بما يحمله القرآن الكريم من أدلّة وبراهين لهذه المسائل ، هو عين هجر القرآن الكريم ، وهو وجهٌ من أوجه الشرك لأنّه مماثلةٌ لما فعله الأحبار والرهبان ..

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١]

حينما نميِّز بين كلام الله تعالى وبين تصوُّرات البشر ، تمييزاً يُوازي الفارق بين الله تعالى وبين هؤلاء البشر ـــ مهما كانوا ـــ نكون قد وقفنا أمام الحقيقة دون أيّ حاجزٍ .. وحينما نضع مطلق التّقديس لكلام الله تعالى ، و بالتالي رفع التّقديس عن كلام البشر ـــ ما عدا الرّسول ﷺ ـــ نكون قد أعطينا كلام الله تعالى حقّه الذي نستطيع إعطاءه إيّاه ..

وتتجلّى مشكلاتنا المعاصرة حينما نقوم بوضع حلولٍ لمستجدّات واقعنا ، من منظارٍ لا علاقة له عمليًّا بالواقع ، ولا علاقة له نظريّاً بحقيقة المنهج السليم للبحث في القرآن الكريم ، وبالتالي يضيع الواقع و تضيع الحقيقة من أيدينا ، ونخسر الحاضر والمستقبل .. فما بين تصوّراتنا النَّظريّة عن الإسلام وواقعنا الاجتماعي والفكري ، تكمن حقيقة فهمنا و انصياعنا للإسلام ، وحقيقة سلامة توجُّهنا نحو فهم مُراد النّص القرآني ..

فالنظر إلى القرآن الكريم من منظار الأفكار مسبقة الصنع ، وعدم رؤية أحكامه ومعانيه وأدلَّته إلا من منظار هذه الأفكار ، هو هجرٌ فعلي للقرآن الكريم ، وهو مّما تجسّده الصور القرآنيّة التالية بوجهها المجّد عن الزمان والمكان والتاريخ ..

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠]

إن تأطير التَّصوُّر و التّفكير والتّعقل وفق بعدٍ واحد ، يجعل من التَّصورات الأخرى في الأبعاد الأخرى مجهولة بالنِّسبة لمنظار هذا البُعد .. فالذي يعيش في تصوُّرات مستوية (بعدين فقط) لا يمكنه تصوُّر ما ينتمي للبعد الفراغي (ثلاثة أبعاد) ، و نحن في هذا العلم (ثلاثي الأبعاد) لا نستطيع تصوّر البعد الرابع ، لأنَّ عالم المكان الذي ننتمي إليه مكوَّنٌ من ثلاثة أبعادٍ فقط (طول ، عرض ، ارتفاع) ..

وهكذا فالذي لا يستطيع النظر إلى بعض النُّصوص القرآنيّة إلاّ من منظار القصصي التّاريخي المحكوم لإطار المكان والزمان ، فلا يخرج من دائرة أسباب النزول ، إنّما يسجن تصوُّراته ضمن إطار بعدٍ واحد ، وبالتالي يجهل الأبعاد الأخرى وينكرها ويحاربها .. والطّامّة الكبرى تكون حينما يتحالف هذا التَّصوُّر أحادي البعد ، مع الحماقة وفساد الفكر ..

عندما نستمدُّ أفكارنا ومعتقداتنا ـــ بالنسبة لمسألة ما ـــ من النبع (القرآن الكريم) مباشرة ، فإننا لا نبتعد عن هذا النَّبع ، ونبقى سائرين مع الحقيقة ـــ مهما تقدَّم الزمن ـــ على خطٍّ موازٍ لما يحمله القرآن الكريم من دلالاتٍ ومعانٍ تتعلّق بهذه الحقيقة .. أمّا عندما نعتبر تصوُّرات بعض البشر مهما كان هؤلاء البشر ـــ ما عدا الرسول ﷺ ـــ عن مسألة

من المسائل التي يحملها هذا النّبع (القرآن الكريم) ، ثابتاً لا يتغير ، فإن أيّ خطأ في تصوّر غيرنا (الذي اعتبرناه نبعاً فكريّاً بديلاً عن كتاب الله تعالى) هو إطـــارٌ يحـــيط بفكرنـــا وعقولنا ، فيمنعها من السير على محور الزمن ، في الوقت الذي تسير فيه الدلالات والمعاني القرآنيّة على هذا المحور بشكلٍ يُناسب الرّقي الفكري و العلمي للبشرية ، وبالتالي نبتعد (بتقدُّم الزمن) عن فهم وإدراك حقيقة ما يحمله القرآن الكريم من دلالات و معانٍ للـــزمن الذي نعيشه ، ويكون بذلك مثلنا كمثل من ينطلق مع آخر ، كلٌّ على ضـــلع زاويـــة ، انطلاقاً من المركز بالاتّجاه الآخر ، فكلّما تقدّم الزمن ازدادت المسافة بينـــهما اتّـــساعاً ، وازدادا بُعداً عن بعضهما بعضاً ..

المشكلة ليست في الأفكار مسبقة الصنع بمقدار ما هي في تجميد الفكر والعقل داخـــل حدود هذه الأفكار ، فتلك الأفكار كانت اســـتنتاجاً يوافـــق جـــيلاً مـــن الأجيـــال ، ومستنتجوها عملوا في وقتهم بـــالأمر الإلهـــي .. ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] .. المشكلة تخلقها الأجيال اللاحقة حينما تُلغي التّدبُّر والبحث القرآني على اعتبار أنَّ السابقين قد أنجزوا الفكر الإسلامي إنجازاً نهائياً ، بحيث تقتصر حدود التّدبُّر للأجيال اللاحقة على حفظ ما قيل ..

لذلك نرى أولئك الذين يحسبون تدبُّر القرآن الكريم ، تكرار فكر عصر من العصور ، تثور ثائرتهم حينما يستنتج أحدٌ عمقاً لبعض النصوص القرآنيّة لم يُستنتج سابقاً ، في الوقت الذي لا يعنيهم أبداً تنزيه تصوُّرات البشر عن القرآن الكريم مما أُلصق به مـــن أحكـــام لا يحملها لا من قريب ولا من بعيد ، كما سنرى ـــ إن شاء الله تعالى ـــ في هذه النَّظريّة من أحكام وضعية ألصقت بمسائل العبيد ومالك اليمين ، وكما رأينا في النظريّة الثالثة (الحق المطلق) كيف أُلصقت مسألة الناسخ والمنسوخ بالقرآن الكريم ، في الوقت الذي يتعارض فيه ذلك مع حقيقة القرآن الكريم ، الذي هو فوق الحدوث والمرحليّـــة والتّـــصادم بـــين أحكامه ..

ما دام القرآن الكريم تبياناً لكلِّ شيء كما يؤكِّد قائله سبحانه وتعالى .. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النّحل : ٨٩] ، فهذا يعني أنَّ القرآن الكريم يحمل إشاراتٍ لنهايات القوانين والنُّظم لكل شيءٍ في هذا الكون ، وبالتالي فعدم رؤيتنا لتبيان الأشياء من خلال القرآن الكريم ، هو تقصير منّا في مسألة البحث القرآني .. وما يؤكِّد هذا التَّقصير ــ سواء للبحث في القرآن الكريم أم في مادّة الكون ــ هو أنَّ اكتشاف الأُمم الأُخرى لحقائق علميّة يحملها القرآن الكريم يسبق (في معظم الأحيان) اكتشافنا لما يحمله القرآن الكريم لها .. فبعد أن يكتشفوا مسألة ، نقول لهم أنَّها موجودة في القرآن الكريم ، أمّا أن نبحث نحن في عالم المادة عبر العلوم الكونيّة ، و في عالم الأمر عبر القرآن الكريم ، ونستنتج بأنفسنا التَّطابق الكامل بين كتاب الله تعالى المقروء (القرآن الكريم) وكتابه المنشور (الكون) ، أو أن ننطلق من القرآن الكريم لاستنتاج حقائق كونية ، فهذا (وللأسف) نادرٌ ما يكون ..

وكل ذلك نتيجة تأطير حدود البحث والتّدبُّر في كتاب الله تعالى ضمن إطارٍ لا يتعدَّى القرون الأُولى التي تلت نزول القرآن الكريم ، وتصوير الفكر الإسلامي على أنَّه أُنجز وأُطرت حدوده ضمن إطار تتبع ما قيل تتبُّعاً يُكفّر من خلاله كلّ باحث يخرج عن هذه الحدود والأُطر ، وإلقاء القدسيّة على بعض الشَّخصيّات بحيث يمنع منعاً باتّاً مخالفة آرائها وتصوُّراتها ، حتى وإن كانت تلك الآراء والتّصوُّرات تُخالف الأدلّة والبراهين الواضحة في القرآن الكريم وضوح الشمس ..

وكلامنا هذا لا يعني أن نبحث في القرآن الكريم بحثاً خاضعاً للأهواء و التّصوُّرات بحجّة الثورة على القديم ، كما حصل مع الكثيرين .. فكيف نقول لا يحقّ لأحدٍ فرض تصوُّراته على النَّص القرآني ، وإطلاق هذه التصوُّرات إطلاقاً يحيط بكلِّ زمان ومكان ، ونقبل في الوقت ذاته أن نجعل من تصوُّراتنا قيداً يحيط بالنَّص القرآني ، ويحجزه داخل زماننا ومكاننا اللذين تنتمي إليهما أهواؤنا وتصوُّراتنا ..

إنَّ الذين لا يستطيعون القفز خارج إطار تصوُّرات جيل محدَّدٍ لما يحمله القرآن الكريم .. والذين يجعلون من خيالهم وأهوائهم ونقيض ما قيل ، إطاراً لما يحمله النَّص .. هـؤلاء وهؤلاء متساوون في عدم إدراك حقيقة القرآن الكريم ، ومتساوون في درجـة الإسـاءة للقرآن الكريم .

فقولنا بإطلاق التَّدبُّر والبحث في القرآن الكريم ، لا يعني أبداً أنَّ تدبُّر السابقين غـير صحيح ، أو أنَّه كلَّه صحيح ، ولا يعني أبداً الإساءة لهم ــ كما يريد أن يفهم بعضهم ــ ولا يعني أبداً أنَّ السابقين كانوا مقصِّرين ببحثهم ، ولا يعني أبداً أنَّ كلَّ بحثٍ جديدٍ هـو مطلق ، ولا يعني أبداً إطلاق التَّصورات إطلاقاً تابعاً للأهواء .. إنَّ ما نعنيه هـو احتـرام النَّص القرآني وتقديسه كونه متعلقاً بصفات الله تعالى ، وكونه يحمل تبياناً لكلِّ شـيء ، وكونه صالحاً لكلِّ زمان ومكان ، وكونه تدبُّر أمراً إلهيَّاً في كلِّ زمان ومكان ..

وقولنا بإطلاق البحث والتَّدبُّر ، لا يعني أبداً القفز فوق ثوابت الفقه وأحكامه وأدلَّته الموجودة في كتاب الله تعالى ، والتي وصلتنا عن الرسول ﷺ حياةً تعبديّة أبّاً عـن جـد ، كأحكام الصلاة والزكاة والصيام وَ ...... كما يريد أن يفهم بعضهم .. فما نعنيه هـو إطلاق البحث القرآني فيما يتعلَّق بالمسائل التي تحمل أحكاماً يتركها القرآن الكريم مفتوحة للاجتهاد ، حتى يأخذ كلُّ جيلٍ منها بمقدار درجة وعيه وتدبُّره لهذه الأحكام ..

إنَّ الجزمَ بأنَّه لا يمكن فهم الأحكام والتشريعات الإسلامية أكثر مّما فهمها الأوائل ، هي مقولةٌ غير صحيحة إطلاقاً بالنسبة لمسألة تفسير القـرآن الكـريم وتـدبُّر آياتـه .. فاستمرارية الالتزام بمنهج الإسلام من جيلٍ لجيل ، تقتضي أن يعي الجيل اللاحق حقيقـة تفسير القرآن الكريم ، وعياً أكثر عمقاً مما سبقه من أجيال ، لأنَّ بين يديه كلَّ مـا قالـه السّابقون ، في الوقت الذي لا يعلم فيه السّابقون الاكتشافات المستجدّة بين يـدي هـذا الجيل .. هذه الحقيقة تبينها لنا الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصِّلت : ٥٣]

فاكتشاف الحقائق العلميّة ، ورؤية حمل القرآن الكريم لها جيلاً بعد جيل ، هو تبيانٌ تصاعديٌّ نحو الشّهادة بأنَّ القرآن الكريم حقٌّ من عند الله تعالى ، وبالتالي ترى الأجيال اللاحقة من هذه الحقائق ومن حمل القرآن الكريم لها ما لا تراه الأجيال السابقة ..

إنَّ هناك الكثير الكثير من المناظير والأعماق والرّؤى التي يُمكن من خلالها رؤية حقائق أُخرى يحملها القرآن الكريم .. وبالتالي هناك الكثير الكثير من الحقائق التي يحملها بين سطوره ، ولكنّنا لا نراها لأنّنا لا نبحث عن مفاتيح هذه العلوم والحقائق التي يحملها كتاب الله تعالى .. فكون القرآن الكريم يحمل تبياناً لكلِّ شيء ، لا بُدَّ لرؤية كلّ تبيان من الدخول إلى القرآن الكريم من الباب الخاص بهذا التّبيان ..

لقد رأينا في النظرية الأولى (المعجزة) أنَّ نسبة اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضيّة لها تبيانٌ في القرآن الكريم ، ندخل إليه من باب مجموع ورود الكلمة فيه .. فكلمة البّر المعرّفة وكلمة (يبساً) تردان في القرآن الكريم (١٣) مرّة ، وكلمة البحر المعرّفة ترد (٣٢) مرّة ، وهذا كما رأينا يعكس تماماً نسبة اليابسة والبحار على الأرض .. وإنَّ عدم ملك مفتاح هذا الباب إلا بعد قرونٍ عديدة ، جعلنا نجهل هذه الحقيقة خلال تلك القرون ، إلى أن أتى العلم الحديث وأكتشف هذه الحقيقة ، وتمَّ اكتشاف هذا الباب من البحث الذي فتح آفاقاً لاكتشاف حقائق كثيرة يحملها القرآن الكريم ، اختصاراً وتبياناً للأشياء في هذا الكون ..

حتى نكون سائرين في منهج الله تعالى سيراً سليماً ، علينا أوّلاً فهم ما يريده الله تعالى فهماً سليماً ، ومن ثم العمل وفق ما فهمناه عملاً صادقاً خالصاً لله تعالى ، حين ذلك نستطيع القول بأنّنا سائرون في صراط الله تعالى المستقيم ... وهكذا فالخطوة الأولى نحو الحقّ هي فهم مراد الحقّ ، وتأتي الخطوة الثانية تطبيقاً عمليّاً لهذا الْمُراد ..

إنَّ من يدعو إلى الحقيقة وإلى تحكيم كتاب الله تعالى ، يُحارَب من مذهبين متناقضين تماماً بالنسبة لرؤية منهج الله تعالى ، ومتماثلين تماماً بالنسبة للإساءة إلى منهج الله تعالى ..

يمثِّل المذهبَ الأوَّلَ التَّقليديّون الذين يحسبون الفكر الإسلامي منجزاً و لم يُبقِ منه الأوائل شيئاً للتدبُّر والبحث ، وبالتالي يُحاربون الباحث عن الحقيقة والدّاعي إليها على أنَّه مبتدعٌ زنديق ، يدعو للخروج على أحكام الله تعالى ، وذلك لأنَّهم يعتقدون أنَّ تصوُّرات جيلٍ من الأجيال هي عينُ مُراد الله تعالى لكلِّ زمانٍ ومكانٍ .. ويمثِّل المذهبَ الثاني الخارجون على تقديس كتاب الله تعالى ، وعلى كونه مطلقاً ترجعُ إليه الأحكام ، و الذين يخضعون النُّصوص القرآنيّة لأهوائهم و تصورُّاهم ، وبالتالي يحاربون الباحث عن الحقيقة والداعي إليها على أنَّه تقليديٌّ يُعيد الزمن إلى الوراء ، ذلك لأنَّه يعتبرون أهواءهم وتصوُّراهم ميزاناً للزمن ، وما يخالفها رجوعٌ إلى التَّخلُّف ..

هؤلاء وهؤلاء يمثِّلون فكَّي كّماشة تحاول بتر الحقيقة ، وكلٌّ منهما يتهم الباحث عن الحقيقة والدّاعي إليها على أنّه من الطّرف الآخر وكلٌّ منهما يعتبر (سواء علم بذلك أم لم يعلم) أنَّ القرآن الكريم خاضعٌ للزمان والمكان .. فسواءٌ من يعتبر القرآن الكريم لا يخرج عن تصوُّرات جيلٍ مُحدَّدٍ ، أم من يعتبر القرآن الكريم خاضعاً لتصوُّراته وأهوائه ، كلاهما يضع القرآن الكريم داخل إطار الزمان والمكان ، ويسيء لحقيقة القرآن الكريم وماهيّته المجرَّدة عن الزمان والمكان والتاريخ ..

إنَّ الفارقَ كبيرٌ بين العقيدة المبنيَّة على علمٍ بالمعتقد وبغير المعتقد مّما يخالفه من أفكار ، وبين العقيدة المبنيّة على عدم علمٍ حتّى بالمعتقد .. فحين نعلم كلَّ الأفكار ونختار ــ على علمٍ ــ ما نريد ، نكون أقوياء بعقيدتنا وفكرنا ، وحينما لا نعلم شيئاً ولا نملك إلاّ التَّعصُّب الأعمى لما قيل ، نكون ضعفاء ، تهدم بناءَ عقيدتنا أيُّة عاصفةٍ مهما كانت ضعيفة ..

فليس هدفنا وطموحنا إيماناً كإيمان العجائز ، إنما هدفنا وطموحنا إيمانٌ كإيمان العلماء ، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ولم يقل (إنما يخشى اللهَ مِن عبادهِ العجائزُ) ..

وهذه النظرية (الحكمة المطلقة) هي تبيانٌ لحقائق وثوابت يحملها القرآن الكريم ، من منظار مجرَّدٍ عن التاريخ والزمان والمكان ، لا تُرى إلاّ من هذا المنظار ... وعدمُ رؤية الأجيال السابقة لهذه الحقائق ليس ناتجاً عن كون القرآن الكريم لا يحمل هذه الحقائق ، وإنّما عن كونهم لم ينظروا إلى القرآن الكريم من هذا المنظار ..

والفصل الرابع من هذا الكتاب هو أكبر دليلٍ على صحّة قولنا عن محاربي التَّدبُّر والتَّفكُّر في كتاب الله تعالى ، فكما سنرى ــ إن شاء الله تعالى ــ تمَّ وضع أحكام وضعيّة أُلصقت بالإسلام وحُسبت عليه ، مع أنَّ الإسلام منها براء .. وأتى محاربو التَّفكّر والتَّدبُّر ليضعوا قدسيّة على هذه التشريعات الوضعيّة ، وبالتالي الإساءة إلى صور الإسلام في نفوس البشر ، وتحميل الإسلام تبعات هذه التصوُّرات الخاطئة ..

إنَّ التَّدرُّج في برهان هذه النَّظريّة هو تدَّرُّجٌ تصاعديٌّ ، تتمُّ فيه البرهنة على إطلاق النَّص القرآني من قيود التّاريخ والزمان والمكان التي فُرضت عليه .. فابتداءً من الفصل الأوّل الذي تتمُّ فيه البرهنة على إطلاق النَّصوص القرآنيّة القصصيّة إطلاقاً متعلقاً بترميز أشخاصها وأحداثها ، ومروراً بالفصل الثاني الذي تتمُّ فيه البرهنة على أنَّ أسماء الشَّخصيات القرآنية هي ــ من زاوية إطلاقها ــ رموزٌ لأبجديّة الحكمة المطلقة في صراعها مع الشَّرِّ في كلِّ زمانٍ ومكان ، ومروراً بالفصل الثالث الذي تتمُّ فيه البرهنة على إطلاق النُّصوص القرآنيّة التي تحمل وجهاً ظاهره التاريخ ، وانتهاءً بالفصل الرابع الذي تتمُّ فيه البرهنة على إطلاق مسألة العبيد وملك اليمين ، إطلاقاً يُخرِج هذه المسألة من خصوصيّة التّأطير التاريخي في عصر من العصور ، ويزيل مفهوم التشريعات الوضعيّة التي تعلّقت بهذه المسألة وأُلصقت بالإسلام وحُسبت عليه .. كلّ ذلك تدرُّجٌ في البرهنة على إطلاق النص القرآني ، وكسرٌ لقيود الزمان والمكان والتاريخ التي فُرضت على ما يحمله القرآن الكريم من أحكامٍ وأدلّة ..

والبرهان المتَّبع في هذه النَّظريّة هو ــ كما سنرى ــ برهانٌ قرآني يعتمد على ثوابت العقل والمنطق من منظار منهج البحث القرآني السليم ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ الذي رأيناه في

النَّظريّة الثالثة (الحق المطلق) ، لتفسير النصوص القرآنية تفسيراً مجرَّداً عن الزمان والمكان والتاريخ ..

.. نصّ النَّظريّة ..

❁ النَّصُّ القرآنيُّ مطلقٌ ولا يحيط به تاريخٌ ولا زمان ولا مكان ، يستمدُّ إطلاقه من تعلُّقه بصفات الله تعالى التي هي فوق التاريخ والزمان والمكان ..

❁ أسماء الأشخاص والأحداث في القرآن الكريم هي – إضافة لتعلُّقها بأصحابها – رموزٌ لأوجه الحكمة المطلقة ، وإسقاطاتها في كلِّ زمانٍ ومكان ، ترسم بتحرُّكها القصصي الحركة المجرّدة عن التاريخ ، لتفاعل البشر مع الحِكَم والعِبَر المطلقة في كلّ زمان ومكان ..

❁ كلّ نفس بشريّة في كلّ زمانٍ ومكان هي مزيجٌ من الإسقاطات النّسبيّة للشّخصيّات القرآنيّة ، خيّرة كانت أم شرِّيرة ، وذلك بنسب تتبع تعلُّق هذه النفس بمسائل الخير والشّرّ ..

❁ كلُّ نفسٍ بشريّةٍ في كلّ زمان ومكان لها درجةٌ على محور الرسالة والنُّبوّة ، تتعلّق بدرجة دعوتها و خلاصها لله تعالى ، وبحيث توجد النفوس الخيّرة على الجانب الإيجابي لهذا المحور ، والنفوس الشِّريرة على جانبه السَّلبي ..

❁ النُّصوص القرآنية التي ظاهرها وجهٌ تاريخيٌ يُخاطب الرسول ﷺ ومن عاصره ، هي نصوصٌ مطلقة مجرَّدة ، تخاطب كلّ نفسٍ بشريّة في كلِّ زمان ومكان .. وتصوُّرنا لهذا الوجه التاريخي متعلِّقٌ بإخضاع هذه النُّصوص القرآنيّة لتَصوُّراتنا الزَّمانيّة المكانيّة ..

❁ مسألة العبيد وملك اليمين في القرآن الكريم مسألة مجرّدة عن التاريخ والزمان والمكان ، ولها إسقاطٌ في كلِّ زمان ومكان ، والقرآن الكريم بريءٌ مما أُلصق به من أحكام وتشريعات وضعيّة أُلصقت بالإسلام وحُسبت عليه ..

وأخيراً أقول لكلِّ من يتعصَّب لتصوُّرٍ يحسبه مطلقاً ، ولكلّ من يحسب نفسه ناطقاً باسم الله تعالى .. إذا توهّمتني ـــ من منظارك ـــ خارجاً بهذه النّظريّة عما تحسبه عين مراد الله تعالى ، فأنت ـــ من المنظار نفسه ـــ إما أنّك محيط بصفات الله تعالى ، إحاطةً مطلقةً تمكِّنك من الجزم بهذا الخروج ، وهذا محال ، وإما أنَّك مُحاطٌ بجهلٍ يُخرجك من نور الله تعالى إلى ظلمات تصوُّراتك المحدودة ..

... وتفضلوا الآن إلى برهان هذه النَّظريّة ...

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الحكمة المطلقة
في رموز القصّة القرآنيّة

.. لقد رأينا في النظرية الثّالثة (الحقّ المطلق) أنَّ القرآن الكريم ينتمي لعالم الأمر ويتعلّق بصفات الله تعالى ، وأنَّه كلامُ الله تعالى وقولُه ، قاله الله تعالى بحرفيَّته في عالم ما فوق المادة والمكان و الزمان .. وبالتَّالي فكلٌّ ما يحمله القرآن الكريم من معانٍ وإشاراتٍ وأدلَّةٍ وبراهين (آيات) ، هي فوق الزمان والمكان ، ولا يمكن تأطيرها في زمانٍ ومكانٍ محدَّدين دون غيرهما ..

فكون القرآن الكريم قول الله تعالى ، وبالتالي صياغة لغويّة من الله تعالى ، يقتضي أن تحمل هذه الصياغة لكلِّ جيلٍ من المعاني والحكم والعبر والأدلّة والبراهين ما يناسب علم هذا الجيل وحضارته ، دون أن يُناقض ذلك الأدلَّة والمعاني التي تحملها الصياغة ذاتها للأجيال السابقة واللاحقة لهذا الجيل .. فالقرآن الكريم بكلِّ ما يحمله من صورٍ صالحٌ لكلِّ زمان و مكان ، و لا يمكن تأطير أيّ عبارة قرآنية في إطارٍ مُحدَّدٍ من الزمان والمكان ..

وهنا سؤالٌ يطرح نفسه .. كيف ينسحب ذلك على القصص القرآنيَّة التي تصوِّر لنا أحداثاً مع أشخاصٍ محدَّدين في أمكنة وأزمنة محدّدة ؟ .. وكيف ينسجم قولنا إنَّ القرآن الكريم بكلِّ ما يحمله صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ مع أنَّه يحمل الكثير من القصَّص التي تصوِّر لنا أحداثاً وقعت في أزمنة وأمكنة مُحدَّدة ؟ ..

إنَّ الزمان والمكان هما انعكاسٌ في نفوسنا لكلِّ ما يقع تحت حواسِّنا من ظواهر مادِّية مخلوقة .. وهذه الظواهر تستمدُّ حيثيّات وجودها في كلِّ لحظة من الخالق سبحانه وتعالى ، فدوران الطاقة المودعة في جسم ذرّات هذا الكون ، و الذي يعطي هذا الكون حيثيّات

وجوده ، هو بمشيئة الله تعالى ، ولولا ذلك لزالت ذرّات هذا الكون ، و بالتالي لزالت السماوات والأرض ، ففي كلِّ لحظة تحتاج السماوات والأرض إلى مشيئة الله تعالى حتى تبقى في عالم الوجود المكاني و الزماني .. و بالتالي هذا الكون يتجه إلى الزوال ، وما يمنعه من الزوال هو قدرة الله تعالى ، فالمادة بوجودها المكاني والزماني ليست أصيلة في هذا الكون ، و ليس لها وجودٌ مستقلٌ عن قدرة الله تعالى ومشيئته ..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

ففي كلِّ لحظة تحتاج كلّ ذرَّة في هذا الكون إلى أمر الله تعالى ، حتى تخرج من عالم العدم ، وتقوم في عالم الوجود المكاني والزماني ..

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾ [الرّوم : ٢٥]

وعلْم الله تعالى المطلق يُحيط بالكون من بدايته إلى نهايته زماناً ومكاناً ، فلا فارق بالنسبة لله تعالى بين ما كان وما يكون وما سيكون ..

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧]

فكلّ حركة من حركات هذا الكون المادِّية والحسِّية ، هي إسقاطٌ زماني مكاني لما علمه الله تعالى بعلمه المطلق وقدّره في أمّ الكتاب ..

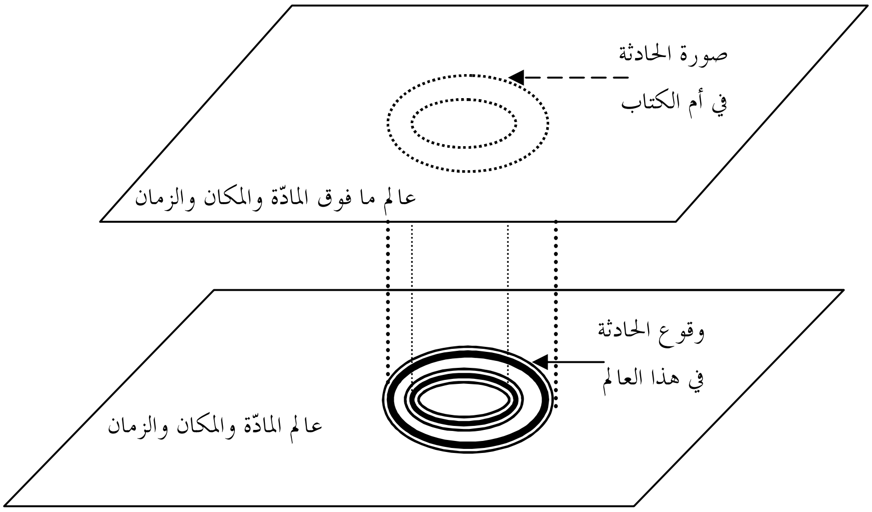

ومن جهة أخرى فإنَّ كلّ ما علمه الله تعالى بعلمه المطلق ، علماً مقدّراً في أم الكتاب (القدر) ، سيحدث في وقته المحدّد في عالم المادَّة والزمان والمكان ، وفق مـــا علمـــه الله تعالى بعلمه المطلق ..

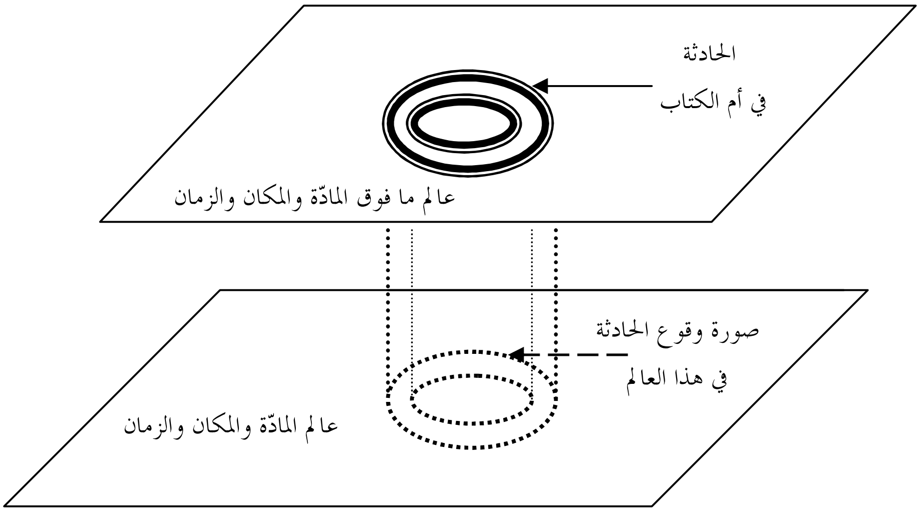

والقصص القرآنيِّة هي شواهد حسِّيّة في عالم المشيئة (عالم الخلق) حدثت في أزمنـــة وأمكنة محدَّدة ، تجسيداً وإسقاطاً زمانيّاً مكانيّاً لِحِكَمٍ وعِبَرٍ تحدث في كلّ زمان ومكان .. ومن يتصوَّر أنَّه لا يوجد أيّ إسقاطٍ للقصّص القرآنيّة في أزمنة و أمكنة أخرى غير تلـــك

التي حدثت بها ، إنما يحجّم المعاني و الدلالات والعِبَر التي تحملها كلمات الله تعالى ، ضمن إطار خياله المبني من لبنات المكان و الزمان ..

فكلٌّ قصَّةٍ أو مشهدٍ أو حلقةٍ من قصةٍ في القرآن الكريم ، عبارة عن إسـقاط زمـاني مكاني لحِكم وعِبَر وبراهين وأدلّةٍ مطلقة مجرّدة عن الزمان والمكان .. وقمَّة التَّجسيد المادَّي الزماني المكاني لهذه العِبر و الحِكَم ، هو الإسقاط الذي حصل مع الأشخاص الذين يصفهم الله تعالى في مشاهد القصّة القرآنيّة ..

إنَّ ما يربط القصص القرآنيّة التي تصوّر أحداثاً في أزمنة و أمكنة محـدّدة ، بـالحِكَم والعِبَر المجرَّدة عن الزمان والمكان والكامنة وراء أحداث هذه القصّص ، هو ذاته ما يـربط وقوع الأحداث في عالم المادّة والزمان والمكان بعلم الله تعالى الكاشـف المطلـق لهـذه الأحداث ..

فكما أنَّ وقوع الأحداث في عالم الزمان والمكان لا يُلغي تجرُّد علم الله تعالى الكاشف عن الزمان والمكان ، بل هو دليلٌ على هذا العلم .. كذلك هي القصص القرآنيّة لا تُلغـي الحِكم والعِبَر والأدلة والبراهين المجردّة عن الزمان والمكان والكامنة وراء أحـداث هـذه القصص ، بل هي دليلٌ على هذه الحكم والعِبَر والأدلّة والبراهين ..

ومن الأدلة على ذلك في القرآن الكريم ، تسمية الأشخاص في القرآن الكريم بأسمـاءٍ مستقلّةٍ عن آبائهم ، فلم يرد في القرآن الكريم ، محمد ابن فلان وموسى ابن فلان وفرعون ابن فلان وَ ..... فجميع الأسماء الواردة في القرآن الكريم هي أسماء مجردة عن النَّسل مـا عدا اسمين اثنين هما عيسى ومريم عليهما السلام ..

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾ [النِّساء : ١٧١]

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [التحريم : ١٢]

فسواءٌ عيسى ابن مريم أم مريم بنت عمران ، لهما خصوصيّة (من جانب النّسل والولادة) لن تتكرّر ، فلن يولد طفلٌ ــ غير عيسى عليه السلام ــ من دون أب ، ولن تلد امرأة ــ غير مريم عليها السّلام ــ من دون رجل .. هذه الخصوصيّة من هذا الجانب هي سبب نسب عيسى إلى أُمِّه ، ومريم إلى أبيها ..

أما من باقي الجوانب (ما عدا النّسل والولادة) ، فللحِكَم والأدلّة والبراهين الكامنة وراء الأحداث التي حصلت معهما في أزمنة وأمكنة محدّدة ، إسقاطات في كلّ زمانٍ ومكان ، ولذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يصفهما أحياناً بالاسم المجّرد عن النَّسب ، شأنهما بذلك شأن باقي الأشخاص الموصوفين في القرآن الكريم ..

﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣]

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ... ﴾ [آل عمران : ٥٢]

ولذلك فإنَّ أسماء الذَّات في القرآن الكريم والتي تُسمى ذواتاً محدّدة عبر إسقاطٍ محدّد في زمان ومكان محدّدين ، هي في الوقت ذاته أسماء صفات لإسقاطات هذهِ الذّوات في جميع ألأزمنة والأمكنة .. فلكلِّ القصص والأحداث المرتبطة بها ، الواردة في القرآن الكريم ، إسقاطاتٌ تقع في كلّ زمانٍ ومكان ..

ولما كان القرآن الكريم تبياناً لكلِّ شيء ..

﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النّحل : ٨٩]

فلا بُدَّ أن تحمل عباراته من المعاني و الأحكام و العِبَر و البيّنات بحيث ينفد البحر إن كان مداداً لها ..

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

وهذا لا يكون إلاّ إذا حملت عباراته الظاهرة معاني عميقة باطنه لا يحيط بها إلاّ الله تعالى ، وفيها تبيانٌ لكلّ شيء في هذا الكون ..

ومن هنا لا بُدَّ من البحث العلمي المنهجي وفق منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ ، لإظهار تبيان الأشياء التي ليس لها تبيانٌ ظاهرٌ في ظاهر العبارات القرآنيّة ..

وهكذا ... فكون القرآن الكريم قول الله تعالى ، حيث صاغ الله تعالى أحكامه وعبره ومعانيه (كلماته) عبر قالبٍ لغويٍّ اختاره الله تعالى ، يقتضي أن يكون لكلّ اسمٍ ولكلّ

صورة لأيّ مشهد قرآني عمقان .. عمقٌ ظاهر حسّي يصف الحدث في إطار الزمان والمكان ، وعمقٌ باطن يصف الحِكَم والعِبَر التي هي فوق الحسّ والمادّة ..

وعظمة البيان الإلهي تأتي أحياناً ببعض الحِكَم و العِبر وفق إسقاطاتها الزمانيّة والمكانيّة لنتصوَّر ــ حسب استطاعة إدراكنا ــ من خلالها ، العِبر والحِكم والمعاني الكامنة وراء هذه الإسقاطات ..

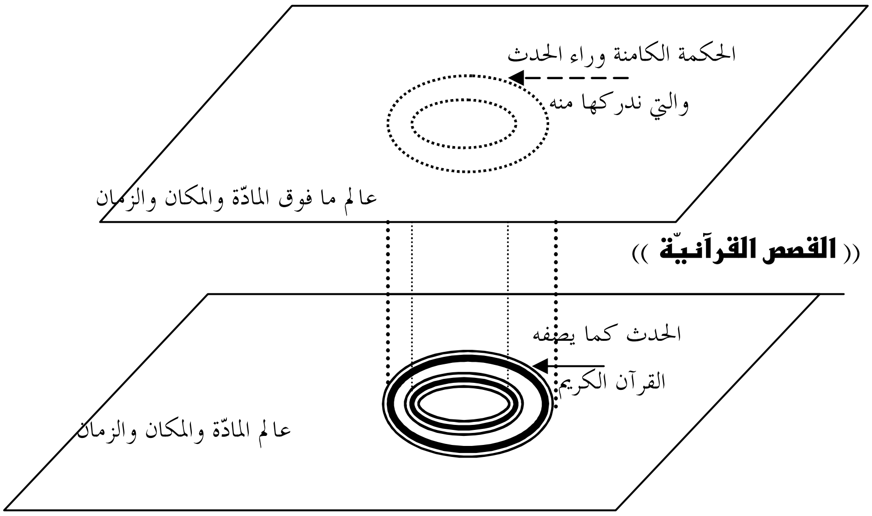

وتأتي أحياناً بالحِكم والعِبر عبر صورٍ مجرّدةٍ عن إسقاطاتها المكانية الزمانية ، لنتـــصوَّر إسقاطات هذه الحِكَم والعِبَر ، كلٌّ في المكان والزمان الذي يعيشهما ..

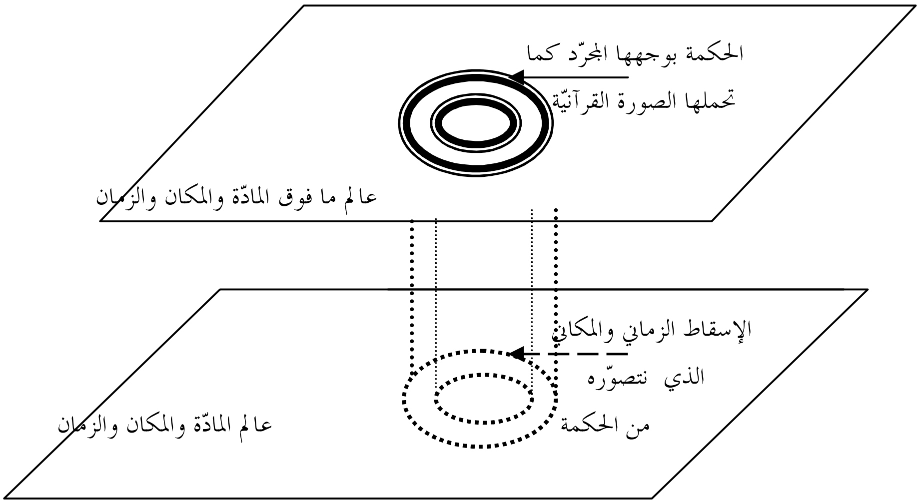

وهكذا فالمشهد القصصي القرآني هو قمّة التجسيد الزماني والمكاني للعبرة والحكمة التي يريد الله تعالى من البشر إدراكها .. والصوّر القرآنية المجرّدة عن الزمان والمكان هي قمّة البيان الإلهي للعبرة والحكمة المُرادة في كلّ زمان ومكان .. فلكلّ قصّة قرآنيّة صورة ظاهرة تصف لنا أحداثاً وقعت في أزمنة و أمكنة محدّدة تُعَدُّ قمَّة التّجسيد الزماني والمكاني للحكم والعِبر المرادة من الله تعالى ، وصورة عميقة ترسم حقيقة الأحكام و العِبر المطلقة المجّردة عن الزمان والمكان وعن الأشخاص الذين تشير إليهم كلمات القصة القرآنيّة ..

فالحركة التاريخية الظاهرة المحكومة لإطار المكان والزمان في القصَّة القرآنية ، تقف وراءها حركة مجرّدة عن التاريخ والزمان المكان ، ساحتها كلّ نفسٍ وكلّ مجتمع وكلّ جيلٍ في كلّ زمان ومكان ..

ولنقف عند القصّة القرآنيّة التالية لنرى ما نستطيع رؤيته من هذه الحقيقة ، وكيف أنّ لكلِّ شخصٍ من أشخاص هذه القصّة ، ولكلِّ حدثٍ من أحداثها ، عمقين .. عمق زماني مكاني تاريخي ، وعمق حكمة وعبرة باطنة مجرَّدة عن الزمان والمكان والتاريخ ..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ

أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٦٠ – ٨٢]

إنَّ تفسير ظاهر هذه القصة كأحداثٍ ظاهرة وقعت مع موسى عليه السلام والعبد الصالح في زمان ومكان محدّدين ، يدركه كلّ من يملك حدّاً أدنى من إدراك المعاني والدّلالات الظاهرة للكلمات القرآنيّة ، وهو تفسيرٌ موجودٌ في جميع كتب التفسير قديمها وحديثها .. لكنّنا سننظر إلى هذه القصّة من منظار الحكمة المجرّدة الكامنة وراء الأحداث الظاهرة فيها ، لنرى كيف أنّ هذه الأحداث الظاهرة المتحرّكة في إطار المكان والزمان ترسم ــ من منظار الحكمة الباطنة ــ بتحرُّكها أحكاماً وعِبَراً ثابتة مجرّدة فوق المكان والزمان والتاريخ ..

في البداية ما هما البحران اللذان يريد موسى عليه السّلام أن يبلغ مجمعهما ؟ .. لقد وردت كلمة البحرين في القرآن الكريم خمس مرّات ..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ [الكهف : ٦٠]

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣]

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل : ٦١]

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [فاطر : ١٢]

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ – ٢٠]

فبين البحرين يوجد حاجزٌ وبرزخٌ وحجرٌ محجورٌ ، بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر ، والعبارة القرآنيّة ﴿ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ تعني التقاءهما .. وهل يكون ذلك دون رفع البرزخ الحاجز بينهما ؟ ..

ولو كانت العبارة القرآنيّة ﴿ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ لا تعني إلاّ اسم ذات لمكان اجتماع موسى مع العبد الصالح عليهما السّلام ، لأتت في الآية الثانية من النّص بالصيغة ذاتها ، فأسماء الذات لا تتغيّر ولا تتبدّل ، ولكنَّ الذي نراه أنّ َهذه العبارة تأتي في الآية الثانية بصيغة أُخرى ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ ليست مجرّد اسم ذات لمكان التقاء موسى بالعبد الصالح ..

وإذا كانت هذه العبارة ليست اسم ذات لمكان التقائهما ، فلم يبقَ ــ إذا تمَّ حصر العبارة بالتَّصوُّر المكاني ــ إلا أن تكون اسم صفة لذلك المكان .. أي أنَّ هناك بحرين معروفين ومُحَدَّدين ، ولهما مجمعٌ محدَّدٌ ، و الْمُراد بلوغ ذلك المجمع المعروف الْمُحدَّد بين ذلك البحرين .. لو كان هذا التصوُّر صحيحاً ، لناسب العبارة القرآنيّة الصيغة التالية (

فلما بلغا المجمع بينهما) .. فالمجمع ــ وفق هذا التصوُّر ــ تمَّ بلوغه بكامله ، وهو معروف ومحدَّد ..

ولو تمَّ بلوغ قسم غير محدَّد من هذا المجمع ، لناسب العبارة القرآنيّة الصيغة التالية (فلما بلغا مجمعاً بينهما) .. أي تمَّ بلوغ مكان ما غير محدَّد من هذا المجمع بين البحرين ..

ولكنَّ الذي نراه أنَّ العبارة القرآنيّة هي ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا** ﴾ .. أي فلَمّا بلغا نقطة الالتقاء بينهما والتي رُفع فيها ــ فقط فيها ــ البرزخ والحاجز الذي يحجز بين هذين البحرين ، فالحاجز لم يُرفع إلاّ في هذه النقطة .. فلو رُفع على امتداد البحرين لكانت الصيغة (فلما بلغا المجمع بينهما) هي المناسبة ، ولو كانت نقطة رفع الحاجز غير محدّدة لكانت الصيغة (فلما بلغا مجمعاً بينهما) هي المناسبة .. ولكن ما بلغاه هو نقطة التقاء محدّدة ، وليست ممتدّة على امتداد البرزخ بينهما ..

ولو نظرنا إلى العبارة ﴿ **حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ** ﴾ لرأينا أنَّ هدف موسى عليه السّلام هو بلوغ مجمع البحرين ، ولو كان مجمع البحرين لا يشير إلاّ إلى مكانٍ محدّد للقاء ، لتعارض ذلك مع هدف موسى عليه السّلام بطلب الحكمة كما يقرٍّ في القصّة ذاتها ، فموسى عليه السّلام هدفه ليس بلوغ مكان محدّد لمجرَّد أنَّه مكان .. صحيحٌ أنَّ هناك مكاناً سيتمُّ اللقاء فيه ، ولكنَّ القرآن الكريم لم يحدّد ذلك المكان ، ولم يذكر لنا شيئاً عن ماهيّة العبد الصالح الذي سيعلّم موسى عليه السّلام ..

ولو كانت العبارة القرآنيّة ﴿ **مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ** ﴾ لا تحمل إلاّ معنىً ظاهرياً يدلُّ على مكانٍ محدّد ، لكان هذا المكان معلوماً ، وتعلّق معرفته بأنَّه هو فقط مجمعٌ لبحرين معروفين ومحدّدين ، وبحيث لا يُوجد بحران لهما مجمعٌ إلاّ هذين البحرين .. ولكنَّ ذلك يتعارض مع حقيقة وجود البحار على الأرض ، ومع إطلاق هذه العبارة القرآنيّة ، فهناك الكثير من البحار تلتقي وبحيث يكون لكلّ بحرين منها مجمعٌ .. فالله تعالى عندما يقول ﴿ **مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ** ﴾ يشير إلى بحرين لا ثالث لهما ، ويوجد بينهما مجمع لا ثاني له ..

وبلوغ الْمُراد يكون إما بلوغاً مكانيًّاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ [الكهف : ٩٣] وإما بلوغاً زمانياً ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وإما بلوغ حقيقة موقف مجرّد عن المكان والزمان ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ .. ولا يستطيع أحدٌ أن يثبت أنَّ هذا البلوغ الذي أراده موسى عليه السّلام محصورٌ فقط بالبلوغ المكاني ..

وكذلك كلمة ﴿ أَبْرَحُ ﴾ التي تعني أترك وأدع ، تأخذ حركتها التعبيريّة من ماهيّة المسألة التي ترتبط بها ، فحينما ترتبط بمكان تعني ترك هذا المكان .. ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ [يوسف : ٨٠] ، وحينما ترتبط بحقيقة وهدف وموقف تعني ترك هذا الهدف والموقف .. ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٩١] ..

وكذلك كلمة ﴿ حُقُبًا ﴾ تأخذ حركتها التعبيريّة من ماهيّة المسألة التي ترتبط بها ، فهي تعني دورة كاملة من بداية مسألة محدّدة إلى نهايتها ..

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النّبأ : ٢١-٢٣]

ففي هذه الصورة القرآنيّة تشير كلمة تشير كلمة ﴿ أَحْقَابًا ﴾ إلى دورات وألوان مختلفة من العذاب ، ولا يمكن حصرها بالقالب الزماني ، لأنَّ أهل جهنّم خالدون فيها ، وكلمة ﴿ أَحْقَابًا ﴾ إن حُصِرت بالقالب الزماني فلها نهاية من الزمن مهما طالت هذه الأحقاب ، وهذا يُنافي الخلود الذي أكده القرآن الكريم ..

والصورة القرآنيّة التالية تلقي الضوء على هذه الحقيقة .. ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢] .. فأهل جهنم يتّجه قصدهم وغايتهم (إرادهم) باتّجاه الخروج من جهنّم كلما اقتربت نهاّية لونٍ من العذاب ، حيثُ يُمَثِّل هذا اللون من العذاب حقباً من أحقاب جهنّم التي لا تنتهي .. وبعد أن يأتي حقبٌ جديدٌ

حاملاً معه لوناً جديداً من العذاب ، يدخلوا هذا الحقب وينتهي أملهم بالخروج من جهنّم .. وعند اقتراب نهاية هذا الحقب يتّجه قصدهم وغايتهم (إرادتهم) باتِّجاه الخروج ، ثمَّ ينتهي أملهم بقدوم حقبٍ جديدٍ .. وهكذا فهم ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴾ [النَّبأ : ٢٣] ..

ولو نظرنا إلى صياغة العبارة القرآنيّة ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴾ ، بتقديم كلمة ﴿ فِيهَآ ﴾ وتأخير كلمة ﴿ أَحۡقَابًا ﴾ ، لرأينا أنَّها تؤكّد الخلود الأبدي ، وبأنَّ هذا الخلود الأبدي ماهيّته أنّه يكون وفق أحقاب ، بمعنى ألوان مختلفة من العذاب .. فالله تعالى لم يقل : (لابثين أحقاباً فيها) ، حتى يقول بعضهم بأنَّ هناك خروجاً من النار ، إنّما يقول جلّ وعلا ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴾ ، وقد بيّنت ذلك بشكلٍ مفصَّل في كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) وغيره من كتبي ..

إذاً العبارة القرآنيّة ﴿ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ تشير ــ من منظار عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ومن منظار عمق الحكمة والعِبرة الباطنة ــ إلى لقاءٍ بين عالمين ، لكُلٍّ منهما سماته الخاصة به ، وهذان العالَمان عادة لا يتم اللقاء بينهما ، لأنَّ برزخاً يحجزهما عن بعضهما ، ولكنَّ الله تعالى أراد هذا اللقاء ليتمّ التَّفاعل بينهما .. وقد تمَّ اللقاء ــ كما تشير الآية الثانية ــ ولكن ليس بخرق كامل الحاجز الذي يفصل هذين العالمين عن بعضهما ، كما كان يريد موسى عليه السّلام ، إنَّما بخرق نقطة محدّدة من هذا الحاجز ، ليتمَّ تفاعل هذين العالمين المتمايزين ــ من خلال هذه النقطة ــ مع بعضهما بعضاً ..

وهكذا نرى أنَّ للآية الكريمة الأولى في هذا النَّص عمقين ..

عمق مكاني زماني يخصّ موسى عليه السّلام لوحده ، فموسى هو فقط يعلم أين ذلك المكان الذي تشير إليه العبارة القرآنيّة ﴿ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ ..

عمق يخصّ جميع البشر (موسى عليه السّلام وغيره) الذين يريدون ــ حسب استطاعتهم ــ فهم حقيقة الحكمة الكامنة في هذه القصّة .. ووفق هذا العمق فإنَّ موسى عليه السّلام يمثّل في هذه القصَّة بحر العلم الظاهر ، والعبد الصَّالح يمثّل بحر العلم الباطن (اللَّدنّي) ، وفتى موسى (خادمه) يمثّل الأسباب المسخّرة بين يدي البشر في عالم المادَّة

والظاهر .. فموسى عليه السّلام يريد أن يبلغ مجمع العلمين : علم الأحكام الظاهرة الذي يعلمه ، وعلم الأحكام الباطنة (العلم اللّدنّي) الذي يفتقده ..

ومسألة اختيار موسى عليه السَّلام ليمثِّل بحر العلم الظاهري ، تحيط بها حكمة الله تعالى المطلقة إحاطة تامَّة ، فموسى عليه السَّلام أكثر الرُّسل انفعاليِّة وتأثُّراً بالظاهر ، وسيرة حياته تؤكد ذلك .. فقتله للرجل الذي كان يقتتل مع الرجل الذي من شيعته .. ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : ١٥] .. وهمّه البطش برجل آخر تقاتل مع الرجل ذاته الذي من شيعته .. ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] .. وإلقاؤه الألواح وأخذه رأس أخيه هارون يجرّه إليه ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .. وكلّ سيرة حياته عليه السَّلام ، تدلُّ على انفعاليّته الكبيرة للظاهر ، ولذلك ليس مصادفة أن يمثَّل موسى عليه السَّلام بحر العلم الظاهر ..

والله تعالى لم يبيِّن لنا مَن هو العبد الصالح في هذه القصّة ، فليس مُهمَّاً مَن هو ، ولكنّ المهمّ هو أنَّه يرمز لبحر العلم الباطن ..

فهل العبد الصالح بشرٌ ، وبالتالي فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ في الحوادث الثلاث تشير إليه وإلى موسى ، وبالتالي فطلبهما للطعام ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ هو من أجل أنَّهما (موسى والعبد الصالح) جائعان ، فتناول الطعام صفة بشريّة وليست ملائكيّة ..

أم أنَّ العبد الصالح ملكٌ تجسد بصورة بشريّة ورافق موسى عليه السّلام في رحلته ؟!.. و بالتالي فطلبهما للطعام هو من أجل امتحان أهل هذه القرية .. أم أنَّ العبد الصالح ملكٌ بقي على ماهيّته الملائكيّة ، وعلاقة موسى معه هي كعلاقته مع الوحي من السماء

؟!.. وبالتالي فكلمة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ تشير إلى موسى وفتاه ، وكذلك العبارة ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ﴾ ..

لا أحدٌ يستطيع أن يثبت بأنَّ العبد الصّالح ليس ملكاً ، في الوقت الذي لا يستطيع أحدٌ أن يثبت فيه أنَّه بشرٌ .. فوصفه بكلمة عبد ليس دليلاً على بشريّته ، فهذه الصفة تُطلق أيضاً على الملائكة .. ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزُّخرف : ١٩] ، وقول العبد الصالح في نهاية القصّة ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ﴾ يُقوي احتمال كونه ملكاً ، ونحن نرى عبر سياق القصّة أنَّ لا أحداً من البشر تحدّث مع العبد الصالح سوى موسى عليه السَّلام ..

إنَّ المهمّ في العبد الصّالح ــ وغيره من الشّخصيّات وأحداث القصّة ــ هو الرمز وليس التّجسيد الحسّي لشخصية ، وبالتالي فالمهمّ في القصّة كلّها هو العِبرة والحكمة وليس مجرّد القصّة بأحداثها الحسِّيّة ..

إذاً الآية الكريمة الأولى في هذه القصّة ترسم لنا صورة إرادة الاتِّجاه ــ من خلال الأسباب ــ نحو محاولة معرفة الحكمة الكامنة والعلّة الخفيّة لما وراء الظواهر المشاهدة المحسوسة في عالمنا المادِّي .. ولذلك نرى أنَّ موسى عليه السَّلام يتكلّم (في هذه الآية الكريمة) بصيغة المفرد ، دون أن يُشرك فتاه في بلوغ الْمُراد ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ .. ففتاه الذي يمثِّل الأسباب مُجَرَّد خادم لا علاقة له بالهدف الْمُراد ، فالأسباب الْمُسخَّرة بين يدي البشر ليحقّقوا من خلالها مُرادَهم ليس لها أيُّ تأثير على حقيقة مُرادهم وماهيّته ، ولذلك نرى أنَّ فتى موسى عليه السَّلام يختفي ذكره من القصَّة بعد وصول موسى إلى مُراده ..

وهذه الأسباب المسَّخرة من الله تعالى بين يدي البشر لتحقيق مُرادهم ، لا يستطيع الإنسان (في هذه الدنيا) الوصول إلى تحقيق مُراده إلاّ بواسطتها ، فلا تُوجد للإنسان

مشيئة خارج إطار مشيئة الله تعالى التي تُسخر له أسباب تحقيق مُراده .. ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التّكوير : ٢٩]

فتحقيق الإرادة ووصولها إلى مشيئة لا بُدَّ له من الأسباب ، لذلك نرى أنَّ الآية الثانية في هذا النَّص ، والتي تصوِّر حقيقة وصول موسى عليه السَّلام إلى مُراده لا تستثني خادمه الذي يرمز لعالم الأسباب ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ ..

هذه الحقيقة التي يتيه عنها البشر ، فينسون أنَّهم يصلون إلى مُرادهم عبر الأسباب المسّخَّرة من الله تعالى بين أيديهم (وهذا ما تشير إليه الآية الأولى) ، وحقيقة الأمر بأنَّه لا وصول إلى الْمُراد إلاّ عبر هذه الأسباب (وهذا ما تشير إليه الآية الثانية) هذا التَّناظر بين هاتين الحقيقتين اللتين تحملهما الآيتان ، نراه تناظراً منعكساً في مجموع الحروف المرسومة في هاتين الآيتين ، فكلُّ آيةٍ منهما هي (٤٩) حرفاً ..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ = **٤٩** حرفاً مرسوماً

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ = **٤٩** حرفاً مرسوماً

من الواضح أنَّ الضمير في كلمة ﴿ بَلَغَا ﴾ يعود إلى موسى عليه السَّلام وفتاه ، وكذلك الضمير في كلمة ﴿ نَسِيَا ﴾ ، فهما (موسى وفتاه) يُمثِّلان بحر العلم الظاهر والأسباب المسّخرة في عالم المادّة والمكان والزمان .. ولكن إلى من يعود الضمير في كلمة بينهما في العبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ ؟ ... من المنظار الذي ننظر من خلاله إلى عمق الحكمة والعِبرة ، فإنَّ هذا الضمير يعود إلى بحري العلم الظاهر والباطن ، وبالتالي يعود إلى موسى رمز العلم الظاهر ، وإلى العبد الصّالح رمز العلم الباطن ..

وورود العبارة القرآنيّة بهذه الصيغة ﴿ بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ يشير إلى فتح نافذة جزئيّة محدّدة في البرزخ (الحاجز) بين بحري العلم الظاهر والباطن ، بحيث يحصل اجتماع بين

هذين البحرين في هذه النافذة الْمُحدَّدة فقط ، ولا يعني ــ كما قُلنا ــ فتح كامل البرزخ ، أو فتح نقطة ما غير مُحَدَّدة منه ..

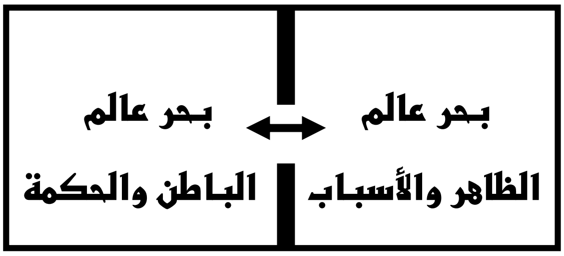

↔ : نقطة بلوغ النافذة

﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾

بين عالمي الظاهر والباطن

والعبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ تُبَيِّن لنا أنَّ بلوغ موسى وفتاه نافذة على عالم الباطن ، جعلهما يفقدان ذاكرة الهدف الذي حملاه معهما من بحر عالم الظاهر والأسباب ، ويدخلان في غفلةٍ ونسيانٍ لهذا الهدف ..

فعند هذه النافذة ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ سيخرج العبد الصالح من عالم الباطن والحكمة الخفيّة إلى عالم الظاهر ، وعند هذه النافذة أيضاً سيمرُّ موسى وفتاه فوق فتحة بين عالم الظاهر الذي ينتميان إليه ، وعالم الباطن الذي ينتمي إليه العبد الصّالح ، وبالتالي ستختلط عليهما (موسى وفتاه) الأمور وسيحدث النسيان والغفلة حتى للإشارة التي من خلالها يعرفان بلوغ هدفهما ، وهي عودة الحياة إلى الحوت ودخوله البحر ..

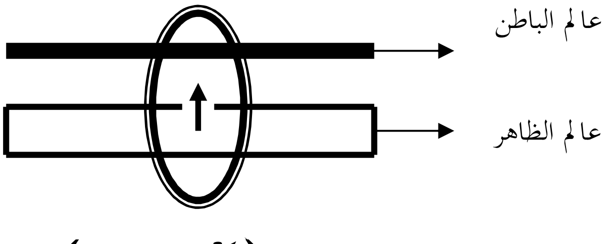

نقطة اللقاء ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾

هذا الذهول الذي يصيب الإنسان في لحظة مروره ــ وهو في الدنيا ــ بموقف من مواقف ما وراء القوانين الظاهرة في هذه الدنيا ، نرى له إسقاطاً آخر حين يرى الإنسان زلزلة الساعة ، التي تُعدُّ برزخاً يفصل عالمي الدنيا والآخرة ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١- ٢]

وما علاقة بلوغ النافذة بين عالمي الظاهر والباطن ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ ، وبين عودة الحياة إلى الحوت ؟!!! ... إنَّ الحوت الذي حماه موسى عليه السَّلام وفتاه ينتمي بجسده غير الحي إلى عالم المادَّة والمكان والزمان (عالم الظاهر) ، وإنَّ ما ينقصه لكي يصبح حيّاً هو سرُّ الحياة التي تجعلهُ حيّاً ، وهذا السِّرّ ينتمي لعالم الباطن والحكمة الخفيّة .. ولذلك فبلوغ موسى وفتاه وحوتهما (كجسد) النافذة بين عالمي الظاهر والباطن ، فإنَّ جسد الحوت غير الحي سيدخل فيه ــ عبر هذه النافذة ــ سرّ الحياة من عالم الباطن ، وبالتالي ستعود الحياة إلى هذا الحوت .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ التي تعني بلوغ مجمع عالمي الظاهر والباطن ، تعني أيضاً ــ بالنسبة للحوت ــ بلوغ مجمع مادّة جسده الميّت بسرّ الحياة ..

هذا الحوت الذي عادت له الحياة نتيجة دخول سرّ الحياة من عالم الباطن في جسده الذي ينتمي لعالم الظاهر ، أصبح حيّاً ، ومن أجل الحفاظ على هذه الحياة ، لا بُد من دخوله عالمٍ يحوي عنصري هذين العالمين اللذين اجتمع من كلٍّ منهما جزءٌ فيه .. وهكذا كان البحر الذي اتَّخذ الحوت فيه سبيله سرباً ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ للحفاظ على حياته التي عادت له ، هو رمز اجتماع بحري عالم الظاهر مع عالم الباطن ، اللذين يمثِّلان باجتماعهما الحياة التي تنبض بالكائنات في هذه الحياة ..

وهذه الزوجيّة ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن ، نراها في كلّ شيءٍ من موجودات هذا الكون .. فخلف كلِّ حركةٍ ظاهرة في هذا الكون تكمن علّة باطنة خفيّة لا نستطيع إدراكها بحواسّنا .. فالمادّة تتحرَّك مكوِّناتها الأوّلى من أجل بقائها في عالم الوجود المكاني والزماني الظاهر ، عبر علّة باطنة خفيّة .. وخلف كلِّ تصرُّف حسّي من تصرُّفات الإنسان في هذا العالم المادّي الظاهري ، إرادة باطنة خفيّة ترتبط بنفسه التي تنتمي لعالم ما فوق هذا

العالم المادّي الظاهر (تنتمي للعالم المخلوق غير المحسوس) .. وهكذا فبحر الحياة الذي دخله الحوت بعد عودة الحياة إلى جسده ، يرمز إلى الحياة بشقّيها الظاهر والباطن .. وبالتالي فالبحر هو اجتماع بحري الظاهر والباطن في كلّ حركة من حركات الحياة ..

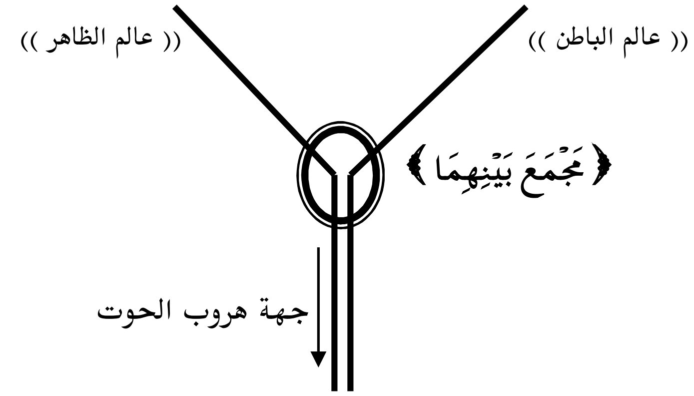

وما هو عمق العبرة والحكمة للمشهد الذي حصل مع موسى عليه السّلام وفتاه ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبًا ﴾ ؟ .. أي ما هي علاقة نسيان الحوت (رمز الحياة بشقّيها الظاهر والباطن وإشارة وصول الهدف الْمُراد) بهروبه في البحر (رمز الحفاظ على الحياة بشقّيها الظاهر والباطن) ؟ ..

إنَّ الحكمة المرتبطة بالحقيقة في هذه الدنيا ، لا بُدَّ لها من استحضار دائم ، فالغفلة عن الحكمة ستؤدِّي إلى ضياع الحقيقة وهروبها .. هذا التّرابط بين الحكمة المرتبطة بأيِّ حقيقة وبين الاستحضار الدائم لها ، هو قانونٌ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان .. ونرى له إسقاطاً آخر في قصّة أُخرى عبر مشهدٍ حسِّي وقع مع إبراهيم عليه السَّلام وقومه ، بعد أن حطَّم أصنامهم بغية دفعهم إلى إدراك حكمة وحقيقة كانوا يغفلون عنها .. ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٢ – ٦٥]

فبعد تحطيم إبراهيم عليم السَّلام لأصنامهم ، وطلبه منهم أن يسألوا الأصنام ، وإدراكهم بأنَّ الأصنام لا تنطق ، وصلوا إلى الحكمة التي كان إبراهيم عليه السَّلام يبتغيها منهم ، ورُفِعَ عنهم الغطاء الذي كان يحجزهم عن إدراك الحكمة الكامنة وراء هذا المشهد .. لذلك بعد أن رجعوا إلى أنفسهم رجوعاً سليماً اعترفوا بظلمهم .. ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ..

ولكنَّهم لم يقفوا عند هذه الحقيقة ، وغفلوا عن الحكمة الكامنة وراء هذا المشهد ، وتناسوا العِبرة في ذلك ، وعادوا بأنفسهم خلف الغطاء الذي يحجبهم عن هذه الحكمة من جديد ، فقالوا .. ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ .. فجعلوا من علم إبراهيم عليه السَّلام بعدم نطق الأصنام ، غطاءً يحجزهم عن الحكمة التي وصلوا إليها .. وهكذا هربت الحكمة والحقيقة التي وصلوا إليها نتيجة غفلتهم ونسيانهم لها ، فهل علْم إبراهيم عليه السَّلام بحقيقة عدم نطق الأصنام يُلغي الحكمة التي وصلوا إليها ويجعل من هذه الأصنام آلهة ؟!!!..

وكم من إسقاط لهذه الحكمة والعِبرة في كلِّ زمان ومكان .. فكم من إنسانٍ تغافل وتناسى حِكماً وعِبَراً بغية البقاء داخل وادي تمذهبه ، وبالتالي هربت منه الحقيقة .. وكم من إنسان كاد أن يصل إلى الحقيقة ، ولكنَّ حاجز الغفلة والنسّيان حال بينه وبين القفز إلى ساحة الحقيقة .. وكم من إنسان لوى الحقائق ليحاول إسقاطها في وادي مذهبه الذي يتقوقع فيه فهربت منه الحقيقة ..

وهذه الغفلة حدثت مع يونس عليه السِّلام ، فظنَّ أنَّ الله تعالى لن يُضيِّقَ عليه ولـــن يُعاقبه .. ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧]

وهكذا فالغفلة التي أصابت يونس عليه السَّلام حينما ظنَّ أنَّ الله تعالى لن يُضيِّق عليه ولن يعاقبه ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ جعلته هو يهرب عن الحقيقة وعن تبليغ الحكمة المكلّف بتبليغها .. ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصّافّات : ١٣٩ – ١٤٨]

ولماذا أتي ـــ كما نرى ـــ حوت يونس عليه السّلام مُعرَّفاً ؟ .. وما هو سر هذا الحوت الذي لو لم يكن يونس من المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ؟ ..... لنقارن بين حوت موسى وحوت يونس عليهما السّلام ..

- حوت موسى عليه السّلام يأتي معرفاً ومضافاً إلى موسى وفتاه ، وحوت يونس عليه السّلام يأتي معرَّفاً ..

- حوت موسى عليه السّلام قفز من البرّ إلى البحر ، وحوت يونس عليه السّلام أتى من البحر وألقاه على البرِّ ..

- حوت موسى عليه السّلام هرب من موسى ، وحوت يونس عليه السلام جاء إلى يونس ..

- حوت موسى عليه السلام عادت له الحياة بعد أن كان ميتاً ، وحوت يونس عليه السلام كان من الممكن أن يلبث يونس في بطنه ـــ لو لم يكن من المسبحين ـــ إلى يوم يبعثون ..

- حوت موسى كان إشارةً لوصول موسى إلى بلوغ نقطة الحكمة الْمُرادة ، بعد اتّجاهه من عالم الظاهر نحو هذه الحكمة لكي يتعلّمها .. و حوت يونس أعاد يونس من عالم الظاهر الذي كان هارباً فيه إلى بداية عالم الهداية والحكمة لكي يهدي الناس ..

- حوت موسى لو لم تعد له الحياة ويهرب في البحر لكان طعاماً في بطن موسى وفتاه .. ويونس لو لم يكن من المسبِّحين لكان في بطن الحوت لابثاً إلى يوم يبعثون ..

- حوت موسى انتقل من عالم الظاهر (جسده ميت) إلى بحر الحياة (عندما أصبح حيّاً وقفز في البحر) في ذروة بحث موسى في عالم الظاهر عن معلّم الحكمة ..

وحوت يونس انتقل بيونس من ذروة هروبه في عالم الظاهر عن الحكمة عبر بحر الحياة إلى بداية تعليم الحكمة ..

موسى عليه السلام فقد صبره بعد أن هرب منه الحوت ، وبعد أن التقى بمعلِّم الحكمة .. ويونس عليه السلام فقدَ صبره قبل أن يلتقمه الحوت ، وقبل أن يعلّم الناس الهداية والحكمة ..

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القلم : ٤٨ – ٥٠]

حوت موسى كان منفعلاً (مُجرَّد رمز وإشارة لوصول الْمُراد) ، وحوت يونس كان فاعلاً حيث أوصل يونس إلى الْمُراد ..

مما سبق نرى أنَّ المهمّة التي قام بها الحوت في القصَّتين هي الربط بين عالم الظاهر وعالم الحكمة الباطنة ، وذلك عبر الحياة وبحرها الذي قفز فيه الحوت وبقي فيه ..

بحر الظاهر	بحر الحياة الذي قفز الحوت فيه وبقي فيه	بحر الحكمة

وهكذا نرى من منظار الحكمة والعِبرة ، أنَّ حوت يونس عليه السلام هو ذاته حوت موسى عليه السلام .. وحتى من منظار الظاهر الخاضع للمكان والزمان ، فهل يستطيع أحدٌ ــ بعد أن ينظر إلى المقارنة السابقة ــ أن يُثبت بأنَّ حوت يونس هو حوت آخر غير حوت موسى ؟!!! ..

وهذا الحوت الذي كان إشارة لدخول موسى عليه السلام بداية تعلُّم الحكمة في عالم الباطن والغيب ، والذي كان مركباً لإرجاع يونس عليه السَّلام من عالم الظاهر إلى عالم الحكمة والهداية ، نرى للحكمة والعِبرة التي يرمز لها ، إسقاطاً آخر يمتحن الله تعالى به باطن أصحاب السبت وحقيقتهم وما يخفون في أنفسهم ، وذلك عبر مجيء حيتانهم في

الوقت الذي لا يريدونه .. ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٣]

فعدم مجيء هذه الحيتان إلاّ في يوم السبت هو لحكمة امتحانهم .. وبالتالي فإنَّ هذه الحيتان هي رمز امتحان الحكمة والهداية ..

فكما هي الأحكام والعبر القرآنيّة متكاملة متعاضدة ، تعلُّقاً بتكامل وتعاضد الصِّفات الإلهيّة ، كذلك هي القصّص القرآنيّة متكاملة متعاضدة في تجسيد العبر والأحكام التي يريدها الله تعالى .. فالقصِّص القرآنيِّة هي إسقاطٌ في عالم الحسّ والظاهر (عالم المادة والمكان والزمان) موازٍ لحِكَم وعِبر تنتمي لعالم الأمر (ما فوق المادة والزمان والمكان) ..

إذاً عند بلوغ موسى وفتاه (العلم الظاهر والأسباب المسخّرة في عالم الخلق) لفتحة في البرزخ الذي يفصل بين بحري العلم الظاهر والعلم الباطن ، حدثت الغفلة والنسيان ، وهرب الهدف (الذي يشير إلى المطلوب) في بحر الحياة التي تشمل شقي الظاهر والباطن ..

ولبلوغ الحقيقة والحكمة وسبل الله تعالى ، لا بُدَّ من السَّعي والعمل والتعَّب والأخذ بأسباب هذا البلوغ ، وسيَر المرسلين جميعاً وجهدهم وتعبهم ومعاناهم لأكبر دليلٍ على ذلك .. فبلوغ سبل الله تعالى لا بُدَّ له من جهادٍ وعمل يسبقه .. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

ولذلك حتى يبلغ موسى مُراده ، نراه هو يذهب إلى العبد الصالح (رمز الحكمة الباطنة) ومعه فتاه (رمز الأسباب المسخّرة في عالم الظاهر لتحقيق الْمُراد) .. فبلوغ الحكمة يحتاج لإرادة طاهرة توجِّه الأسباب توجيهاً سليماً ــ عبر الجهد والعمل ــ باتِّجاه هذه الحكمة ..

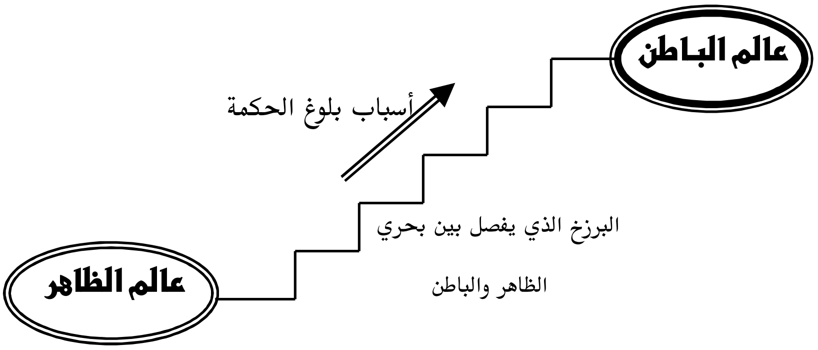

وبعد أن تعدّى موسى وفتاه مجمع بحري العلم الظاهر والباطن ، مبحرين في عالم الظاهر ، وبعد أن نسيا إشارة بلوغهما الهدف الْمُراد ، جاوزا بذلك هدفهما الْمُراد .. ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا** ﴾ .. فنسيان الحقيقة وتجاوز الحدِّ في البحث عن الحكمة ، يؤدِّي إلى الانتكاس عن هذه الحكمة ، والإبحار في عالم الظاهر ..

وليس عبثاً أن تأتي العبارة القرآنيّة ﴿ **ءَاتِنَا غَدَآءَنَا** ﴾ من مشتقّات الجذر (غ ، د ، و) ، وليس من مشتقَّات الجذر (ط ، ع ، م) [**آتنا طعامنا**] .. فهذا الحوت هو إشارة بداية الغدوِّ في عالم الحقيقة والباطن ، وكان من الممكن أن يكون طعاماً لهما قبل عودة الحياة لجسده وهروبه في البحر ، أمّا في الحقيقة هو إشارة الغدو في عالم الباطن ..

وليس عبثاً أنَّ إحساسهما بالجوع كان بعد نسيانهما وغفلتهما عن مُرادهما ، ونتيجة إبحارهما في عالم الخلق المادي (عالم الظاهر) .. فهذا الجسد المادِّي الذي ينتمي لعالم الخلق الظاهري ، يفرض علينا طلب الطعام ، وأنفسنا المجردّة عن عالم الخلق المادّي ، حين تهبط إلى عالم الخلق المادّي بغية امتحانها ، وتدخل في هذا الجسد المادّي ، وتخضع لقوانين هذا الجسد المادّية من جوعٍ وشهوة وَ ..... يكون هذا الجسد عبارة عن غطاء (من عالم الخلق الظاهري) يحجزها عن رؤية الحكمة الكامنة وراء الأشياء ، ولذلك حين تُفارق النفس هذا الجسد المادِّي حين الموت ، وتنفصل عن هذا الجسد (البرزخ) الذي يحجزها عن رؤية الحكمة الباطنة وراء الأشياء .. حين ذلك ترى الأُمور على حقيقتها ، وتنتهي

غفلتها التي كانت في حياتها الدنيا .. ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق :٢٢]

وهذه المسألة جعلها الله تعالى حُجّة لإثبات بشريّة عيسى وأمّه عليهما السَّلام ، فكونهما يأكلان الطعام ، يقتضي أنَّهما من البشر ، ويخضعان لقوانين الجسد المادّية ، وبالتالي لعالم الظاهر بقوانينه المكانيّة الزمانيّة .. ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥]

ومتى طلب موسى من فتاه الطعام ؟ .. لقد كان ذلك بعد بلوغ الجهد والتعب والجوع ، الذروة التي لا تُوجد خلفها استطاعة للتَّحمل ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ .. وفي هذا إسقاطٌ لحكمة مفادها أن السَّعي في عالم الظاهر عبر الأسباب من أجل بلوغ الحكمة الْمُرادة ، يجب أن يكون بكامل الجهد ، وحتى نهاية الاستطاعة التي يملكها الإنسان .. فحقُّ السَّعي الحقيقي وراء العلم والحكمة ، هو استعمال ذروة الاستطاعة البشريّة .. هذه الحقيقة المجسَّدة في هذه القصّة ، نراها واضحة جليّة عبر تعاضد دلالات الصورتين القرآنيّتين التّاليتين ..

﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التّغابن : ١٦]

فحقّ تقوى الله تعالى على البشر ، هو نهاية استطاعتهم ، وبكامل جهدهم ، وذروة قدرتهم البشريّة ..

وهكذا .. عندما بلغ موسى وفتاه نهاية الاستطاعة وذروة الجهد والتعب والجوع ، وصلا إلى الْمُراد .. هذه الحكمة المجسّدة في هذه القصّة ، نراها جليّة في الصورتين القرآنيتين التاليتين ..

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠]

فعندما جاوزا الحدّ الْمُراد ، ووصل بهما الجهد والتعب والجوع إلى ذروته ، طلب موسى من فتاه الغداء .. فماذا قال له الفتى ..

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

عندما كان الحديث في الآية الثانية من نصِّ القصّة وصفاً لحالة الحوت كما يعلمها الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ ، ونرى أنَّ العبارة مسبوقة بالفاء التي تفيد الترتيب و التعقيب السريع ، فبعد نسيانهما للحوت مباشرةً اتَّخذ سبيله في البحر سرباً .. وفي الآية الرابعة من نصِّ القصّة حيث يتمّ تصوير المسألة من الزاوية التي ينظر منها الفتى ، فإنَّ عودة الحياة للحوت شيءٌ عجيب لم يره سابقاً ولذلك قال : ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ، ونرى أنَّ العبارة القرآنيّة غير مسبوقة بالفاء كما هو الحال في العبارة السابقة ، فهو لم يُدرك أنَّ هروب الحوت البحر يتبع مباشرة نسيانه ووصوله الهدف الْمُراد ..

وهنا سؤال يطرح نفسه .. ما الحكمة من كون الإشارة لوصول الْمُراد تكمن في هروب طعامهما ؟ ..... إن الإنسان ـــ كما رأينا في النظرية الثانية (القدر) ـــ عبارة عن اجتماع عنصرين ينتميان لعالمين مختلفين .. النفس المجرّدة التي تنتمي لعالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، والجسّد المادّي الذي ينتمي لعالم المادّة والمكان والزمان ..

وتقع الإرادة البشريّة في كلِّ موقف من حياة الإنسان تحت تأثير قوّتين متعاكستين تماماً .. قوّة تشدّ الإنسان نحو السموّ والعلوّ والابتعاد عن علائق الجسد (شهوة ، جوع ، .....) ، وهذه القوة تشدّ الإنسان باتّجاه الحكمة .. وقوّة أخرى تُعاكس هذه القوّة تماماً

، تتعلّق بمتطلبات الجسد من جوع وشهوة وَ ..... ، وهذه القوّة تشدّ الإنسان باتّجاه الدنيا و علائقها المادّية ، وبالتالي ابتعاده عن الحكمة ..

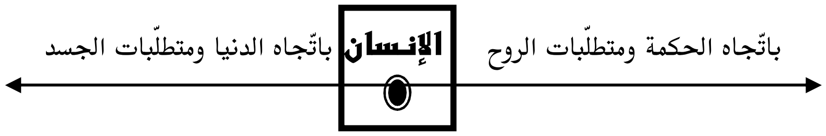

وهكذا نرى أنَّه ليس مصادفة أن يكون هروب الحوت ، الذي كان من المقرَّر أن يكون طعاماً لموسى وفتاه ، هو ذاته الإشارة إلى بلوغ عالم الحكمة و الْمُراد ..

وما الحكمة من كون موسى عليه السلام لم يرَ هروب الحوت في البحر ، بينما رآه فتاه ، في الوقت الذي يعلم فيه موسى أنَّ هذا الهروب هو الإشارة المطلوبة ، بينما لا يعلم الفتى ذلك ؟!!! ..

نحن في هذا العالم المادّي المخلوق (عالم الامتحان) نملك إرادة نتَّجه من خلالها نحو الهدف الْمُراد .. و الأسباب هي الوسيلة المسّخرة بين أيدينا لتحقيق هذا الْمُراد ووصوله إلى عالم الحسّ والتَّشيّؤ ، فالأسباب هي الفاصل بيننا وبين حصول الهدف الْمُراد .. هذه الحقيقة رأيناها عبر برهانٍ قرآنيٍّ عندما عرَّفنا كلاً من الإرادة والمشيئة في النظرية الثانية القدر ..

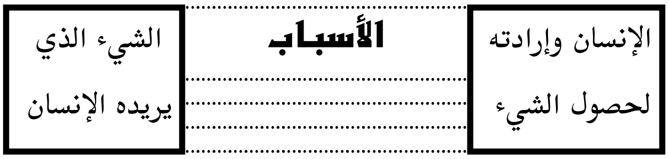

هذه الحقيقة نراها مُجسَّدة عبر رموز هذه القصّة ، فمن الطبيعي أن يكون الفتى (رمز الأسباب المُسخّرة لخدمة مُراد موسى) أقرب إلى الهدف الذي يريده موسى .. أمّا من زاوية العلم بالهدف الْمُراد وبحقيقته ، فمن الطبيعي أن يكون صاحب الإرادة لوصول الهدف هو العالم بحقيقة هذا الهدف ، بينما الأسباب على الرغم من أنّها هي التي تُوصله للهدف ، وهي أقرب منه إلى هذا الهدف ، لكنها مسخَّرة دون إرادة ودون علم بهذا الهدف .. ومن هنا كان موسى (رمز العلم الظاهر الذي يريد وصول الهدف) يعلم

حقيقة هروب الحوت في البحر ، وأن لا يعلم الفتى (رمز الأسباب) هذه الحقيقة ... ومن الطبيعي أن يرى الفتى هروب الحوت في البحر ، ولا يراه موسى ، لأنَّ الفتى أقرب إلى الحوت من موسى ..

ولَمّا كان العبد الصَّالح هو رمز عالم الحكمة الغائبة ، وبالتالي ينتمي لعالمٍ مجّردٍ عن الأسباب ، ولَمّا كانت الأفعال في الحوادث الثلاث يقوم بها العبد الصّالح ، نرى أنَّه بعد اللقاء بالعبد الصالح لم يُذكَر الفَتى (رمز الأسباب) .. فالأسباب التي تفصلنا عن مُرادنا في عالم الظاهر ، لا حاجة لها في عالم الباطن و الحكمة الغائبة الذي سيتفاعل به موسى مع العبد الصالح ..

وما علاقة اللجوء إلى الصخرة ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ بنسيان الحوت ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ وبالتالي بهروبه في البحر و بالوصول إلى المطلوب ؟ ..

إنَّ الصخرة هي رمز ذروة القساوة ، وبالتالي ذروة الجهد والتعب ، ولذلك نراها معرَّفة وليست نكرة ، فهناك ذروة واحدة للجهد والبحث ، هي نهاية الاستطاعة والطاقة البشريّة أثناء البحث عن الحقيقة والحكمة في عالمنا (عالم الظاهر) .. وبالتالي هي رمز للسور والغطاء الذي يفصل بين وجهي عالم الظاهر والباطن عند نقطة اللقاء ، فعند وجه الصخرة من جهة عالم الظاهر ، وصل موسى وفتاه إلى ذروة الجهد والتعب في بحثهما .. وعند الوجه الآخر للصخرة من جهة عالم الباطن والحكمة الغائبة ، خرج العبد الصالح من عالم الباطن ..

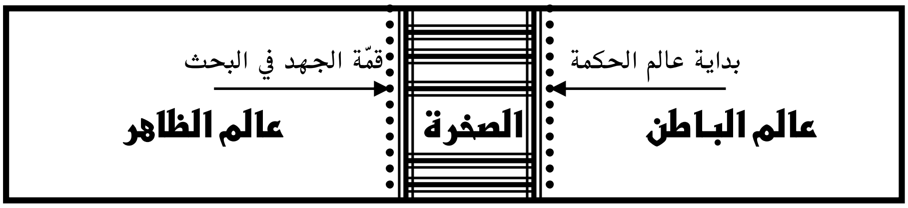

وهذا الغطاء والباب الذي يفصل بين عالمين مختلفين تماماً (عالم الظاهر وعالم الباطن) ، والذي ترمز له الصخرة في هذه القصّة ، نرى له إسقاطاً آخر في عالم الآخرة حيث

يُضرب بين الكفار والمؤمنين بسورٍ له باب ، وجهه الذي من جهة الكفّار فيه العذاب ، ووجهه الذي من جهة المؤمنين فيه الرحمة ..

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣]

والعبارة القرآنيّة ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ والعبارة القرآنيّة ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ تشيران إلى أنَّ حقيقة النسيان تعود إلى الإنسان ، وليست مسألة مُراده من الله تعالى ، وسيحاسب الإنسان (في المسائل الإيمانية)على هذا النِّسيان ..

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦]

فلو كان النّسيان مُراداً من الله تعالى لما كان للشَّيطان وغيره أي سلطان فيه ، ففي الصورة القرآنيّة ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ نرى أنَّ الشيطان هو الفاعل للفعل أنسى ..

ونرى أنَّ النّسيان يأتي مرتبطاً بالفتى ، بينما دور الشيطان هو في جعل الفتى ينسى ذكر الحوت ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ، فما هو الفارق بين نسيان الحوت ونسيان ذكر الحوت ؟ ..

هذا المشهد القرآني يُجسِّد حقيقة ثابتة تحدث في كلِّ زمان ومكان ، هي أنَّ الخطوة الأولى نحو النسِّيان تعود للإنسان ذاته ، ولنفسه التي تغفل عن الحقيقة الْمُرادة ، ويأتي دور الشيطان في التأثير غير المادي على هذه النفس بغية الاستمرار في الغفلة .. فتأثير الشّيطان هو فقط على إرادة الإنسان وعلى نفسه ، دون أن يصل ذلك مستوى الفعل والمشيئة ..

هذه الحقيقة يبيِّنها القرآن الكريم بشكلٍ جليٍّ عبر امتلاك الشيطان للإرادة دون المشيئة .. ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النِّساء : ٦٠] ... ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة :٩١] وعبر عدم ارتباط الشيطان بأي مشيئة ، فلا يُوجد نصٌّ قرآنيٌّ واحدٌ يشير إلى وجود مشيئة للشيطان ..

ولو كان للشيطان مشيئة ، لكان يستطيع التأثير علينا عبر أفعال حسّيّة متجسِّدة في عالم الحسّ والوجود ، ولكان يستطيع دفع الأسباب بيده .. ولكنَّ الشيطان لا تأثير له إلاّ على نفس الإنسان وإرادته ، بينما الفعل والعمل ودفع الأسباب لا علاقة للشيطان به .. هذه الحقيقة تجسّدها القصّة التي بين أيدينا عبر ارتباط النّسيان بالفتى ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ فلا سلطان للشيطان على الأسباب ..

والصورة القرآنية ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ تُبيِّن أنَّ المسألة التي يريدها الشّيطان هي ليست نسيان الحوت بشكلٍ مُجرَّدٍ عن الحقيقة الكامنة وراء هذا الحوت ، فالذي يريده الشّيطان هو عدم وصول موسى عليه السلام إلى الحقيقة والحكمة الْمُرادة .. فالمسألة لا تكمن في مجرّد النسّيان ، فموسى عليه السلام ذاته نسي الحوت ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ ، لكنَّ المسألة تكمن في تأثير الشّيطان على ذاكرة الفتى بحيث يستمرُّ هذا النسيان ، وبالتالي إبعاد موسى عن الحكمة الْمُرادة ..

وهكذا نرى عبر هذا المشهد حقيقة مفادها أنَّ الخطيئة تبدأ في نفس الإنسان وعبر إرادته ، بينما يؤثِّر الشّيطان على الإنسان تأثيراً معنويّاً نفسيّاً ، بغية إبقاء الإنسان على خطئه ، وإبحاره أكثر في عالم الخطيئة . وذلك عبر تزيين هذه الخطيئة للإنسان ..

﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣]

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النَّمل: ٢٤]

والصورة القرآنية ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ تُجسِّد لنا حقيقة مفادها أنَّ المنهج السَّليم للعلم الظاهر والأسباب المسخَّرة لأجله ، هو أن يسير باتجاه هدف مُراد ، فكلّ عمل بالأسباب دون هدف مُراد هو عبث ولهو ولعب ..

ونستنشق من حذف الياء من كلمة ﴿ نَبْغِ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ رائحة الأمر والجزم .. فحذف الياء ليس عبثاً ، وهو لحكمة مُرادة من الله تعالى ..

وفي هذا إشارة إلى أنَّ الهدف الذي سار إليه موسى عليه السلام وكان يبتغيه ، هو بأمرٍ من الله تعالى ..

والصورة القرآنيّة ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ تجسّد حكمة مُجرَّدة مفادها أنَّه لا يُمكن الوصول عبر الأسباب إلى الهدف الْمُراد إلاّ إذا سار الإنسان بهذه الأسباب وفق اتِّجاه صحيح ولحدٍّ مُحدَّد ، وبتتبّع أثر الهدف وفق هذا الاتِّجاه ، وللحد المطلوب ، وحين تجاوز هذا الحدّ وتغيير الاتجاه الصحيح لا بُدَّ ـــ لبلوغ الهدف الْمُراد ـــ من الرجوع وتصحيح الاتجاه للعودة إلى الهدف ..

وهكذا وصل موسى عليه السّلام هو وفتاه إلى هدفه الْمُراد ، وهو الالتقاء مع بحر العلم الباطن (العبد الصالح) ..

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

ومجيء العبد الصالح (معلِّم الحكمة) بصيغة النكرة ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ يشير إلى وجود أكثر من رمزٍ للحكمة ، فللحكمة عدَّة أوجه وليس وجه واحدٌ .. فما سيتفاعل معه ويصل إليه رمز العلم الظاهر في هذه الدنيا ، هو وجهٌ واحدٌ فقط من أوجه الحكمة الكثيرة للمسألة ذاها ، هذه الأوجه لا يحيط بها إلاّ الله تعالى .. وبالتالي فلكلّ مسألة أوجه من الحكمة لا يُحيط بها إلاّ الله تعالى ..

والصورة القرآنيّة ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ تُبين لنا أنَّ إتيان رحمة الله تعالى ، يسبق إتيان علمه اللَّدنّي .. فالعلم اللّدنّي يمر عِبر طريق الرّحمة .. وإتيان الله تعالى الرحمة للعباد هو نتيجة طاعتهم والتزامهم بِمُراد الله تعالى ..

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢]

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥]

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النُّور : ٥٦]

ومسألة إتيان الرحمة للعباد هي إسقاطٌ نسبي ـــ حسب شفافيّة أنفس العباد ـــ لمسألة النُّبوّة بمت تعنيه من خلاص لله تعالى ونقاء ..

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : ٨٦]

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزُّخرف : ٣١ – ٣٢]

ولَمّا كان إتيان رحمة الله تعالى نتيجةً لما نقدّمه من عملٍ عبر الأسباب ، ويستلزم أن نبدأ نحن بالعمل الصالح والطاعة الصادقة لله تعالى ، لذلك نرى أنَّه تمَّ تقديم الرحمة على كلمتي ﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ العائدتين لله تعالى ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ..... و لم يقل الله تعالى (آتيناه من عندنا رحمة) ..

ولَمّا كان العلم اللَّدنِّي يُؤخذ من الله تعالى دون واسطة ، نرى أنَّه تم تقديم اللّدن على هذا العلم ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، فلم يقل الله تعالى (وَعَلَّمناه علماً من لدنّا) ..

فطاعة الله تعالى والالتزام بما يأمر به ، سبب إدخال المطيع في رحمة الله تعالى ، وتسبق إتيان هذه الرحمة (المرتبطة بالطاعة) .. ونرى أنَّ الحصول على العلم اللَّدنّي هو مرحلة ما بعد الدخول في رحمة الله تعالى ، وأنَّ العلم اللّدنّي يرتبط بالله تعالى مباشرة دون واسطة ..

وهكذا .. بعد الوصول إلى مرحلة التفاعل مع العلم اللّدنّي لم يبقَ للأسباب أي عمل ، لأن ساحة العلم اللَّدنّي هي ما وراء الأسباب وما وراء عالم الظاهر الذي تعمل به هذه الأسباب ، ولذلك نرى أنَّه عند هذا الحدّ الذي بدأ فيه موسى بالتَّفاعل مع العبد الصالح ، قد اختفى الفتى (رمز الأسباب) تماماً من القصة ، فلم يعد يُذكر لا في الحوار ولا في الأحداث ..

وهنا يُظهر موسى عليه السَّلام حقيقة هدفه الْمُراد ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ .. ونرى في ذكر اسم موسى تأكيداً على استثناء الفتى (رمز الأسباب) من الإبحار في عالم الحكمة الغائبة ، ونرى هذا التأكيد مرّة أخرى عبر قول موسى عليه السلام ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ وذلك باستثناء رمز الأسباب (الفتى) .. وفي هذا تجسيدٌ لحقيقة مفادها أنَّه لا يمكن تعلُّم الرُّشد والحكمة عن طريق عالم الظاهر لوحده ، و أنَّه لا بُدَّ لتعلُّم الرُّشد والحكمة من إتِّباع منهج الله تعالى الذي يحمل الحكمة والهداية والرُّشد ..

ولماذا لم يقل موسى (هل أتبعك كي تعلمني) بدلاً من قوله ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ .. إنَّ في الكلمتين ﴿ عَلَىٰٓ أَن ﴾ روح المقايضة والمقابلة بين موسى والعبد الصالح .. موسى يُقدِّم للعبد الصالح الإتِّباع ، مقابل أن يُقدِّم العبد الصالح لموسى التّعليم .. وهذه المقايضة التي تدلُّ عليها الكلمتان ﴿ عَلَىٰٓ أَن ﴾ نرى لها إسقاطاً آخر حصل مع موسى عليه السَّلام في قصّة أُخرى ..

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ ﴾ [القصّص : ٢٧]

وموسى عليه السَّلام بعد لقائه مع العبد الصالح ، وبعد انتهاء مرحلة رحلته في عالم الظاهر مع الأسباب المسخَّرة بين يديه (فتاه) ، سيتفاعل مع عالمٍ له قوانينه الخاصَّة به .. ففي هذا العلم لا تُوجد أغطية للغيب كما هو الحال في عالم الظاهر الذي ينتمي له موسى ، ولذلك قال العبد الصالح لموسى ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ ففي عالم التّكليف (عالم الظاهر) تُحيط بنا أغطية الغيب من كلّ جهة ، وبالتالي فكلّ ما يناقض تصوُّرنا الظاهري للأمور نحسبه شرّاً ولا نصبر عليه ..

فحين يتوافق الظاهر مع الباطن بالنسبة لمسألة ما ، فإنَّنا نصبر على هذه المسألة ، ولكن حين تختلف حكمة الحقيقة الباطنة للمسألة مع مشاهدتنا الظاهرة لهذه المسألة ، يفقد الإنسان صبره .. فموسى عليه السَّلام له طاقة من الصبر على الأُمور الظاهرة في عالمه

، والتي لا يختلف فيها الظاهر مع الحكمة الغائبة ، ولكن ليس له طاقة من الصبر على المسائل التي يختلف فيها الظاهر مع الحكمة الغائبة .. ولذلك فالعبد الصالح الذي يُؤكد عبر كلمة ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ عدم صبر موسى ، نراه يُقدم كلمة ﴿ **مَعِى** ﴾ على كلمة ﴿ **صَبْرًا** ﴾ ، فلم يقل (إنَّك لن تستطيع صبراً معي) ، ولكنّه يقول ﴿ **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا** ﴾ ، فهو لا ينفي عن موسى إلاّ الصبر على المسائل التي يختلف فيها الظاهر مع الحكمة الغائبة ..

ويبيِّن العبد الصالح هذه الحقيقة لموسى فيقول : ﴿ **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا** ﴾ وفي هذا تجسيد لحقيقة عدم إحاطتنا بباطن أيّ مسألة وبالحكمة الغائبة خلف ظاهرها ، فلا نتحرَّر من أسرار أغطية الغيب التي تحول بيننا وبين رؤية الحكمة الباطنة لأيّ مسألة في عالم الظاهر (عالم التكّلف) إلا بالخروج من هذا العالم بعد الموت ..

ويردُّ موسى عليه السَّلام من منظاره الظاهري للأُمور فيقول : ﴿ **قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا** ﴾ .. فوفق حساباتنا السَّطحية ، ومن منظار عالمنا الظاهري ، قد نحسب أنَّنا قادرون على الصبر بالنسبة لكثير من المسائل ، لأنّنا لا نستطيع القفز فوق أغطية الغيب ن وبالتالي لا نستطيع رؤية حقيقة المسائل وحقيقة أنفسنا وتفاعلها مع هذه المسائل ..

ويقول العبد الصالح لموسى عليه السَّلام مبيِّناً حقيقة الإتِّباع الذي هو الطرف الأوَّل في المقايضة التي عرضها موسى ﴿ **قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ .. ففي العبارة القرآنيّة ﴿ **فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى** ﴾ إشارة إلى تخيير موسى عليه السَّلام في دخول عالم الحكمة الغائبة ، وفي حال اختيار دخول هذا العالم ، لا بُدَّ من الالتزام بعد الاعتراض وعدم السؤال عن أيِّ شيءٍ حتى يأتي ذكره ..

وفي كون دار التكليف (عالم الظاهر) محكومة لأغطية الغيب وللأسباب وقوانينها ، وبالتالي غياب الحكمة الباطنة للأُمور عن أعيننا ، يؤجَّل العقاب إلى دار الآخرة حيث تُرفع

هذه الأغطية .. ولذلك في عالم الحكمة (ما وراء عالم الظاهر والتّكلف) حيث الحكمة الظاهرة جليِّة ، ولا زمان ولا مكان يحجبانها ، لا يُؤجَّل العقاب الناتج عن أيّ خطيئة ، كما هو الحال في عالمنا الظاهري (عالم التَّكليف) ..

وقد جُسِّدت هذه السُّنّة الإلهيّة عبر عدّة إسقاطات حسِّية في عدَّة قصص ، ففي قصَّة لوط عليه السَّلام نرى إسقاطاً لهذه السُّنّة ..

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر : ٦٥]

فحين تبلغ الخطيئة ذروتها ، وحين يأتي أمر الله تعالى بالجزاء ، تكون ساحة التّكليف قد انتهت ، وتكون حكمة الله تعالى بما تحمله من الغيب الباطن ، قد نزلت مكان ساحة التّكليف ، وبذلك نكون قد دخلنا من عالم الظاهر (عالم التكليف) إلى عالم الجزاء والباطن ، وفي ذلك العالم يتمُّ الحساب ــ بالنسبة لمن يشهد هذا الجزاء ــ على الخطيئة فورياً ، لأنَّ ساحة التكليف التي يُفصل فيها العقاب عن الخطيئة تكون قد انتهت .. هذه الحقيقة نراها واضحة جليّة عبر التناظر التّام بين ركني هذه الآيّة الكريمة ، فكلُّ ركنٍ هو (٣٠) حرفاً ..

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ = **٣٠** حرفاً

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ = **٣٠** حرفاً

فالخروج من الجزاء بسلام (وهذا ما يصوِّره الرّكن الأوّل) يقتضي عدم الالتفات إلى ساحة الخطيئة ، والمضي بأمر الله تعالى (وهذا ما يصوِّره الرّكن الثاني) .. ومن جهة أُخرى فإنَّ عدم الالتفات للخطيئة والمضي بأمر الله تعالى ، يؤدِّي للخروج من الجزاء على ذلك بسلام ..

والركن الثاني نراه عبارة عن ركنين متناظرين ، كلُّ ركنٍ هو (١٥) حرفاً ..

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ = **١٥** حرفاً

﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ = **١٥** حرفاً

فعدم الالتفات إلى الخطيئة ، هو التزامٌ بأمر الله تعالى .. ومن جهة أُخرى فإنَّ الالتزام بأمر الله تعالى يؤدي إلى عدم الالتفات إلى الخطيئة ..

ولذلك فامرأة لوط عليه السلام حينما خالفت هذا الأمر وارتكبت خطيئة الالتفات إلى ساحة جزاء الخطيئة ، في الوقت الذي يترل فيه أمر الله تعالى بالجزاء ، نراها قدّ أصابتها خطيئتها مباشرة ، ولم يُؤجَّل الجزاء كما هو الحال في عالم التّكليف ..

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود :٨١]

وهذه الحقيقة نرى لها إسقاطاً آخر عبر قصّة عيسى عليه السلام مع الحواريين ، حين طلبوا أن يُترل الله تعالى عليهم مائدة (برهاناً ومعجزة) من السماء .. فماذا كان جواب الله تعالى ..

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥]

فبعد نزول البرهان ورؤية الحكمة الإلهية ، يكونون قد ابتعدوا عن عالم الظاهر ، واقربوا من عالم الحكمة والباطن ، وحين ذلك تكون الخطيئة أكبر بكثير فيما لو ارُتكبت دون رؤية هذا البرهان ..

وهذه السُّنَة الإلهية نرى لها تجسيداً آخر عبر معصية إبليس ، فالملائكة هم خارج عالم الظاهر ، والمعصية في تلك الساحة كبيرة وجزاؤها فوريٌّ .. ولذلك نرى أنَّ إبليس (الذي كان حين ذلك يتّصف بصفة الملائكة نتيجة عدم معصيته سابقاً) أخرجته معصيتُه في تلك الساحة من رحمة الله تعالى إلى الأبد ..

وما دامت رؤية البرهان الإلهي والابتعاد عن عالم الظاهر تؤدي إلى كبر الخطيئة ، فإنَّ الإيمان والابتعاد عن الخطيئة حين رؤية برهان الله تعالى ، وحين اليقين بدخول عالم الباطن والحكمة الغائبة (الخروج من عالم الظاهر) ، لا يجدي ولا يُنقذ صاحبه .. هذه السُّنّة

الإلهيّة نرى لها إسقاطاً حسّيّاً في قصّة فرعون حينما أدركه الغرق وأيقن خروجه من عالم التكليف الظاهري ، ودخوله عالم الحكمة الباطنة ..

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ – ٩١]

فالإيمان بعد مجيء برهان الله تعالى وحكمته الغائبة لا ينفع صاحبه ..

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨]

وهكذا نرى أنَّ قول العبد الصالح لموسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ هو تعبيرٌ من العبد الصالح عن سنّة عالم الحكمة الغائبة التي يَرمز لها ، وليس مجرّد شرطٍ ما يخصّ موسى أثناء صحبته للعبد الصالح ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ تشير إلى نقطة انطلاق من تجمعهما معاً ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ ، إي من الفتحة التي فُتِحَت في البرزخ الذي يفصل بين بحر العلم الظاهر وبين بحر العلم الباطن والحكمة الغائبة ، وهي ـــ كما رأينا ـــ ذاتها النقطة التي عادت فيها الحياة للحوت عند الصخرة ، والتي تمَّ فيها النِّسيان ..

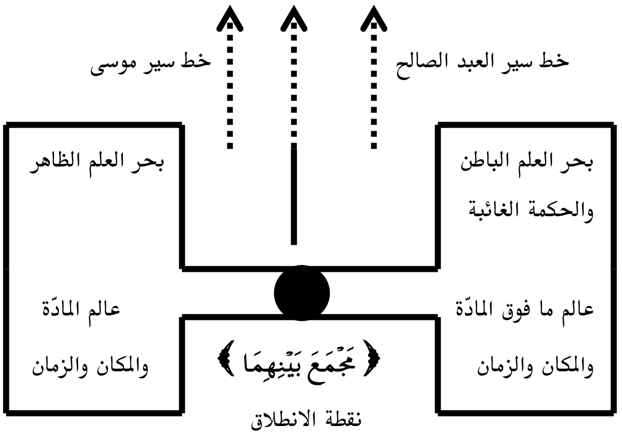

والآن سنبدأ الرحلة في بحر الحياة (بشِّقيها الظاهر والباطن) ، ومن نقطة على البرزخ الفاصل بين عالم الظاهر الذي ينظر منه موسى ، وبين عالم الباطن والحكمة الغائبة الذي ينظر منه العبد الصالح ، لنرى أحداثاً يقوم بعها العبد الصالح في بحر الحياة (بشقّيها) ، ولنرى كيف أنَّ لكلٍّ حدثٍ من هذه الأحداث إسقاطين مختلفين ، إسقاط يرتسم في عالم الظاهر يراه موسى عليه السَّلام ، وإسقاطٌ يرتسم في عالم الباطن والحكمة الغائبة يراه العبد الصالح ..

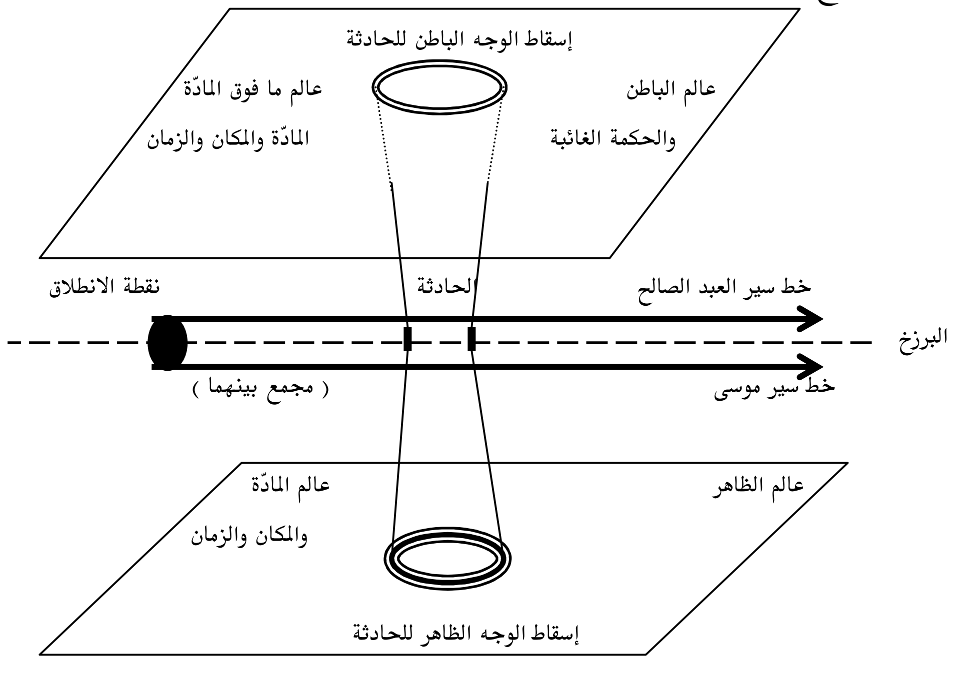

إنَّنا نرى في الحادثة الأولى (خرق السفينة) أنَّ كلمة ﴿ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ تأتي بصيغة المعرفة ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ ، وذلك على نقيض من الحادثتين الثانية والثالثة (قتل الغلام ، إقامة الجدار) حيث يأتي الغلام والجدار بصيغة النكرة .. إذاً .. ما ترمز إليه ﴿ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ معروفٌ ومعلومٌ في عالم الظاهر ، الذي ينتمي إليه موسى عليه السلام ..

إنَّ كلمة ﴿ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ هي المشتقّ الوحيد للجذر (س ، ف ، ن) في القرآن الكريم ، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم إلا في هذه القصَّة ـــ التي بين أيدينا ـــ ومرَّة واحدة في قصّة نوح عليه السلام ..

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥]

والسفينة هي واسطة الانتقال عبر المكان ، ولا تعني الانتقال عبر الزمان إلاّ من خلال انصياعه لحركة المكان .. ولذلك نرى في قصَّة نوح عليه السَّلام أنَّ الله تعالى يعطف نجاة أصحاب السفينة على نجاة نوح عليه السلام ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ .. فنجاة أصحاب السفينة لها خصوصية عن نجاة نوح .. فما هي هذه الخصوصيّة ؟ ... الصورة القرآنيّة التالية تجيب على هذا السؤال .. ﴿ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ [الصّافّات : ٧٧]

فنجاة أصحاب السفينة تعني انتقالهم ـــ عبر المكان ـــ في السفينة من مكان الغرق إلى مكان الأمان ، ولا تعني استمراريّة انتقالهم في الزمان ـــ عبر الذُّريِّة ـــ كما هو الحال بالنسبة لنوح عليه السَّلام ... وهكذا فالسفينة هي رمز الانتقال بالمكان ..

وهذا الغيب (غيب المكان) الذي تخرقه السفينة ، بالانتقال من مكان لآخر ، هو أبسط أنواع الغيب ولهُ وجودٌ محسوس في عالم الظاهر ، فما هو غيبٌ لإنسان (بالنسبة لغيب المكان) مشاهَدٌ لأُناس آخرين ... ويمكننا نحن خرق غيب المكان عبر التَّقدُّم العلمي من خلال الأسباب المادِّية الموجودة في عالم الظاهر ، وما النَّقل المباشر عبر شاشات التلفاز للأحداث إلاّ خرقٌ لغيب المكان ، وجعل هذا المكان الغائب عن الناس مُشاهداً لهم ..

والعمل الأوّل الذي عمله العبد الصالح هو ﴿ خَرَقَهَا ﴾ وذلك لوضع عيب في السفينة وإعاقة حركتها ، حتى لا تصل إلى المكان الذي تُفقد فيه ..

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

فما بين المكان الذي أعاب فيه العبد الصالح السفينة والمكان الذي يُوجد فيه الملك ، مسافة من المكان يحتاج خرقها إلى مسافة من الزمان ، كما أنَّ العيب ليس في السفينة ذاتها ، وإنَّما في وجود الملك الذي يأخذ كلّ سفينةٍ غصباً .. وهكذا نرى أنَّ ساحة فعل العبد الصالح تبتعد عن ساحة الأحداث غير الْمُرادة (أخذ السفينة غصباً) ، ولذلك نرى أنَّ خرق السفينة يأتي غير مقترنٍ بفاء التعقيب المباشر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ كما هو الحال في الحادثتين الثانية والثالثة (قتل الغلام ــ إقامة الجدار) ..

إنَّ حيثيات الفعل الذي قام به العبد الصالح ، هي من حيثيات غطاء الغيب الذي رُفع عنه من أجل القيام بهذا الفعل .. ففي عالم الظاهر لا بُدَّ من أسباب تفصل بين الْمُراد وتحقيقه ، وللوصول إلى الْمُراد لا بُدَّ من العمل بالأسباب لتحقيق هذا الْمُراد ، ولذلك نرى أنَّ ساحة فعل العبد الصالح هي ذاتها الأسباب المسخّرة لتحقيق الْمُراد ، لذلك نراه يخرق السفينة التي تُحقّق مراد اختراق المكان ..

إنَّ رفع غطاء غيب المكان عن مكانٍ ما ، يعني رؤية هذا المكان في الزمن ذاته الذي ننظر فيه إلى ذلك المكان .. فرفع غطاء غيب المكان لا يقتضي رفع غطاء غيب الزمان ، ولا يقتضي الخروج من عالم المادّة والمكان والزمان (عالم الظاهر) .. وهكذا نرى أنَّ الحادثة الأولى ترتبط بعالم الظاهر ، ولذلك فإنَّ إرادة عمل العبد الصالح في هذه الحادثة ، كانت من منظار عالم الظاهر ، ولذلك نرى أنَّ إرادة العمل في الحادثة الأولى تُنسب إلى العبد الصالح ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، حيث نملك في عالم الظاهر هذا ، إرادة حرة مستقلة .. ولو وجدت لموسى كاميرا تنقل لموسى عليه السلام ــ عبر بثٍّ مباشر ــ صورة ذلك

المكان الذي يأخذ فيه الملك كلّ سفينةٍ غصباً ، لفعل موسى ما فعله العبد الصالح عبر إرادته الحرّة المستقلّة ..

ونرى في إعلام العبد الصالح لموسى بحقيقة المسألة ، تقديماً للظاهر على الغائب ، فكون السفينة لمساكين يعملون في البحر ، مسألة بإمكان موسى أن يعلمها بالسؤال عن أصحاب السفينة ، وإحداث العبد الصالح عيب في السفينة ، مسألة ظاهرة رآها موسى عليه السلام .. أما المسألة الغائبة عن موسى ، هي وجود الملك الذي يأخذ كلّ سفينة غصباً ، ولذلك نرى أنَّ النَّصّ القرآنيّ يُقدِّم الجانب الظاهر في هذه الحادثة على الجانب الغائب الذي لم يَرهُ موسى عليه السلام ..

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .. وفي هذا تجسيدٌ لحقيقة التعلم السليم الذي يبدأ من المقدِّمات الظاهرة البسيطة ، نحو النتائج غير المعلومة والصعبة بالنسبة للمتعلِّم ..

لقد رأينا أنَّ ساحة الحادثة الأولى (السفينة) تأتي مُعرَّفة ، أي معلومة بالنسبة لموسى عليه السلام ، وأنَّ ساحة الفعل هي أسباب الانتقال في المكان ، وأنَّه لم يتمّ الخروج من عالم الظاهر ، ولم يتمّ التَّحرُّر من قانون الزمان ، وبالتالي ما زالت الحادثة الأولى منصاعة لعالم المادّة والمكان والزمان .. إذاً الرحلة الأولى بأحداثها ، ترمز لعالم الدنيا الذي ننصاع فيه للأسباب وللزمان ..

والسفينة ترمز أيضاً ــ مّما ترمز إليه ــ إلى النفس البشريّة التي تُبحر في عالم الدنيا باتّجاه نهاية حتميّة هي الموت ، وبالتالي فالملك الذي يأخذ كلّ سفينة غصباً ، يرمز ــ مّما يرمز إليه ــ إلى ملك الموت الذي يأخذ كلّ نفس ، وبحيث لا تُستثنى نفسٌ من أخذه .. فالصورة القرآنيّة ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ يظهر إطلاقها جليّاً عبر هذه الرموز ، فقوله تعالى ﴿ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ يعني عدم استثناء أيّ سفينة في الوجود ، وهذا التجسيد الرمزي تقابله الصورة القرآنيّة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [العنكبوت : ٥٧] ، والصورة القرآنيّة التالية ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السَّجدة

: ١١] ..... وهكذا فالرحلة الأولى ترمز إلى المرحلة الأولى من رحلتنا التي تبدأ بالدنيا ، وتمرُّ بعالم البرزخ ، وتنتهي بالآخرة ..

وفي عالم الدنيا هذه — حيث ترمز الرحلة الأولى — لا نستطيع أن نصل في اليقين إلاّ إلى درجة الخبر (العلم) ، وذلك بسبب انصياعنا لأغطية الغيب ، فلن نستطيع أن نصل إلى مرحلة عين اليقين فنشاهد الحقيقة الغائبة ، ولا مرحلة حقّ اليقين فنعيش هذه الحقيقة الغائبة .. وهكذا .. فالرحلة الأولى ترمز أيضاً إلى المرحلة الأولى من مراحل اليقين وهي علم اليقين ..

لقد رأينا كيف أنَّ اختيار موسى عليه السَّلام ليمثِّل بحر العلم الظاهر ، ليس عبثاً ، فموسى عليه السَّلام انفعاليٌّ ويأخذ بالظاهر ، واسم موسى هو الأكثر ظهوراً في القرآن الكريم من بين أسماء الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام ، فقد ورد (١٣٦) مرّة ، ومعجزة موسى عليه السّلام لم تتعدَّ عالم الظاهر ، كشقِّ البحر وإخراج يده بيضاء وَ ..... وقد تفاعل مع بشرٍ لا يؤمنون إلاّ بالظاهر ، وما أكثر الأدلّة التي تُثبت ذلك وعلى رأس هذه الأدلَّة ، جعلهم رؤية الله تعالى جهرةً أوّل شرطٍ لكي يؤمنوا ..

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥]

وهكذا نرى أنَّ هناك توافقاً بين عمق الرحلة الأولى والتي لم تخرج من عالم الظاهر و لم يُرفع فيها إلاّ غيب المكان ، وبين ماهيّة الديانة السماويّة الأولى (من بين الديانات السَّماوية الثلاث) والتي لم تخرج هي ومتَّبعها من ساحة الظاهر ..

إذاً الحادثة الأولى ترمز لعالم الدنيا وعالم الأسباب الظاهرة وترمز لعلم اليقين الذي يُعدّ المرحلة الأولى من مراحل اليقين ، وترمز لرسالة ومعجزة موسى عليه السلام التي لم تخرج من عالم الظاهر ..

ومن الطبيعي أن يكون هناك تعارضٌ بين ظاهر الحادثة الأولى وباطنها ، ففي هذه المرحلة التي ترمز إلى عالم الدنيا والظاهر ، حيث مرحلة اليقين خبريّة (علم يقين) ، لم يتّم بلوغ مرحلة حقّ اليقين بعد .. ولذلك يظهر ــ من منظار عالم الظاهر الذي ترمز له الرحلة الأولى ــ تعارضٌ بين ظاهر الحادثة الأولى وباطنها ، فخرق السفينة ظاهره شرٌّ وباطنه خيرٌ ..

وفي هذه المرحلة التي ترمز لعالم الدنيا والظاهر ، نرى ارتباط إرادة العبد الصالح بالعيب ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ مع أنَّ حقيقة الْمُراد هو الخير والنّجاة .. هذه المسألة هي تجسيدٌ لحقيقة مُراد الله تعالى في كلّ حادثة من حوادث عالمنا الظاهر تقف وراءها إرادة الله تعالى .. ولقد رأينا في النظرية الثانية (القدر) أنَّ إرادة الله تعالى التي ترتبط بالخير لا ترتبط بالشَّرّ نقيض الخير ، وتوهُّم بعضهم بارتباط إرادة الله تعالى بالشَّرِّ ، ناتجٌ عن عدم إدراكهم لحقيقة الأمر ، وعن وضع تصوُّرهم المادَّي السَّطحي لظواهر الأمور مقياساً وإطاراً يقيسون فيه ويؤطّرون من خلاله حقيقة الحكمة الكامنة وراء الأحداث الظاهرة ..

فكلّ ما يُصيبنا في هذا العالم الظاهري من حوادث لم نخترها بأيدينا ، وبعيداً عن إرادتنا ، ونحسبها شرّاً هي في حقيقتها (من منظار الحكمة الغائبة عنَّا) خيرٌ يريده الله تعالى لنا ..

وهكذا فإنَّ خرق السفينة بالنسبة للمساكين هو في حقيقته خيرٌ لا شرٌّ ..... ولكن لماذا لم يمنع العبد الصالح سفر السفينة دون أن يُحدث بها عيباً ، كأن يُخبر أصحاب السفينة وأهلها بما ينتظرهم من غيب ؟! .. وهذا أفضل للمساكين أصحاب السفينة ، وذلك بأن تبقى سفينتهم صالحة لا عيب فيها ..

تكون الحادثة في أكمل صورها حين يتطابق فيها الظاهر الْمُشاهَد مع الحكمة الباطنة ، وبحيث يكون الظاهر هو الصورة المادّية للحكمة الباطنة في عالم الظاهر .. فلو اقترن منع السفينة من السفر مع بقائها سالمة دون عيب ، أي لو ترافقت سلامتها من العيب مع سلامتها من الاغتصاب ، لكانت المسألة في أكمل صورها ، ولكن ما الذي يجعل الظاهر أحياناً يحمل عيباً ؟ .. إنّه الإنسان الذي لا يؤمن إيماناً كاملاً بحقيقة الغيب ، ولا يصدق تصديقاً كاملاً خبر الغيب ، فيبقى أسيراً لتصوُّراته المادِّية المحكومة لقوانين هذا العالم الظاهر ..

ففي هذه القصَّة وعلى الرغم من إيمان موسى عليه السَّلام الكامل بالله تعالى وبما يخبره الله تعالى ، إلاّ أنَّه لم يأخذ بنصيحة العبد الصالح حين قال له ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا** ﴾ .. فأجابه موسى جواباً مرسوماً بمادّة عالم الظاهر الذي ينتمي إليه .. ﴿ **قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا** ﴾ ..

ووجود الملك الذي يأخذ كلّ سفينةٍ غصباً ، يُعدُّ غيباً بالنسبة لأهل السفينة ، ومن يضمن تصديقهم للعبد الصالح إذا أخبرهم عن حقيقة وجود الملك ، وبضرورة العدول عن السفر ؟ .. فلو علم العبد الصالح أنَّهم سيصدِّقونه إذا أخبرهم بذلك ، لما خرق السفينة ..

هذه المسألة هي تجسيدٌ لحقيقة موجودة في النفس البشريّة (التي هي كما رأينا من رموز السفينة) .. فحين يجتمع في النفس الإنسانيّة الإسلام (الشعائر الحسِّيّة التي تنتمي

لعالم الظاهر) مع الإيمان (الاطمئنان للمسائل الغيبيّة خلف أغطية الغيب) تكون النفس في أكمل صورها ، وفي انسجامٍ تامٍّ ما بين ظاهرها وباطنها ، وحين يُوجد في النّفس عنصرٌ من هذين العنصرين دون الآخر ، يحدث عيبٌ نتيجة افتقارها للعنصر الآخر .. فحين قيام الإنسان بالشّعائر (أركان الإسلام) دون إيمان بأركان الإيمان الغيبيّة ، يكون ذلك كمثل الجسد دون النفس ، وحين يؤمن الإنسان بأركان الإيمان الغيبيّة وبالمنهج كاملاً ولكن دون تنفيذ مُراد الله تعالى الذي يحمله المنهج في عالم الحسِّ ، يكون ذلك خيالاً لا علاقة له بالواقع المحسوس ..

وهكذا نرى أنَّ الحادثة الأولى تبيّن لنا وجهاً من أوجه الإرادة الإلهيّة الخيِّرة ، التي لها ظاهرٌ يحسبه بعض البشر شراً ، وهو تعطيل الأسباب تعطيلاً جزئياً بين أيدي بعض البشَّر بغية دفع الشَّرّ عنهم ، وهذا التَّعطيل ــ كما رأينا ــ من منظار الحكمة الغائبة هو خيرٌ وليس شرّاً .....

ويعود العبد الصالح فيذكِّر موسى عليه السَّلام ــ بعد أن فقد موسى صبره واحتجَّ على خرق السفينة ــ بما نَسيَه ، وهو أنّ وضْع الأمور في ميزان الظاهر يُوهِم بتعلُّق إرادة الحكمة الغائبة بالشَّرِّ ، وبالتالي عدم الصّبر على الأحداث ﴿ **قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا** ﴾ .. ويردّ موسى عليه السَّلام معترفاً بنسيانه ، طالباً الصَّفح عن ذلك ، وبأن لا يرهقه العبد الصالح من أمره عسراً ، وذلك عبر ركنَين متناظرَين تماماً ، فكلُّ ركن هو (١٩) حرفاً ..

﴿ **قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ** ﴾ = **<u>١٩</u>** حرفاً

﴿ **وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا** ﴾ = **<u>١٩</u>** حرفاً

فعدم مؤاخذته بما نسي يؤدّي إلى عدم إرهاقه من أمره عُسراً .. وإنَّ عدم إرهاقه من أمره عُسراً ، ناتج عن عدم مؤاخذته بما نسي ..

وبعد نهاية رحلتهما الأولى سينطلقان عبر ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ لخرق حاجزٍ آخر من حواجز الغيب .. ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ ..

إنَّ الغلام ــ بالنسبة لأبويه ــ رمز الزمن المستقبل ، فهو الذي يرثهما مادّياً ومعنويّاً في المستقبل ، وبالتالي هو استمرارهما في الزمن المستقبل .. هذه الحقيقة نراها جليّة في قصّة زكريا عليه السلام ، فحين بلغ من الكِبَر حدّاً كبيراً ، وخاف على مستقبل إرث آل يعقوب ، وأراد استمراراً زمنياً له ليليه ، وطلب من الله تعالى ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم : ٤ – ٦] .. حين ذلك .. نرى أنَّ الله تعالى استجاب له ، وحقّق مُراده بأن وهب له غلاماً .. ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] ..

وهكذا .. فالغلام الذي لقياه هو رمز الزمن المستقبل ، وقتله يعني قتل الزمن المستقبل بالنسبة له ولما يخصّ والديه به .. فبمجرّد أن لقياه ، رفع الله تعالى عن العبد الصالح غطاء غيب الزمن المستقبل ، وبالتالي تلاشى الزمن في هذه الحادثة ، وهذا ينفي التَّريُّث والتَّمهُّل اللذين يرتبطان بالزّمن ، وبالتالي نرى ارتباط حرف الفاء بحادثة القتل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ ، وهذا يختلف عن الحادثة الأولى التي لم يُخرَق بها إلاّ غيب المكان ، وحيث يحتاج خرقه (عبر السفينة) إلى زمن .. ولَمّا كان الزمن المستقبل مجهولاً بالنسبة لموسى عليه السَّلام ، نرى أنَّ الغلام (رمز الزمن المستقبل) يأتي نكرة ولم يأتِ معرفة كما هو الحال في السفينة ..

إذاً في هذه المرحلة تمّ الخروج نهائياً من عالم الزمان والمكان ، وبالتالي الدخول في عالمٍ آخر لا يعلم عنه موسى ــ في حياته الدّنيا ــ شيئاً ، وهو عالم ما وراء المادّة والمكان

والزمان .. وهكذا ففي حين ترمز الرحلة الأولى لعالم الدنيا ، نرى أنَّ الرحلة الثانية ترمز لعالم البرزخ خلف عالم الدنيا ، هذا العالم الذي نخرج حين دخوله ــ عبر الموت ــ من ساحة المادّة والمكان والزمان .. ففي عالم البرزخ بعد الموت والخروج من الدنيا وقبل الآخرة يتمُّ التحرُّر نهائياً من قانون المكان والزمان ، لذلك لا نحس بالزمن ..

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه : ١٠٢ – ١٠٤]

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ – ١١٣]

وفي حين ترمز الرحلة الأولى ــ بالنسبة لمسألة اليقين ــ إلى مرحلة الخبر (علم اليقين) فإنَّ الرحلة الثانية حيث يتمّ الخروج نهائياً من عالم الدنيا ، ترمز لمرحلة عين اليقين ، فقبلَ الجزاء في الآخرة ، يُعرَضُ الكفّار على النار غدوّاً وعَشيّاً ..

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦]

والصورة القرآنيّة التالية تصوِّر (من زاوية اليقين) مرحلتي الرحلتين الأولى والثانية ..

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التّكاثر : ٥ – ٨]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ساحتُها الدُّنيا وتقابلها في القصَّة التي بين أيدينا الرحلة الأولى .. والعبارة القرآنيّة ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ ساحتها عالم البرزخ ، وتقابلها في هذه القصّة الرحلة الثانية .. والعبارة القرآنيّة .. ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ساحتها الآخرة وتقابلها في هذه القصّة (كما سنرى) الرّحلة الثالثة ..

وكما رأينا أنَّ الرِّحلة الأولى ترمز ـــ بالنسبة للرّسالات السَّماويِّة الثَّلاث الرَّئيسة ـــ إلى رسالة موسى عليه السلام ومعجزته .. فإنَّ الرحلة الثانية ترمز إلى رسالة عيسى عليه السَّلام ومعجزته ، ففي الرحلة الثانية تمّ الخروج نهائياً من عالم الظاهر ، ورسالة عيسى عليه السَّلام جاءت لإخراج رسالة موسى عليه السّلام من عالم الظاهر الذي أُطِّرت به من خلال البشر ..

فمجيء عيسى عليه السّلام إلى الدنيا بغير الأسباب الظاهرة التي يأتي بها البشر ، وذلك دون أب ، ومعجزاته كإحياء الموتى بإذن الله تعالى ، والنَّفخ في الطين الذي يعمله على هيئة الطير فيكون طيراً ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإخبارهم بما يأكلون ويدّخرون .. كلّ ذلك دليلٌ على أنَّه جاء بالجانب الرّوحي المكمِّل للجانب المادِّي في رسالة موسى عليه السَّلام ومعجزته ..

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٩]

إذاً في الانتقال من الرحلة الأولى (خرق السفينة) إلى الرحلة الثانية (قتل الغلام) ، تمَّ الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ، وتمَّ الانتقال من عالم الظاهر والأسباب إلى عالم ما وراء المادّة والمكان والزمان ، وتمَّ الانتقال من مرحلة علم اليقين إلى مرحلة عين اليقين ، وتمَّ الانتقال من رسالة موسى عليه السَّلام ومعجزته إلى رسالة عيسى عليه السَّلام ومعجزته ..

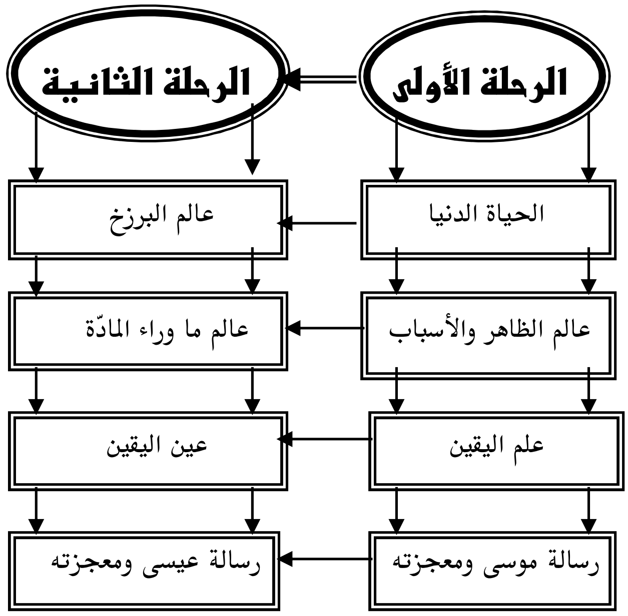

ولماذا قتل العبد الصالح الغلام ؟ .. قتله لأنَّه علم أن أبويه مؤمنان ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وعلم أنَّه يحمل إرادة طاغية كافرة كامنة في نفسه سيترجمها في الزمن المستقبل (فيما لو بقي حياً) إلى أعمال الطُّغيان والكفر ، وبالتالي سيُرهِق والديه المؤمنَين بهذه الأعمال ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ .. فالعبد الصالح لا يريد السَّير (بالنسبة للغلام المقتول) على محور الزمن المستقبل ، الذي يرمز له هذا الغلام ..

إنَّ هذا المشهد من القصّة هو تجسيدٌ لسُّنة من سُنن الله تعالى التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ، وهي أنَّ الإيمان الصادق للأبوين ينفعهما في حياتهما مع ذرِّيَّتهما ، ويحميهما من الطغيان والكفر الذي من الممكن أن يسبِّبه لهما الأولاد ..

وقتل الغلام كان خيراً للأبوين المؤمنين ، وخيراً للغلام المقتول ذاته ، فقتله في هذه المرحلة يعني منعه من القيام بأعمال الكفر والطغيان التي تحملها إرادته الكامنة بذاته ، وبالتالي عدم حمله للإثم المترَتِّب على هذه الأعمال ..

ففي هذه الحادثة ــ كما نرى ــ إسقاطٌ لسُنة من سُنن الله تعالى ... إنَّ كون الأبوين مؤمنين ، وَمَنْعَ الله تعالى لأولادهما أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، هو الطرف الأول

في معادلة هذه السُنَّة الإلهيّة ، وإنَّ إبدال الله تعالى للأبوين المؤمنين أولاداً أقرب إلى الخير والطهارة ، هو الطرف الثاني في هذه المعادلة ، هذه الحقيقة نراها واضحةً جليّةً عبر التناظر التام بين طرفي هذه المعادلة ، تناظر ينعكس في مجموع الحروف المرسومة في كلّ طرف ، فكلّ طرفٍ مكوَّنٌ من (٤٠) حرفاً ..

﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾ = **٤٠** حرفاً

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ = **٤٠** حرفاً

والطرف الآخر من هذه المعادلة ، نراه معادلة مكوَّنة من ركنيَن متناظرين تماماً ،كلّ ركنٍ هو (٢٠) حرفاً ..

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ = **٢٠** حرفاً

﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ = **٢٠** حرفاً

فإبدال الله تعالى للمؤمنين لا يكون إلاّ خيراً وأقرب رحماً .. ومن جهة أخرى لا يكون إبدال الخير والأقرب رحماً إلاّ نتيجة الإيمان الصادق ..

وفي تمايز المنظارَين الظاهر والباطن بالنسبة لمسألة التَّزكية (منظار موسى ومنظار العبد الصالح) إسقاطٌ لسنّة الله تعالى .. فقول موسى بأنّ الغلام ذو نفسٍ زكية **﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾** هو تزكية مبنية على الظاهر ، مع أنَّ لتَّزكية يجب أن تبني على حقيقة باطن الذّات ، وترتبط بالعلم المسبق بمُراد النفس وبحقيقة عملها في المستقبل ، وهذا لا يكون إلاّ بكشف غطاء غيب الزمن المستقبل كما حصل مع العبد الصالح ..... هذه الحقيقة التي يجسِّدها هذا المشهد من القصّة التي بين أيدينا تصوّرها لنا الصورَتان القرآنيّتان التاليتان ..

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النِّساء : ٤٩ – ٥٠]

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢]

وهذه الحادثة (قتل الغلام) تُلقي الضوء على وجهٍ آخر من أوجه الإرادة الإلهيّة التي يتوهم بعضهم بارتباطها أحياناً بالشّر ، وذلك نتيجة جعل منظارهم الدّنيوي المحكوم للظاهر مقياساً يقيسون فيه حقيقة هذه الإرادة ..

فتحديد عمر الإنسان من الله تعالى ، تحيط به الحكمة الإلهيّة إحاطة مطلقة ، ويكون بحيث يستكمل الإنسان امتحان العادل في هذه الدنيا ، ولو علم الله تعالى بعلمه الكاشف أنَّ تمديد عمر الإنسان سيكون لصالحه ، لما أماته في الوقت الذي أماته فيه ، ولمدَّد عمره ، فالله تعالى يعلم علماً مطلقاً حقيقة العمل الذي سيقوم به الإنسان فيما لو لم يمت ..

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١١]

وحتى لو عاد الكفّار للامتحان من جديد في الحياة الدنيا ، فسيعودون للكفر ، وستكون نتيجة امتحان عودهم هي ذاها التي حصلوا عليها في امتحان الدنيا قبل مماهم ..

﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام :٢٨]

وفي الانتقال من الرحلة الأولى إلى الرحلة الثانية نرى تصعيداً في خرق أغطية الغيب ، يرافقه تصعيدٌ في ردّ العبد الصالح على احتجاج موسى عليه السَّلام .. ففي حين قال له في المرة الأولى ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ نراه في ردِّه الثاني يُصعِّد من شدة لهجته ، وذلك بزيادة كلمة ﴿ لَّكَ ﴾ ... ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾ ويرافق هذا التصعيد تصعيدٌ آخر ، هو في إرادة فعله للأعمال التي قام بها ، ففي حين نسب إرادة فعل الحادثة الأولى لنفسه ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ ، نراه يصعِّد ذلك فيقول في الحادثة الثانية ﴿ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا .... ﴾ فما هو سرُّ هذا التصعيد ؟ ..

في الحياة الدنيا التي ترمز لها الرحلة الأولى يملك الإنسان إرادة مستقلّة تعود إلى جوهر ذاته ، ولذلك نرى أن العبد الصالح ينسب ــ في هذه الرحلة ــ إرادة الفعل لنفسه .. ولَمّا كان عالم البرزخ مرحلة انتقالية بين الدّنيا و الآخرة ، أي بين إرادة الإنسان الحرّة التي أُعطيت له من أجل امتحانه ، وبين إرادة الله تعالى ، نراه يقول في الحادثة الثانية

﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾ وهي صيغة وسطى بين الإرادة الحرَّة المستقلّة عن إرادة الله تعالى في الرحلة الأولى ﴿ فَأَردتُّ ﴾ ، وبين إرادة الله تعالى في الرحلة الثالثة ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ ..

وهذا التصعيد الذي قام به مُمثّل عالم الحكمة الغائبة أثناء الرّحلة من عالم الظاهر إلى عالم البرزخ ، يقابله تراجع من مُمثِّل عالم الظاهر (موسى) .. ففي الرحلة الأولى ، وبعد تنبيه العبد الصالح لموسى قال موسى ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ، وبعد تنبيه العبد الصالح له تنبيهاً أكثر شدّة ، نراه يتراجع فيقول ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ ..

وفي هذه العلاقة العكسية التي نراها بين تصعيد الدخول من عالم الظاهر إلى عالم الباطن عبر رفع أغطية الغيب ، ولهجة العبد الصالح في تنبيهه لموسى ، وإرادة العبد الصالح ، وبين تراجع موسى عليه السَّلام .. في هذه العلاقة العكسّية إسقاطٌ لسنّة لا تتبدَّل ولا تتغّير ..

إنّ الدّنيا (عالم الظاهر) تُناقضها الآخرة (عالم اليقين المطلق) ، ولذلك رأينا في النظرية الأولى (المعجزة) أنَّ كلمتي الدّنيا والآخرة تردان في القرآن الكريم بشكلٍ متناظر ، فكلٌّ كلمةٍ منهما ترد (١١٥) مرّة .. وتعلّق الإنسان (كإرادة) بالدنيا ، هو على حساب تعلُّقه (كإرادة) بالآخرة ، والعكس بالعكس ، فبمقدار ما يبتعد الإنسان عن الدنيا يقترب من الآخرة ، وبمقدار ما يرتبط بالدنيا يبتعد عن الآخرة .. ولذلك عندما تقترن إرادة الإنسان (قصده وهدفه وغايته) بالدّنيا ، فهذا يعني أنَّها لا تقترن بالآخرة ، وبالتالي حرمانه من نصيب الآخرة .. والصورة القرآنيّة التالية تُلقي الضوء على هذه الحقيقة ..

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشُّورى : ٢٠]

وكما هو الحال في الحادثة الأولى ، حيث افترق الظاهر (خرق السفينة) عن الباطن (نجاتها) ، هُنا أيضاً وبما أنَّنا ما زلنا في مرحلة عين اليقين و لم نتجاوزه بعد إلى مرحلة حقّ اليقين ، نرى أنَّ الظاهر (قتل الغلام) يفترق بظاهره عن الباطن (نجاة الغلام وأبويه من الآثام) .. فظاهر الأمر شرٌّ ، وباطنه خير ..

وبعد أن اخترقا برزخ المكان في الرحلة الأولى ، وبرزخ المكان والزمان في الرحلة الثانية ، سينطلقان (عبر رحلتهما الثالثة) لاختراق البرزخ الأخير من برازخ الغيب ..

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ ..

لقد رأينا في النظريّة الثالثة (الحق المطلق) أنَّ القرية تصف الجانب الفكري العقائدي للتَّجمُّعات البشريّة .. والعبارة القرآنيّة **﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ﴾** تشير إلى اختراقهما الجانب الفكري العقائدي الأخلاقي وامتحان هذا الجانب ، وتكرار كلمة أهل ما بين الإتيان إليهم **﴿ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾** وبين طلب الطعام **﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ﴾** يُشير إلى أنَّهما استطعما جميع أهل هذه القرية ..

وما دام طلبهما من أهل القرية هو الطعام ، لماذا لم يقل الله تعالى (فأبوا أن يطعموهما) بينما يقول **﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾** ؟ .. إنَّ طلب الطعام يُظهر – للمطلوب منه – الحاجة الصادقة ، فهما لم يطلبا مالاً ولا شيئاً يُدَّخر ويُستفاد منه لاحقاً ، وأهل هذه القرية أبوا ليس تقديم الطعام فحسب ، بل أبوا أيضاً استقبالهما وتضيفهما ، وفي هذا إشارة إلى حجم الانهيار الفكري والعقائدي عند أهل هذه القرية ، وإلى حجم اللؤم الكامن في أنفسهم ..

وفي العبارة القرآنيّة **﴿ فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾** في حين كون المطلوب طعاماً ، إشارة إلى أنَّ هدف العبد الصالح ليس الطعام ، إنَّما هو امتحان الجانب الفكري والعقيدي والأخلاقي ، هذا – إضافة لما ذكرنا – ما يُقَوِّي كون العبد الصالح ملكاً من الملائكة ،

فالملائكة قد يكونون ضيوفاً دون أن يأكلوا أو يشربوا ، ودليل ذلك الملائكة الذين ضافوا إبراهيم عليه السَّلام

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٦٩ – ٧٠]

والبرزخ الذي تمَّ اختراقه في هذه الرحلة أعمق من البرزخَين السابقَين ، فالدُّخول إلى الإرادة والعقيدة والفكر يعني – إضافة لرفع أغطية والمكان والزمان – رفع غطاء غيب الجوهر والباطن والحقيقة ، والوصول إلى مرحلة حقِّ اليقين .. فمسألة طلبهما للطعام وعدم تضييف أهل القرية لهما ، مسألة لها ظاهر يتعلّق بهم كبشر (أنفس + أجساد) ، ولها باطنٌ وجوهرٌ يتعلّق بأنفسهم المجرَّدة عن الجسد المتعلّق بعالم الظاهر .. فعبر هذه الرحلة تمَّ الوصول إلى نهاية عالم الباطن والحقيقة ، ومعرفة حقيقة الإرادة المرتبطة بأنفس أهل هذه القرية ..

إذاً في هذه الرحلة تمَّ اختراق جميع أغطية الغيب اختراقاً تصاعديّاً بالاتِّجاه الأعمق ، للوصول إلى جوهر الحقيقة وماهيّتها .. فقول العبد الصالح ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يكشف عن حقيقة يستطيع أيّ إنسان أن يعرفها وذلك بالسؤال عن أصحاب هذا الجدار .. بعد ذلك يُرفع الغطاء الأوّل والأسهل من أغطية الغيب وهو غيب المكان الذي رُفع في الرِّحلة الأولى ، فيقول العبد الصالح ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ ، فكما قُلنا نستطيع نحن في هذه الدنيا خرق هذا الغطاء ، من أغطية الغيب إذا توفَّرت الشروط المناسبة .. بعد ذلك يتمُّ تصعيد اختراق أغطية الغيب ، فيتمُّ خرق الزمن الماضي الذي يُعدّ خرقه أعمق من خرق غيب المكان ، فيقول ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ .. بعد ذلك يتمُّ تصعيد اختراق أغطية الغيب ، فيتمُّ خرق غيب الزمن المستقبل ، وهو ما تمَّ خرقه في الرحلة الثانية ، فيقول ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ ..

إذاً في خرق هذه الأغطية تمَّ الخروج نهائيّاً (كما هو الحال في الرحلة الثانية) من عالم المادة والمكان والزمان .. ولكن ما يُميِّز هذه الرحلة هو الدخول إلى حقيقة الأمر ، فعدم تضييف أهل القرية لهما هو حقيقة مشاهدة رآها موسى كما رآها العبد الصالح ، ولكنَّ العبد الصالح رُفِع عنه غطاء غيب الجوهر والباطن والحقيقة (الغطاء الأخير والأعمق من أغطية الغيب) ، فاستنتج – من خلال عدم تضييفهم لهما – حقيقة أنفسهم ، وبالتالي سرقتهم لكنز الغلامين اليتيمين فيما لو تمَّ استخراج الكنز قبل أن يبلغا أشدّهما ..

وبالتالي يجب منع الجدار الذي يُغطّي الكنز من الانهيار حتى يبلغ اليتيمان أشدهما ، وبالتالي يجب إقامة الجدار ، وفي هذا الاستنباط من عدم تضييفهما ، ما يُقوّي ما ذهبا إليه ، وهو أنَّ طلب الطعام إنّما كان من أجل الاختبار وليس من أجل الطعام ، وبالتالي ما يُقوّي من كون العبد الصالح ملَكاً من الملائكة ..

وفي حين أنَّ الرحلة الأولى ترمز إلى الحياة الدنيا ، وترمز الرحلة الثانية إلى حياة البرزخ ، ترمز الرحلة الثالثة والأخيرة إلى عالم الآخرة ، وهي رحلتنا الأخيرة في هذا الوجود ، حيث يتمُّ الوصول إلى نهاية الحقيقة والحكمة الغائبة ..

وفي حين ترمز الرحلة الأولى إلى عالم الظاهر والأسباب ، وترمز الرحلة الثانية إلى عالم ما وراء المادّة والمكان والزمان ، ترمز الرحلة الثالثة والأخيرة إلى عالم الخلود ..

وفي حين ترمز الرحلة الأولى – بالنسبة لمراحل اليقين – إلى مرحلة علم اليقين ، وترمز الرحلة الثانية إلى مرحلة عين اليقين ، ترمز الرحلة الثالثة إلى والأخيرة – عبر رفع غيب الجوهر والباطن والحقيقة والوصول إلى الحقيقة الأخيرة – إلى المرحلة الأخيرة من مراحل اليقين وهي مرحلة حقّ اليقين ..

وفي حين ترمز الرحلة الأولى إلى رسالة موسى عليه السَّلام ومعجزته ، وترمز الرحلة الثانية على رسالة عيسى عليه السَّلام ومعجزته ، ترمز الرحلة الثالثة والأخيرة إلى الرسالة والمعجزة الأخيرة إلى المخلوقات المكلَّفة ، وهي رسالة محمد ﷺ والمعجزة التي أُيّد بها من الله تعالى إلى البشَّريّة .. فكما أنّه تمَّ في الرحلة الثالثة خرق جميع أغطية الغيب والوصول إلى نهاية الحقيقة ..كذلك هي الرسالة الأخيرة شاملة كاملة حاوية على جميع الجوانب

المادِّية والرّوحيّة ، فالمعجزة الأخيرة (القرآن الكريم) حاملة للحقيقة الكاملة ، بحيث لا تُحيط بها المخلوقات ..

فأحكام هذه الرسالة ليست حاوية على مسائل الظاهر فقط (كما هو الحال في الرسالة الأولى) ، وليست حاوية على مسائل الرّوح فقط (كما هو الحال في الرسالة الثانية) ، بل هي إضافة إلى أنّها تحمل أحكاماً متّزنةً بين المادّة والرّوح ، لها وجهٌ (وجه التأويل) لا يحيط به إلاّ الله تعالى ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧] ، وكما أنَّ الرحلة الثالثة ترمز للآخرة ، فإنَّ هذا الوجه من التأويل للقرآن الكريم لا يأتي إلاّ في الآخرة ..

﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٢ – ٥٣]

إذاً في الانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة في هذه القصّة ، نرى تجسيداً لرحلتنا عبر الوجود من الدنيا إلى البرزخ إلى الآخرة ، ونرى تجسيداً لتفاعلنا مع عالم الظاهر والأسباب إلى عالم ما وراء المادة والمكان والزمان إلى عالم الخلود ، ونرى تجسيداً لرحلتنا – عبر اليقين – من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حقّ اليقين ، ونرى تجسيداً لرحلة البشريّة مع الرِّسالات السَّماويّة ومعجزاتها الثّلاث ، من رسالة موسى عليه السَّلام ومعجزته ، إلى رسالة عيسى عليه السَّلام ومعجزته ، إلى رسالة محمد ﷺ والمعجزة التي أُيّد بها ..

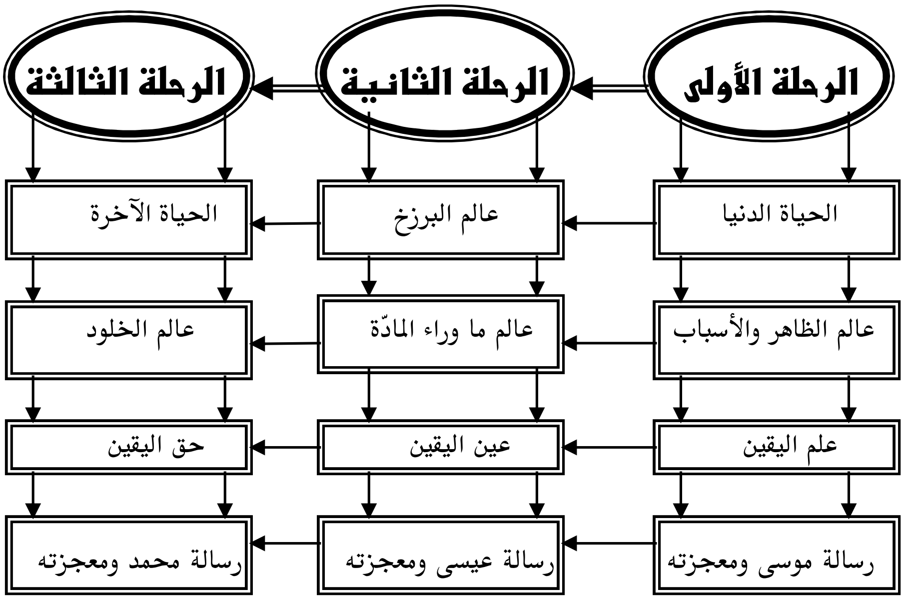

وفي حين يوجد تعارضٌ بين ظاهر الفعل وباطنه كما رأينا في الرحلتين الأولى والثانية ، حيث اليقين هو علم يقين وعين يقين ، ولم يتمّ بلوغ حقيقة الحكمة (حقّ اليقين) .. نرى أنّه في الرحلة الثالثة ، حيث تمَّ بلوغ مرحلة حقّ اليقين والوصول إلى نهاية الحكمة ، لا يوجد تعارضٌ بين ظاهر الفعل وباطنه ، فإقامة الجدار في الحادثة الثالثة لا تحمل الشَّر ، وفي الوقت ذاته فإنَّ باطن هذا الفعل هو خيرٌ لا شرٌّ ..

وفي ذلك انعكاسٌ لسلامة المناهج الثلاثة من التَّحريف والتَّبديل ، ففي حين حُرِّف منهجا موسى وعيسى عليهما السَّلام ، واختلفت حقيقتهما المُرادة من الله تعالى عمَّا يدعيه بعض البشرِّ عنهما ، ضمن الله تعالى منهج رسالة محمد ﷺ من التَّحريف التَّبديل .. هذه الحقيقة نراها واضحة جليّة عبر التَّناظر التَّام بين الآيتين التاليتين ، فكلُّ آيةٍ منهما مكوّنة من (٢٨) حرفاً ..

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] = **٢٨** حرفاً

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر : ١٠] = **٢٨** حرفاً

فحفظ الله تعالى للمنهج المُنزَّل على الرّسول محمد ﷺ (كونه حقُّ اليقين) ، هو نتيجة اختبار البشّر في الرّسالات السابقة ، حيث حرَّف البشّر المناهج التي ائتمنوا عليها ..

ومن جهةٍ أخرى فإن تحريف البشّر للمناهج السابقة (كونها علم يقين وعين يقين) اقتضى تعهّد الله تعالى بحفظ منهجه الأخير من التّحريف والتّبديل ..

وفي الرحلة الثالثة نرى (كما هو الحال في الرحلة الثانية) أنّ عناصر الأحداث [﴿ قَرْيَةٍ ﴾ ، ﴿ جِدَارًا ﴾] تأتي نكرة ، وهذا عائدٌ إلى كون عالم هذه الرحلة (الآخرة) مجهولاً بالنسبة لموسى عليه السلام ، كما هو الحال عندما تمّ خرق عالم البرزخ في الرحلة الثانية .. وذلك على نقيض من ساحة فعل الرحلة الأولى ﴿ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ التي تأتي معرَّفة ، وذلك – كما قلنا – بسبب كون عالم الرحلة الأولى (عالم الدنيا والظاهر) معلوما بالنسبة لموسى عليه السَّلام ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ترسم لنا صورة ابتعادهم عن القيم و الأخلاق والمبادئ الرّوحيّة وتمسُّكهم بالمادَّة .. ولكن ما علاقة هذه الصورة بوجود الجدار ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ ؟! ..

إنَّ علاقة أنفسنا بالجسد المادّي هي علاقتها بالدّنيا من طعام وشهوة وخضوع للمكان والزمان وكلّ ما هو دنيوي ، وحين تخرج أنفسنا من هذا الجسد المادّي (سواء خروجها النهائي بالموت أم خروجها المؤقّت بالنوم) ، تخرج من عالم الدّنيا ، وتنقطع صلتها بهذا العالم .. فهذا الجسد هو جدارٌ بيننا وبين رؤية الحقائق الكامنة ما وراء عالم الظاهر ، وهو غطاءٌ يحجز عنّا غيب الحكمة الكامنة وراء عالم الظاهر (عالم المادة والمكان والزمان) .. ولذلك في الآخرة حيث يتمُّ التحرُّر من هذا الجسد الدّنيوي يُرفع الغطاء ويزول هذا الجدار فنرى حقيقة الأمور التي كُنا نجهلها قبل رفع هذا الغطاء ..

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٠ – ٢٢]

والتّناظر التّام التّالي داخل هذا النّص يؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ = **١٤** حرفاً

﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ = **١٤** حرفاً

فكشف الغطاء في الآخرة يضع نهاية للغفلة التي كانت في الدّنيا ، وبالتالي يجعل بصر الإنسان حديداً .. ومن جهةٍ أُخرى ما أصبح بصر الإنسان حديداً ويرى الأمور على حقيقتها ، إلاّ بعد كشف الغطاء عنه ..

وهذا الجدار (الجسد) يحول – أحياناً – بين حقيقة ما تخفيه أنفسنا وبين ما تظهره ، ولذلك حين رفع الغطاء في الآخرة عن أنفسنا ، عندها لا نستطيع إخفاء خافية كما هو الحال قبل انهيار هذا الجدار **﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾** [الحاقَّة : ١٨]

ولذلك فهذا الجدار (الجسد) الذي نبنيه من مادَّة هذه الدُّنيا عبر الطعام ، حين انهياره – عبر الموت – لا يخرج من عالمه الدنيوي ، فبعد الموت تتحلَّل عناصر الجسد ، وتعود ذرَّاته إلى عالم المادّة ، بينما تعود أنفسنا إلى العالم الذي تنتمي إليه ، والذي جاءت منه للامتحان خلف هذا الجدار (الجسد) في هذه الدُّنيا ..

ولو كان المتمسِّكون في الدُّنيا الغافلون عن الحقيقة في عالم ما وراء هذا الجدار ، يعتقدون اعتقاداً سليماً بما وراء هذه الدُّنيا وبحقيقة أمرها ، لما خافوا من انهيار هذا الجدار الذي يفصلهم عن الحقيقة ، حيث يلوذون خلفه في هذه الدُّنيا التي هم أحرص الناس على أيّ شكلٍ من أشكال الحياة فيها ..

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٤ – ٩٦]

وهكذا .. فالانهيار العقيدي والأخلاقي وما ينتج عنه من حرصٍ على الدُّنيا وشهوتها ، وهذا ما تشير إليه العبارة القرآنيّة **﴿ فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾** ناتجٌ عن وجود جدار يُغطِّي عنهم الحقيقة الغائبة عنهم ، وهذا ما تشير إليه العبارة القرآنيّة **﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾** ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ تبين لنا أنَّ لهذا الجدار إرادة ، وهي الصورة الوحيدة في القرآن الكريم التي ترتبط فيما الإرادة بما هو مسَّيرٌ وليس مخيَّراً ، فما الحكمة من ذلك ؟! ..

إنَّ الإرادة هي رمز التَّخيير ، ولا يملكها إلاّ الله تعالى والمخلوقات المكلَّفة التي مُنحت الإرادة الحرّة بغية امتحانها في هذه الدُنيا .. و الإرادة – كما رأينا في النظرية الثانية (القدر) – هي الغاية التي تتَّجه إليه الذّات ، والهدف الذي تسير نحوه وفق اختيارٍ ترغبه الذّات ... ولكن بالنسبة للمخلوقات غير المكلَّفة (المسَّيرة تسييراً كاملاً) والتي لا تملك خيارات (السموات ، الأرض ، ... الجدار ، ...) تسير وفق خيارٍ واحدٍ لا ثاني له اختارته بذاتها حين خيَّر الله تعالى مخلوقاته بين تركها تعمل بإرادتها المستقلّة ، وبين اختيارها الانصياع الكامل لقانون الله تعالى ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

فعدم امتلاك المخلوقات غير المكلّفة (كالجدار مثلاً) للخيارات ، هو خيارٌ اختاره بذاتها ، وبالتالي هي منصاعة – بإرادتها الوحيدة التي مُنحت لها مرّة واحدة حين عرض الأمانة – للقانون الذي يحكمها .. وهكذا فالصورة القرآنيّة ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ تبيِّن لنا أنَّ الجدار الذي وجداه متَّجهٌ – حسب قانون المادَّة الذي اختار الانصياع له حينما أُعطي الإرادة مرّة واحدة حين عرض الأمانة – باتِّجاه غاية حاصلة هي الانهيار ..

وإنَّ إقامة الجدار ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ تعني أنَّ غطاءً من أغطية الغيب كاد أن يُكشف فأعاده ، ليحافظ على الغيب إلى الحين الذي يريد الله تعالى فيه أن يُكشف .. وفي هذا إشارة إلى أنَّ أغطية الغيب التي تحكمنا هي لحكمة إلهيّة مُرادة ، وأنَّ عدم كشفها هو – من منظار الحكمة الغائبة – لصالح البشر ..

وكما قلنا بأنَّ الجدار تناسبه كلمة المدينة ولا تُناسبه كلمة القرية ، لأنَّه يتعلَّق بالجانب المادِّي الحضاري ، ولا يتعلَّق بالجانب الفكري العقيدي ، فإنَّ ورود الصورة القرآنيّة ﴿

﴿ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ إشارة إلى أنَّ هذَين الغُلامَيْن لا ينتميان عقيدةً وفكراً إلى هذه القرية ، إنَّما ينتميان إلى سكان هذه القرية حضاريّاً وماديّاً فقط ..

فكما رأينا في الرحلة الثانية تجسيداً لسُنّة من سُنن الله تعالى التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر وهي أنَّ إيمان الأبَوين يحميهما من أن يرهقهما أبناؤهما الفاسقون .. نرى عبر الصورة القرآنيّة التالية تجسيداً لسُنة من سنن الله تعالى .. ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ ﴾ ..

إنَّ الغلامَين صالحان ، وإشارة لذلك ـــ كما قلنا ـــ هو ورودهما مرتبطَين بالمدينة دون القرية ، وبالتالي فهما لا ينتميان عقيدةً وفكراً لأهل القرية الفاسدة .. وأبوهما أيضاً صالحٌ كما يقول النَّصُّ ، ولذلك فاجتماع صلاح الأب مع صلاح الابن يفيد الابن ويفيد الأب ويفيد الزوجة إن كانت صالحة .. هذه الحقيقة التي تجسِّدها القصّة ، نراها واضحة جليّة عبر الصورتَين القرآنيَّتين التَّاليَتين ..

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ ﴾ [الرَّعد : ٢٣]

﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [غافر : ٨]

أما إن فسد الابن فلا ينفعه صالح ألأب ، ودليل ذلك ابن نوح عليه السَّلام وإن فسد الأب فلا ينفعه صلاح الابن ، ودليل ذلك هو أبو إبراهيم عليه السَّلام .. وصلاح الرجل لا يفيد امرأته إن لم تكن صالحة ، وفي امرأتي نوحٍ ولوطٍ عليهما السَّلام أكبر دليل على ذلك .. وصلاح المرأة لا يُفيد من هي امرأته إن لم يكن صالحاً ، وفي امرأة فرعون أكبر دليل على ذلك ..

وكما رأينا تصعيداً في جميع عناصر الأحداث من الرحلة الأولى إلى الثانية ، فإنَّ هذا التَّصعيد يبلغ القِّمة في الرحلة الثالثة ... فقول العبد الصالح ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ ﴾ أشدّ من تنبيهه في الرحلَتين السّابقتين .. وقوله ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ هو تصعيدٌ وذلك بنسب

الإرادة إلى الله تعالى ، ففي الرحلة الثالثة تمّ الوصول – كما رأينا – إلى حقّ اليقين ، وإلى عمق لا يحيط به إلاّ الله تعالى ، ولذلك لا بُدَّ من نسب الإرادة في هذه الرحلة إلى الله تعالى ..

وفي هذا التصعيد عبر الرحلات الثلاث إسقاطٌ لسُنة من سنن الله تعالى ، وهذه السُّنة تلقي الصورة القرآنيّة التّالية الضوء عليها .. ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزُّخرف :٤٨] .. فكلّ رحلة – كما رأينا – هي أعمق من سابقتها ، ولذلك رأينا في النظرية الثالثة (الحق المطلق) كيف أنَّ القرآن الكريم خاتم المناهج والمعجزات هو أعمقها ، ولا يُنسَخ ، وبالتالي هو ناسخٌ لبعض أحكامها .. ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة : ١٠٦]

ولو لم يحتَّج موسى وصبر على ما رآه ، لأخبره العبد الصالح بالحكمة الكامنة وراء الأحداث ، فليس احتجاجه الذي جعل العبد الصالح يُخبره ، ودليل ذلك موجودٌ في شرط العبد الصالح قبل الرحلة .. ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .. فالنتيجة سيصل إليها سواءٌ احتجَّ أم لم يحتجّ .. وفي هذا إسقاطٌ لحقيقة الإنسان وعجلته في عالم الدُّنيا .. هذه الحقيقة تصوُّرها لنا الصورة القرآنيّة التّالية ..

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧]

وقبل أن يُنبّئ العبد الصالح موسى بالحكمة الكامنة وراء الأحداث ، كان موسى ينظر إليها من منظار عالم الظاهر الذي ينتمي إليه ويُمثّله ، وفي هذا العالم تفصلنا الأسباب والجهد والتعب عن الوصول إلى الأمور ، ولذلك – في هذه الرحلة – يُخاطب العبد الصالح موسى بصيغة الاستطاعة التي تشير إلى الجهد والتعب .. ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ..

وبعد أن أنبأه بالحكمة الكامنة وراء الأحداث ، أصبح موسى عليه السَّلام ينظر إلى هذه الأحداث من منظار الحكمة الغائبة ، وبالتالي لم تعد هُناك حواجز مادِّية (ساحة

الاستطاعة) بينه وبين الحكمة الغائبة وراء الأحداث ، ولذلك نرى العبد الصالح يخاطبه بصيغة السّطع التي لا تحتاج لجهد الاستطاعة في عالم الأسباب والظاهر ﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ ..

ولو عُدنا إلى النَّصِّ القرآني الذي يصوِّر أحكام وعِبر وأدِلّة هذه القصّة ، وقرأناه من جديد ، مستحضرين المسائل التي ترمز إليها شخصِّيات هذه القصَّة ، لرأينا الكثير الكثير من الحكم والعِبر المجردة عن المكان والزمان التاريخ ، ترسم صورها من خلال تحرُّك رموز هذه القصة ..

فكما أنَّ النُّصوص القرآنيّة تحمل الحكم والعِبر بشكلٍ مجرَّد عن التاريخ ، ترسمه رسماً مطلقاً أعظمَ من مجيئه عبر نصٍّ قصصيٍّ تاريخي ، كذلك هي القصَّة القرآنيَّة التي تحمل أحداثاً ظاهرها التاريخ ، ترسم – عبر رموزها – صوراً للحكم والعِبر المجرَّدة عن التاريخ والمكان والزمان ، رسماً مطلقاً أعظم من مجيئه عبر نصٍّ ظاهر مجرَّد عن التاريخ .. ومردّ كلّ ذلك هو مطلق التَّصوير القرآني المرتبط بصفات الله تعالى المطلقة ..

فكما أنَّ لكلّ نصٍّ مجرّدٍ عن التاريخ إسقاطاته التّاريخيّة التي لا تنتهي في كلّ زمان ومكان ، كذلك النَّص القرآني القصصي الذي ظاهره التاريخ ، هو إسقاطٌ مطلقٌ لحكمٍ وعِبَرٍ لا تنتهي في كلِّ زمان ومكان ..

وهذا التَّرميز الذي رأيناه لشخصيّات قصَّة موسى مع العبد الصالح ، ولساحات الأفعال التي حدثت ، ولارتباط الجمل ببعضها ، لا يُشكِّل من حقيقة ما ترمز إليه هذه القصّة وما تحمله من حِكَمٍ وعِبَرٍ ، أكثر ممّا يغرفه رأس إبرة من البحر ، فهذه القصّة – وكلّ قصّة – تُجسِّد أحكاماً وعِبَراً لا يعلم نهايتها إلاّ الله تعالى ..

﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [لقمان : ٢٧]

((الارتسامات اللانهائيّة للحِكَم والعبر الكامنة خلف رموز القصّة القرآنيّة))

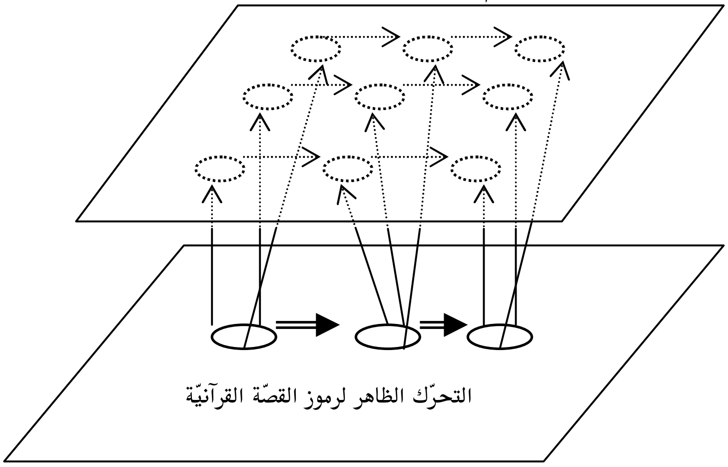

((تحرّك الحِكَم والعبر في النصوص القرآنيّة المجرّدة عن القصّة والتاريخ))

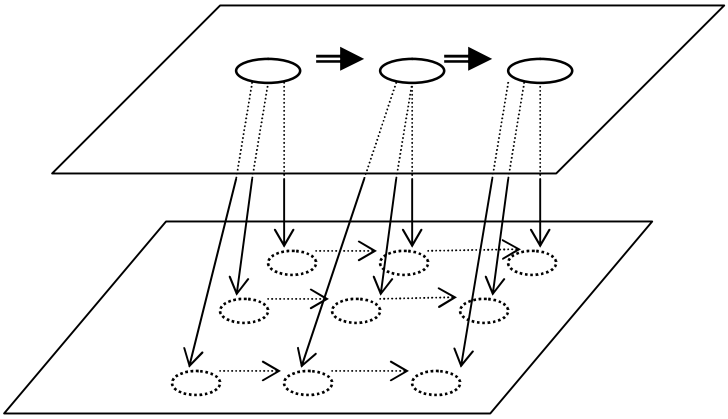

((الإسقاطات اللانهائيّة لهذه الحِكَم والعبر في كلّ زمان ومكان))

فالله تعالى الذي يصف القرآن الكريم بأنَّه تبيانٌ لكل شيءٍ .. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النَّحل : ٨٩] .. يصف أيضاً القصص القرآنيّة بأنها ليست حديثاً يُفترى ، ولكنّها هي الأخرى – كونها من القرآن الكريم – تحمل حكماً وعِبراً وأحكاماً يتمُّ من خلالها تفصيل كلِّ شيءٍ ..

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

فكما أنَّ القصَّة تحمل آيات (حكم وعِبر وبراهين و أدلَّة) اللهِ تعالى ، كذلك هي آيات الله تعالى يقصّها الرُّسل عليهم السَّلام ..

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنعام : ١٣٠]

فالقصة القرآنيّة شأها شأن أيِّ نصٍّ قرآنيٍّ ، هي من أجل التَّفكُّر و التَّدبُّر و النَّظر إلى ما وراء تحرّك رموزها وأحداثها ..

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦]

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الأسماء القرآنيّة
تجسيدٌ لجوانب الحكمة المطلقة

.. رأينا في الفصل الأوّل كيف أنَّ الشَّخصيات القرآنيّة التي تتحرَّك عبر أحداث وقعت في أزمنة وأمكنة محدَّدة ، هي في الوقت ذاته رموزٌ لمسائل تتحرَّك في كلِّ زمان ومكان ، وأنَّ للقصَّص القرآنيِّة إسقاطاتها التي لا تنتهي في كلِّ زمان ومكان .. وسنتناول – إن شاء الله تعالى – في هذا الفصل مسألة تكامل الأسماء والأحداث القصصيِّة القرآنيِّة في رسم وتجسيد صورة الحكمة المطلقة المنقولة إلينا عبر القرآن الكريم ..

فليس عبثاً هذا الكّم من الأسماء والقصص القرآنيّة ، ولبس تكراراً ورود المشهد القصصي في أكثر من موضع ، وليس مصادفة عدم ارتباط الاسم في القرآن الكريم بأكثر من شخصية واحدة .. إنَّ كلّ ما حدث ويحدث وسيحدث ، يحمل القرآن الكريم له تبياناً ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النَّحل :٨٩] ، وبالتالي فتفاعلنا – في كلِّ زمانٍ ومكان – مع أوجه الحكمة بشتّى جوانبها ، يحمل القرآن الكريم تبياناً له من جميع جوانب الحكمة المطلقة .. فكلُّ نصٍّ يحمل صورة لقصّة أو لاسم أو لحكم أو ... هو في الحقيقة يحمل وجهاً من أوجه الحكمة المطلقة ، وبتكامل هذه الوجوه – من خلال تكامل النُّصوص القرآنيّة الحاملة لها – تُرسم صورة الحكمة المطلقة التي يحملها القرآن الكريم ..

فكل اسم من الأسماء القرآنيِّة المتعلِّقة بمسألة الرِّسالة والنُّبوة والحكمة ، أو من الأسماء المتعلِّقة بمسألة العصيان والكفر ، يرسم جانباً مميَّزاً ، له لونه الممّيز ، وذلك من جوانب الحكمة والدعوة إلى الله تعالى ، أو من جوانب الكفر والعصيان ، بحيث لا ينوب عنه اسمٌ آخر ، لأنَّ هذا الآخر يُجسِّد لوناً لا ينوب عنه غيره .. ومن الأدلَّة على ذلك أنَّ كلُّ اسمٍ قرآنيٍّ يشير إلى شخصيّة واحدة فقط ، ولا يوجد اسمٌ قرآنيٌّ واحد يشير لأكثر من شخصية ..

ففي الوقت الذي ترسم فيه الأسماء المتعلّقة بمسألة الرسالة والنُّبوة والحكمة ، جوانب الحكمة المطلقة ، والدَّعوة إلى الله تعالى في كلِّ زمانٍ ومكان .. ترسم الأسماء المتعلِّقة

بالكفر والعصيان ، جوانب مسألة مقاومة أهل الكفر والشرِّ لمسألة الحكمة المطلقة في كلِّ زمان ومكان ، وبحيث يكون مجموع هذه الجوانب عبر مجموع الأسماء والأقوام المتعلِّقة بالكفر والشَّرِّ ، الصورة الكاملة لجوانب الشَّرِّ والكفر والعصيان في كلِّ زمان ومكان ..

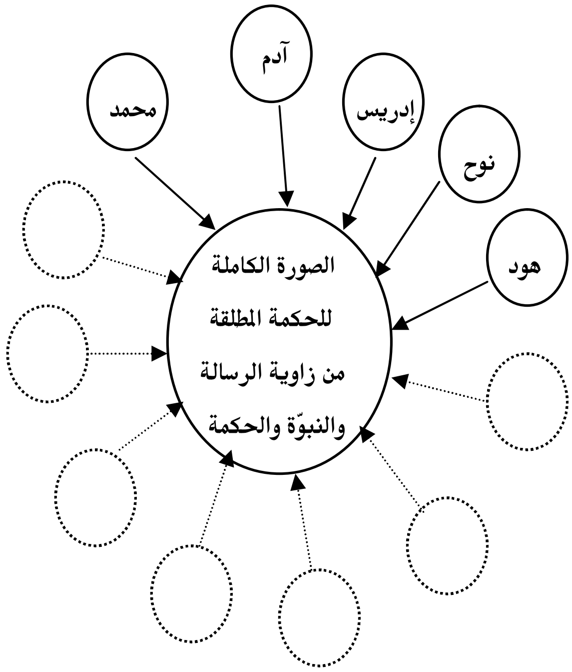

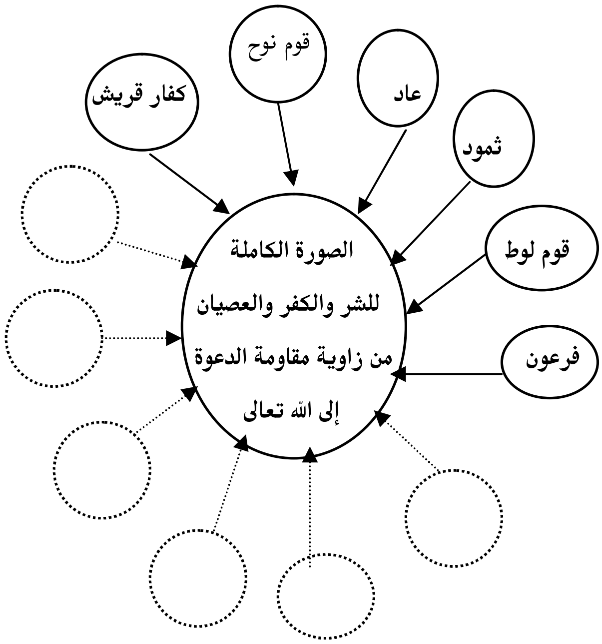

إنَّ قصص القرآن الكريم التي تصوّر الجوانب المختلفة لمسألة الحكمة المطلقة ومقاومة أهل الكفر والشَّرِّ لها ، تُجسِّد الجوانب المختلفة للثّوابت – التي لا تتغيَّر مع الأزمان والحضارات – في النفس البشرية ، في تعامل هذه النفس مع جوانب الحكمة المطلقة ..

فَدَاءُ البشريّة من كفرٍ وفسوقٍ وعصيانٍ في تفاعلها مع دعوة الله تعالى ، لا يتغيَّر بصورته المجرَّدة مع تغيُّر الزمن .. وحكمةُ الله تعالى ودعوته للبشر بصورتها المجرَّدة لا تتغيَّر مع الزمن .. فالداء والدواء – بصورتيهما المجرَّدتين – هما ذاتهما من آدم عليه السَّلام حتّى قيام الساعة .. وقصص القرآن الكريم بأسمائها وأحداثها المختلفة ، هي تصوير مطلق لجوانب الداء والدواء ، بشكلٍ مجرَّدٍ عن التاريخ وحضارته في الأزمنة والأمكنة المختلفة ..

وكلّ جانبٍ من جوانب الشَّرِّ التي نراها الآن على الأرض ، هو إسقاطٌ نسبي زماني مكاني لمسيرة أقوامٍ وأشخاصٍ شرِّيرين يتحدّث عنهم القرآن الكريم ، يرمزون لهذا الجانب من الشَّرِّ .. وكلّ جانبٍ من جوانب الخير التي نراها الآن على وجه الأرض ، هو إسقاطٌ نسبيٌ زماني مكاني لمسيرة الأسماء المرتبطة بمسألة الرسالة و النُّبوة والحكمة في القرآن الكريم ، والتي ترمز لهذا الجانب من الخير ..

إنَّ القصص القرآنيّة بجوانبها المختلفة – إضافة إلى أنَّها ترسم لنا الصورة الحيّة للقرون البائدة وأنَّها تنفخ الحياة فيها فنراها تتحرَّك أمامنا كالشريط السينمائي – نراها تصوّر لنا تصويراً مطلقاً جوانب الحياة التي نعيشها ونتحرَّك خلالها ما بين الخير والشَّرِّ .. فالقرآن الكريم حتى بقصصه مجرَّدٌ عن الزمان والمكان ، ويصوِّر لنا الماضي والحضر والمستقبل في الوقت ذاته ..

إنَّ الحقيقة المجرَّدة المجسَّدة في صراع نفس آدم عليه السَّلام ، ما بين الانصياع لأمر الله تعالى ، وبين الخضوع لوسوسة الشيطان وإغوائه .. هذه الحقيقة عبارة عن ثابتٍ في النفس الإنسانيّة مُجرَّدٍ عن الزمان والمكان ، يحدث مع كلّ نفسٍ في صراعها مع أيِّ مسألةٍ ، وفق إسقاطٍ يتعلَّق بهذه النفس وبقوّة عزيمتها ..

والحقيقة المجرَّدة المجسَّدة في دعوة أيّ رسول في القرآن الكريم ، ترسم صورة جانب من جوانب الدعوة يحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ مع مجموعة من الدُّعاة ، الذين يُجسِّدون في زمانهم ومكانهم إسقاطاً نسبياً لهذا الرسول .. فللفطرة الصادقة – على سبيل المثال – التي تمثَّلها إبراهيم عليه السَّلام ، والتي قادته إلى معرفة الله تعالى ، إسقاطاتُها في نفوس البشر بنسبٍ تتعلَّق بدرجة طهارة ونقاء تلك النفوس ، فنراها تنعدم في بعض النفوس الكافرة ، وتبلغ درجة كبيرة في بعض النفوس المؤمنة ..

والحقيقة المجرَّدة الْمُجسَّدة في مواجهة الأقوام والأشخاص – الواردين في القرآن الكريم – لدعوات الرُّسل عليهم السّلام ، يرسم كلٌّ منها صورة جانبٍ من جوانب الشَّرِّ والكفر والعصيان ، يحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ مع أُناسٍ هم إسقاطٌ نسبيٌّ في ذلك الزمان لهؤلاء الأقوام والأشخاص الذين يُحدِّثنا عنهم القرآن الكريم ، فالطغيان والكفر – على سبيل المثال – الذي تمثَّله فرعون ، له إسقاطاته في نفوس البشر بنسبٍ تتعلَّق بدرجة كفر هذه النفوس وطغيانها ، فنراها تنعدم في بعض النفوس المؤمنة ، وتبلغ درجة كبيرة في بعض النفوس الكافرة الطاغية ..

ولمّا كانت الأسماء والأحداث القصصيّة القرآنيّة ترسم لنا الأبجديّة المجرّدة عن التاريخ لصور الخير والشَّرِّ وصراعهما الذي لا ينتهي عبر الأزمنة ، لذلك نرى ورود بعض المشاهد القصصيّة القرآنيّة للحدث ذاته في أكثر من موضع .. وفي هذا دليلٌ على أنَّ المقصود ليس

مجرَّد المشهد الحسِّي كحدثٍ تاريخيٍّ ، و إنَّما المقصود هو اللون والرمز الذي يرمز إليه هذا المشهد بأشخاصه وأحداثه في لوحة الحكمة المطلقة ..

نحن نعلم أنَّ الحرف في اللغة هو – بصورته المجرَّدة – لبنة لها استقلاليّتها في بناء الكلمات ، وبالتالي في بناء المعاني التي تحملها هذه الكلمات ، ونعلم أنَّ ترتيبه في الكلمة واقترانه بغيره من الحروف هو ما يحدِّد معنى الكلمة ، وماهيّة الصورة التي ترسمها هذه الكلمة .. ولذلك فالذي ينظر للحرف على أنَّه مرتبطٌ بمسألةٍ خاصة لا يعني غيرها بشكلٍ مستقلٍّ عن ارتباطه بباقي الحروف وترتيبها في الكلمة ، سيرى أنَّ ورود أكثر من حرفٍ في الكلمة ذاتها ، أو في العبارة ذاتها ، هو تكرارٌ للمسألة التي تخيّل أنَّ هذا الحرف يرسم صورتها ، وبالتالي يحسب أن تغيير ترتيب الحروف في الكلمات لا يُغيِّر من المعاني التي تحملها هذه الكلمات ..

والمشاهد القصصيّة القرآنيّة ، هي لبنات مجرَّدة عن التاريخ والزمان والمكان ، ترسم مع سياق الحديث السابق واللاحق لها ، الجوانب المختلفة للحكمة المطلقة التي يحملها القرآن الكريم .. ولذلك فإنَّ النظر إليها من منظار الحدث الحسِّي التاريخي دون ربطها مع سياق الحديث السابق واللاحق لها ، ودون النظر إلى الاختلاف في صياغتها اللغويّة الذي قد يكون أحياناً مختلفاً في كلمةٍ أو حرف .. كلّ ذلك يؤدِّي إلى توهُّم وجود تكرار بين بعض المشاهد القصصيّة القرآنيّة ، كمن توهَّم تكرار بعض الحروف في الكلمة أو في الجملة حينما حسب أنَّ هذه الحروف تصوِّر مسائل لها خصوصيّتها من الزمان والمكان ، بشكلٍ مستقلٍّ عن ارتباط الحروف مع بعضها بعضاً ..

فورود بعض المشاهد القرآنيّة للمسألة ذاتها – حسب تصوّرنا – هو تصويرٌ لجانب الحكمة الذي يرسمه هذا المشهد من زوايا مختلفة ، كلّ مشهد منها يتبع زاوية التصوير المرتبطة بسياق الحديث السابق واللاحق لهذا المشهد .. وهذا لا يُعَدُّ تكراراً ، إنَّما هو لرسم صور الحكمة المطلقة ، كتكرار الحروف في رسم صورة الكلمات ..

ومجموع الجوانب التي ترسمها القصص القرآنيّة بأشخاصها وأحداثها ، يُمثِّل – إضافة إلى تمثيل جوانب الصراع بين الخير والشَّرِّ داخل كلِّ نفسٍ في كلِّ زمان ومكان – في الوقت ذاته جوانب الصراع بين الخير و الشَّرِّ داخل كلّ نفسٍ في كلِّ زمان ومكان ..

فكلّ شخصيَّة من شخصيّات القصص القرآنيّة لها إسقاطٌ نسبيٌّ في كلّ نفسٍ يختلف من نفسٍ إلى أُخرى حسب سمو هذه النفس ودرجة إيمانها ..

إذاً كلُّ شخصيّة قرآنيّة تُجسّد جانباً من جوانب الحكمة المطلقة أو جانباً من جوانب معارضتها في كلّ مجتمع ، وترسم في الوقت ذاته جانباً من جوانب تعلُّق النفس البشريّة بهذه الحكمة أو جانباً من جوانب تعلُّقها بمعارضة هذه الحكمة ..

فالصراع بين الخير والشَّرِّ في القصص القرآنيّة بمعناه الْمُجرَّد ، له إسقاطٌ في كلّ زمان ومكان في كلّ مجتمع ، وفي كلّ نفسٍ ، بدرجات مختلفة تعود لماهيّة المجتمعات والأنفس .. ومن جهة أُخرى فإنَّ كلّ ما يكون في كلّ زمانٍ ومكانٍ لأيِّ درجة من درجات الصراع بين الخير والشَّرِّ في كلّ مجتمع وفي كلّ نفسٍ ، هو إسقاطٌ نسبيٌ لتعلُّق ماهيّة المجتمعات والأنفس للصراع بين الخير والشَّرِّ الذي تُجسِّده القصص القرآنيّة ..

لو بحثنا في القرآن الكريم عن الأقوام الذين تحزَّبوا ضدّ رسلهم ، وأصابهم العقاب الجماعي نتيجة ذلك ، حيث حذَّرهم رسلهم أو دعوا عليهم ، لوجدنا ستّة أقوام ..

(**١**) **–** قوم نوحٍ عليه السّلام الذين دعا عليهم نوح بالهلاك ، وقد ُهلكوا بالغرق ..

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر : ٩ – ١٠]

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]

(**٢**) **–** عاد وهم قوم هود وقد أُهلكوا بالرّيح ..

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقّة : ٦]

وقد طلبوا استعجال العذاب الذي كان يُحذرهم منه هود عليه السّلام ..

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ [الأعراف : ٧٠ – ٧١]

(**٣**) **–** فرعون وقومه وقد أُهلكوا بالغرق ، حيث همَّ فرعون بقتل موسى عليه السلام .. **﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾** [غافر : ٢٦] ، وقد دعا موسى عليه السَّلام على فرعون وملئه ..

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨٨ – ٩١]

(**٤**) **–** ثمود وهم قوم صالح ، وأُهلكوا بالصيحة ، وقد حذّرهم صالح عليه السَّلام من العقاب الذي وقع بهم ..

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٦٤ – ٦٧]

(**٥**) **–** قوم لوط وقد أُهلكوا بمطر السّوء **﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾** [الشُّعراء : ١٧٣] .. وقد استعجلوا عذاب الله تعالى ، وطلب لوط عليه السَّلام من الله تعالى النّصر عليهم ..

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨ – ٣٠]

(٦) – أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السَّلام ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشُّعراء : ١٧٦ – ١٧٨] .. وقد طلبوا استعجال عذاب الله تعالى عليهم ، وأُهلكوا بعذاب يوم الظلّة ..

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشُّعراء : ١٨٧ – ١٨٩]

وقد حذَّرهم شعيبٌ عليه السَّلام من العذاب الذي وقع بهم ..

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣]

وهؤلاء الأقوام السِّتّة يمثِّلون جوانب مسألة التَّحزُّب ضدَّ الدَّعوة إلى الله تعالى ، واستحقاق العقاب الجماعي في هذه الدّنيا ..

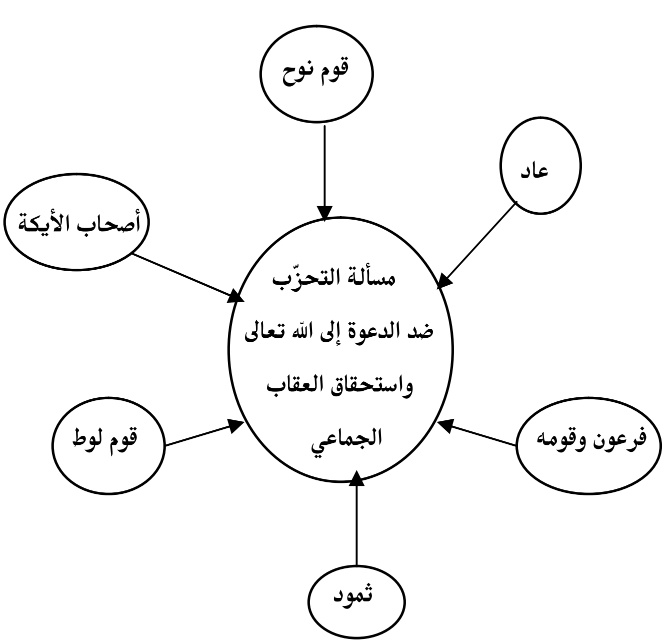

ولهذه المسالة بجوانبها السِّتّة إسقاطاتٌ في كلِّ زمان ومكان .. فللتحزُّب والوقوف في وجه الدّعوة إلى الله تعالى ، والذي يستحقُّ العقاب الجماعي العاجل في الدُّنيا ، ستّة أوجه .. كلّ وجهٍ منها يمثِّله قوم من الأقوام السِّتّة .. ولذلك فأيّ تحزُّب في كلّ زمان ومكان ضدّ أيّ دعوة حقّ إلى الله تعالى يستحقُّ فيها المتحزِّبون عقاب الله تعالى في الدُّنيا ، هو إسقاطٌ لوجهٍ (أو أكثر) من هذه الأوجه السِّتّة ..

والنَّصّ القرآنيّ التالي يرسم لنا إسقاطاً من إسقاطات هذه الأوجه السِّتّة للتَّحزُّب ضدّ الدعوة إلى الله تعالى .. فأولئك الطاعنون بصدق رسالة الرَّسول ﷺ هم من إسقاطات مسألة الأحزاب ..

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن
ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم

مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ [ص : ٦ – ١١]

إنَّ الآية الأخيرة من هذا النّصّ ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ ، تبيِّن لنا أنَّ هؤلاء يحملون صفاتٍ من الأحزاب ، وبالتالي هم إسقاطٌ لمسألة الأحزاب التي يبيّن لنا النَّص التالي لهذا النّص مباشرةً أوجهها السّتة التي رأيناها ..

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ [ص : ١٢ – ١٣]

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ تبيِّن لنا أنَّ هذه الرموز التاريخية السِّتّة ، تُمثِّل جميع جوانب مسألة الأحزاب ، بحيث يُمثِّل كلٌّ منها جانباً مميّزاً من جوانب مسألة الأحزاب ، وبالتالي يُمثِّل مجموعُ هذه الرموز ، مسألةَ الأحزاب من جميع جوانبها ..

ولو تمَّ تأطير النَّص الثاني [الآيتين : ١٢ و ١٣ من سورة ص] الذي يُبيّن لنا الأوجه السِّتة لمسألة الأحزاب ، ضمن إطار الحدث التاريخي الْمُجرَّد عن إطلاقه وعن تمثيله لجوانب مسألة الأحزاب ، لتعارض ذلك مع الآية الأخيرة من النَّصّ الأوّل والتي تسبق النَّص الثاني مباشرة ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ التي تُبيّن أنَّ هؤلاء الذين انطلقوا ومشوا وحاربوا دعوة الله تعالى (وهم ليسوا من الأقوام السِّتة) ، هم من الأحزاب ..

فالآية الكريمة ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ تُبيّن انتماء المتحزِّبين ضدّ رسالة محمد ﷺ لساحة إسقاطات مسألة الأحزاب التي يُبيّن النَّص الثاني – عبر رموزه القصصيَّة – جوانبها السِّتة .. فالعبارة القرآنيّة من النَّص الثاني ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ تحصر مسألة الأحزاب بستة جوانب تمثِّلها الأقوام السّتة ، وبالتالي كلُّ تحزُّب غير هذه الأقوام السّتة ، هو إسقاطٌ لجانب أو أكثر من هذه الجوانب ..

وعلى الرغم من تمثيل قوم نوح لجانب من جوانب مسألة الأحزاب ، فإنّ لقوم نوح خصوصيّة تُميّزهم عن الجوانب الأخرى لهذه المسألة .. فقد دعا نوح عليهم دعوة صريحة واضحة بالهلاك ..

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ [القمر : ١٠]

﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]

والآية التالية تؤكّد خصوصيّة قوم نوح بالظلم والطغيان ، حتى على باقي الجوانب السّتة التي رأيناها ..

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾ [النّجم : ٥٢]

.. هذه الخصوصيّة التي تميّز قوم نوح على باقي الأقوام الممثّلة لمسألة الأحزاب ، نراها واضحة جليَّة في الآية التالية ..

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٥]

والصورة القرآنيّة التالية تؤكّد أنَّ قوم نوح وعاداً وثمود ، والذين من بعدهم وهم قوم لوط وقوم شعيب (أصحاب الأيكة) وفرعون وقومه ، هم رموز جوانب مسألة الأحزاب التي رأيناها ..

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣٠ – ٣١]

فالتقابل بين العبارة ﴿ مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ والعبارة ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ يؤكّد – بالتكامل مع الآيات الأخرى المصوّرة لهذه المسألة – أنَّ الأقوام السّتة التي رأيناها هي رموز جوانب مسألة الأحزاب ..

ولذلك عندما نرى كلمة الأحزاب في القرآن الكريم ، ترتسم بأذهاننا إسقاطات رموز جوانب مسألة الأحزاب السّتة .. وهذه هي جميع النصوص القرآنيّة التي تردّ فيها كلمة الأحزاب ، والتي لم نذكرها خلال شرح هذه المسألة ..

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [هود : ١٧]

﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ ﴾ [الرَّعد : ٣٦]

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧]

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ [الأحزاب : ٢٠]

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٢٢]

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزُّخرف : ٦٥]

وكلّ مشهد قرآني من مشاهد وحوارات وأفعال هذه الأقوام السَّتة (رموز مسألة الأحزاب) ، له إسقاطٌ في كلِّ زمان ومكان ، ولا يُوجد حدث بالنسبة لهذه المسألة في كلِّ زمان ومكان ، إلاّ وهو إسقاطٌ لحوار أو لفعل من مشاهد هذه الجوانب ، ويكون مجموع مشاهد هذه الجوانب الستة بأحداثها وحواراتها وأفعالها (في القرآن الكريم) ، هو مجموع كامل رموز هذه المسألة لكلِّ حدث وحوار وفعلٍ في كلِّ زمان ومكان .. فللأحداث والأفعال والحوارات التي تحمل وجهاً تاريخيّاً قصصيّاً في القرآن الكريم ، عمقٌ مجرَّدٌ عن التاريخ والزمان والمكان ..

لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية التي تُصوّر لنا رموز جوانب مسألة استحقاق وقوع وعيد الله تعالى ..

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٢ – ١٤]

إنّنا نرى أنّ لهذه المسألة ثمانية جوانب ، هي الجوانب السّتة التي رأيناها في مسألة الأحزاب ، إضافة إلى جانبين اثنين هُما أصحاب الرَّسِّ وقوم تُبَّع ..

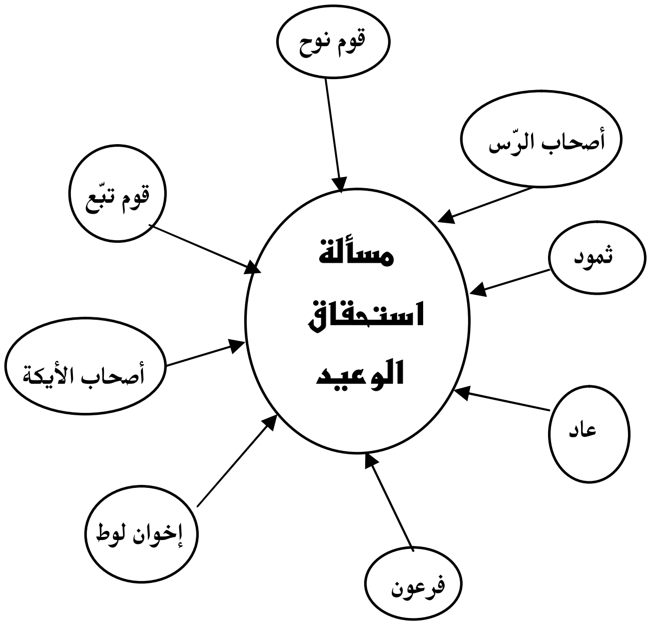

وهكذا نرى أنّ مسألة استحقاق الوعيد أوسع من مسألة الأحزاب ، وبالتالي فإنّ مسألة الأحزاب تقع داخل إطار مسألة استحقاق الوعيد ..

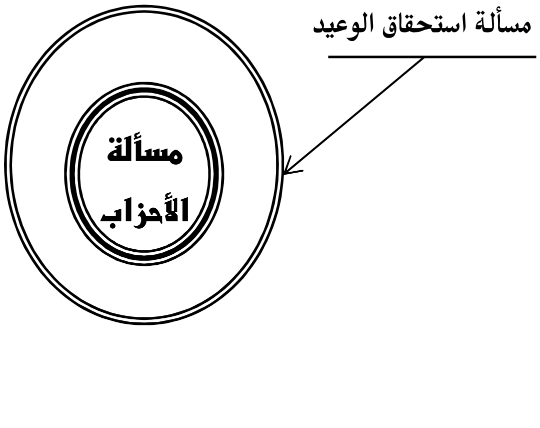

ومسألة استحقاق الوعيد – كأيّ مسألة قرآنيّة – بجوانبها الثمانية لها إسقاطٌ في كلّ زمانٍ ومكان .. فكلّ حدثٍ أو فعل أو حوارٍ في كلّ زمانٍ ومكانٍ يستحقُّ وقوع وعيد الله تعالى ، هو إسقاطٌ لجانبٍ أو أكثر من جوانب هذه المسألة ، بأحداثها وأفعالها وحواراتها ..

والصورة القرآنيّة التالية تبيّن لنا بعض رموز جوانب مسألة التّكذيب ..

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحجّ : ٤٢ – ٤٤]

إنّنا نرى إضافة لجوانب مسألة الأحزاب جانبين إضافيين ..

(**١**) **–** قوم إبراهيم عليه السّلام ..

(**٢**) **–** الكفّار من قوم موسى عليه السّلام .. فالعبارة القرآنيّة **﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾** تعني إضافة إلى فرعون وقومه (جانب مسألة الأحزاب) ، الكفّار من قوم موسى الذين كذّبوه ..

وهكذا نرى أنّ مسألة الأحزاب هي داخل إطار مسألة التّكذيب ..

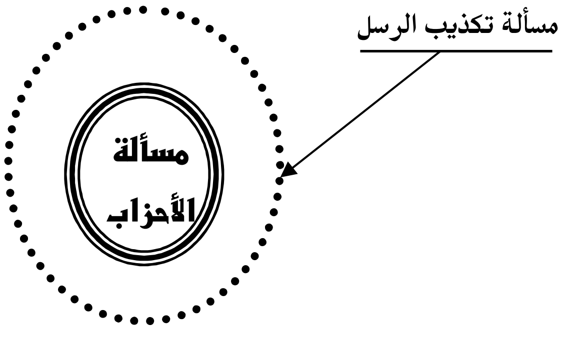

والآيات الكريمة التالية تُبيّن لنا بعض رموز جوانب مسألة تكذيب الرُّسل عليهم السلام ..

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر : ٨٠]

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٢ – ١٤]

إنّنا نرى أنّ مسألة التكذيب أوسع من مسألة استحقاق الوعيد ، وبالتالي فإنّ مسألة استحقاق الوعيد هي داخل إطار مسألة التّكذيب ..

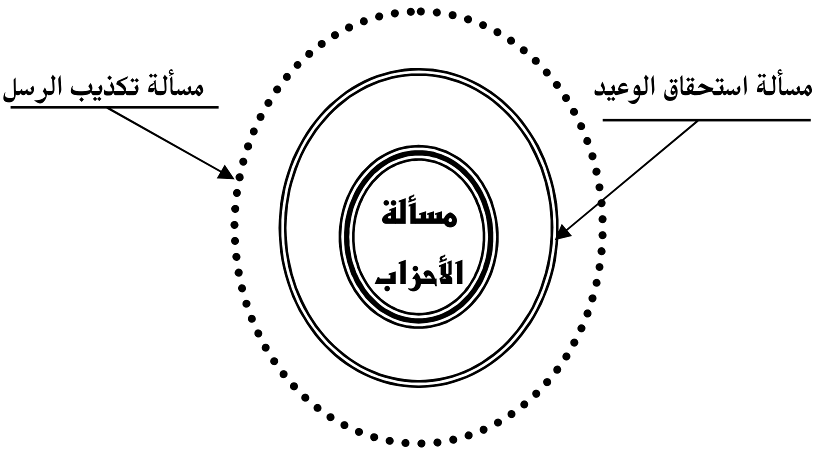

وهكذا نرى أنّ مسألة تكذيب الرُّسل عليهم السَّلام هي أوسع هذه الدوائر ، وأنّ مسألة الأحزاب التي تستحقُّ العقاب في الدّنيا ، هي أضيق هذه الدوائر .. وسير الرُّسل عليهم السَّلام في القرآن الكريم تؤكّد ذلك ، فأوّل ما يُواجه به كلُّ رسول هو التَّكذيب ، أمّا مسألة التَّحزُّب ضدّ دعوة الرُّسل إلى الله تعالى والتي تستحقّ العقاب في الدنيا ، هي – كما رأينا – خاصّة فقط بستّة مرسلين فقط ، وكذلك إسقاطاها في كلّ زمان ومكان أكثر محدوديّة من مسألة التَّكذيب ..

وسيرة الصراع بين الحقّ والباطل في كلّ زمان ومكان ، كإسقاطات لدعوة الرُّسل عليهم السَّلام إلى الله تعالى ، ومعارضة الكفّار لذلك ، تؤكد حدود دوائر هذه المسائل الثلاث .. فكلّ داعية إلى الله تعالى يدعو عبر برهانٍ جديد ، أوّل ما يُواجَه به هو

التّكذيب .. بحيث لا ينجو داعية من ذلك .. أمّا مسألة التّحزُّب ضد برهانه ودعوته والتي تستحقّ العقاب في الدنيا ، نراها أضيق المسائل ، ولا تحدث مع جميع الدُّعاة ..

فكما هي أُطُر المسائل الثلاث في القرآن الكريم محتواة داخل بعضها بعضاً ، كذلك هي إسقاطاتها في كلِّ زمان ومكان ، محتواة داخل بعضها بعضاً ، الاحتواء ذاته .. فهذه الإسقاطات هي ظلال لتلك المسائل ، وبالتالي هي صورة تلك المسائل المرسومة بمادّة المكان والزمان الذي تحدث فيها هذه الإسقاطات .. فعندما نقرأ قصّة قرآنيّة لأيِّ قومٍ من الأقوام ، نقرأ في الوقت ذاته بعض جوانب الخير والشَّرِّ في مجتمعنا الذي نعيشه ، ونرى حدود الصراع بين الخير والشَّرِّ في أنفسنا ، وذلك وفق نسبٍ تتعلَّق بماهيّة هذه المجتمعات والأنفس ، ودرجات إيمانها وكفرها وطيبها وخبثها ..

ولو أخذنا مسألة الانتفاع من الإيمان في كشف العذاب ، لوجدنا لها في القرآن الكريم وجهاً واحداً ، هو قوم يونس عليه السّلام ..

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨]

ولهذه المسألة التي يرمز لها قوم يونس ، إسقاطٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .. فكلّ قول وفعل وعمل إيمانيّ يؤدّي إلى كشف العذاب في الحياة الدنيا في أيّ مجتمعٍ في كلّ زمان ومكان ، هو إسقاطٌ لقصّة قوم يونس ..

فجميع إسقاطات هذه المسالة (منفعة الإيمان في كشف العذاب) في كلِّ زمان ومكان ، تتراوح – بشِّقيها الإيجابي والسَّلبي – بين قّمتين متناقضتين ، هما قوم يونس عليه السَّلام من جهة ، وأقوام مسألة الأحزاب السِّتة (قوم نوح ، عاد ، ثمود ، قوم لوط ، أصحاب الأيكة ، فرعون وقومه) من جهةٍ أخرى ..

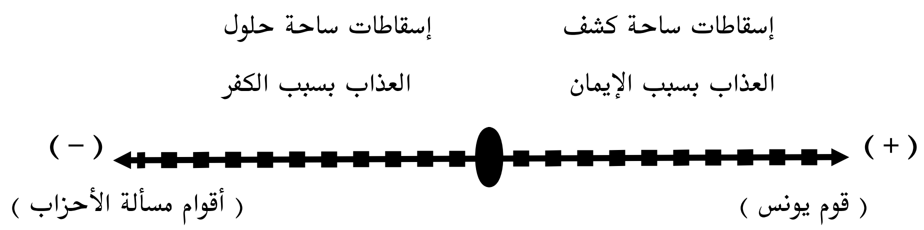

ويبيِّن لنا القرآن الكريم في مسألة الإخلاص والخيانة للزوج ، والطهارة والعِّفة والرِّجس ، عبر رموزه القصصيّة التاريخيّة ، قمّتين متناقضتين تماماً ، هما رمزا النهايتين الإيجابيّة والسلبيّة لهذه المسألة ..

(١) – وجه يُمثِّل قّمة الخيانة والكفر والجحود وترمز له امرأة نوح وامرأة لوط ..

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التَّحريم : ١٠]

فقمَّة الخيانة تكون من امرأة نبي رسول يدعو إلى الله تعالى ..

(٢) – وجه يُمثِّل قمة الإيمان و الإخلاص والصبر ، ترمز له امرأة فرعون ، وقِّمة الطَّهارة والعفَّة ، وترمز له مريم بنت عمران ..

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التَّحريم : ١١-١٢]

فقمَّة الإيمان والإخلاص والصبر ، تكون – بالنِّسبة للنِّساء – بإخلاص امرأة قّمة الكفر (فرعون) ..

وقّمة العّفة والإحسان هي لمريم عليها السَّلام ، التي اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين ..

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فما بين هاتين القمّتين المتناقضتين تُوجد جميع نساء الأرض دون استثناء ، وعلى درجات تتعلّق بإيمانهن وصبرهن وعفّتهن .. فكلّ امرأة في كلِّ زمان ومكان فيها نسبة – إيجابيّة كانت أم سلبية – من هذين الوجهين ، تتعلّق بدرجة إخلاصها وطهارتها ..

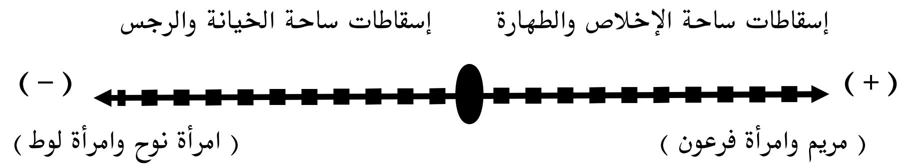

إنَّ إبراهيم عليه السَّلام يمثِّل رمز الفطرة النقيّة الطاهرة ، فقد تعرَّف على ربِّه جلَّ وعلا من خلال فطرته هذه ..

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا
ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٤ – ٧٩]

وهذه الفطرة النَّقيّة تُناقض تماماً التَّقليد والإتباع الأعمى لمنهج الآباء ، ولذلك نرى أنَّ إبراهيم عليه السّلام قد اصطدم أثناء بحثه عن الحقيقة ، وأثناء دعوته إلى الله تعالى ، مع أبيه ومع قومه ..

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء : ٥١ – ٥٤]

فالفطرة السليمة الصادقة المجرَّدة عن الإتّباع الأعمى ، وعن تقليد الجهل ، نرى أنّها تدفع بإبراهيم عليه السَّلام إلى أن يتبرّأ من أبيه ..

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التّوبة : ١١٤]

وليس مصادفة أن تردّ في القرآن الكريم مسألة التّبرُّؤ من الأب الكافر ، في قصَّة إبراهيم عليه السَّلام .. فمن مقتضيات الفطرة النَّقيّة الصّادقة التّبرُّؤ من جميع جوانب التَّقليد الأعمى ، الذي قمّته تقليد الآباء تقليداً أعمى في معتقداتهم الفاسدة ..

وتتجلّى هذه الفطرة النَّقيّة الصادقة مع الإيمان الخالص لله تعالى ، في مسألة تصديق إبراهيم عليه السَّلام لرؤية ذبحه ابنه ..

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصَّافات : ١٠٢ – ١٠٧]

وهكذا نرى أنَّ مسألة الخلاص الصادق في الفطرة لله تعالى تتراوح بين قمّتين اثنتين متناقضتين .. يُمثِّل إبراهيم عليه السلام قمَّة الفطرة الصادقة البريئة الخالصة لله تعالى ، ويمثّل أبوه وقومه قمّة التَّقليد والإتّباع الأعمى ..

إسقاطات ساحة الفطرة النقيّة إسقاطات ساحة التقليد الأعمى

(+) ←■■■■■■■■■■■●■■■■■■■■■■■→ (−)

(إبراهيم) (أبو إبراهيم وقومه)

وكلّ إنسان في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، له درجة – بالنسبة لهذه المسألة – على هذا المحور تتعلّق بمدى نقاء فطرته وخلاصها لله تعالى ، وبمدى تقليده الأعمى للموروث من الآباء ..

وفي مسألة إرث العقيدة الصالحة من الآباء – عبر إتباعهم – والاستفادة من ذلك نرى أنَّ القرآن الكريم يرسم لنا قمّتيها المتناقضتين تماماً .. فنوحٌ عليه السَّلام الذي دعا قومه فترة كبيرة من الزمن ، نرى أنَّ ابنه لم يتبعه ، و لم يستفد حتى من النداء الأخير للنجاة من الغرق ..

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٢ – ٤٧]

إنّنا نرى أنَّ ابن نوح – كما تُقرّر بداية النّصّ القرآنيّ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ ﴾ – بكفره وعصيانه ، خرج من دائرة أهل نوح ، ودخل في دائرة العمل غير الصالح ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ .. ففي الوقت الذي كان بإمكانه أن يكسب ميراث الدنيا والآخرة ، نراه يخسرها معاً ..

والقّمة الأخرى – بالنسبة لهذه المسألة – المناقضة لخسران ابن نوح إرث أبيه ، هي إرث سليمان لأبيه داود عليهما السّلام .. ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النّمل : ١٦] .. فبسليمان عليه السّلام (الحاكم والنّبي) اجتمع ميراث الدنيا والآخرة ..

وجميع البشر دون استثناء يقعون – بالنسبة لهذه المسألة – بين هاتين القمّتين ، على درجات تتعلّق بإيمانهم وصدقهم وإخلاصهم لله تعالى ..

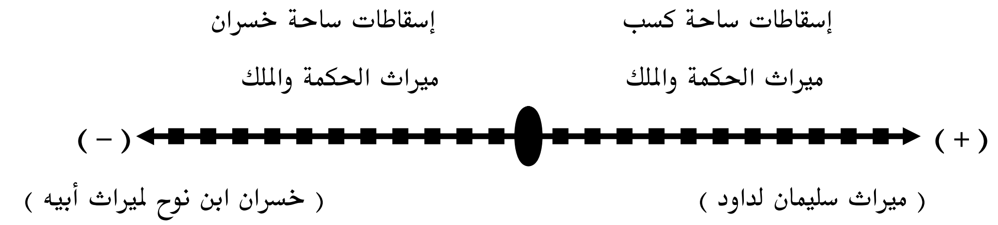

وفي مسألة شكر النعمة والجحود بها ، يُبيِّن لنا القرآن الكريم قمّتين متناقضتين تماماً ، بحيث يكون جميع البشر – بالنسبة لهذه المسألة – على درجات تقع بين هذين الوجهين ..

(**١**) **–** وجه الجحود وعدم الشكر والغرور بما يأتي الإنسان من الملك ، يُمثّله قارون الذي أُوتي من الكنوز الشيء الكثير ..

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ............ ﴾ [القصّص : ٧٦ – ٧٨]

(**٢**) **–** وجه الشكر على الملك ، والعمل بالملك وفق مقتضيات الشكر ، يُمثله سليمان عليه السّلام ، الذي أُوتي ملكاً لا يكون لأحد من بعده ..

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥]

وهذا الملك الكبير لم يُبعد سليمان عليه السَّلام عن العمل بمقتضيات الشكر ، ولم يُنسه فضل الله تعالى عليه ..

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النَّمل : ١٩]

﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النَّمل : ٤٠]

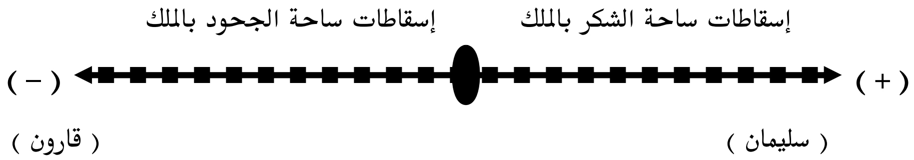

وكلّ نفسٍ بشريّة في كلّ زمان ومكان ، تحمل من هذين الرّمزين المتناقضين – بالنسبة لهذه المسألة – نسبتين ، تُحدّد محصلتها درجة النفس على هذا المحور ، بين هذين الوجهين المتناقضين ..

وفي مسألة مؤازرة الجندي العمياء لوليّه الظالم ، والتّمرُّد عليه ، يُبيّن لنا القرآن الكريم وجهين متناقضين تماماً ..

(١) – الوجه الأوّل ويمثّله هامان وجنود فرعون في مآزرهما لفرعون ..

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٣٨ – ٤٠]

(**٢**) – الوجه الثاني المناقض للوجه الأوّل يمثّله سحرة فرعون الذين آمنوا حينما علموا الحقيقة ..

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه : ٧٠ – ٧٣]

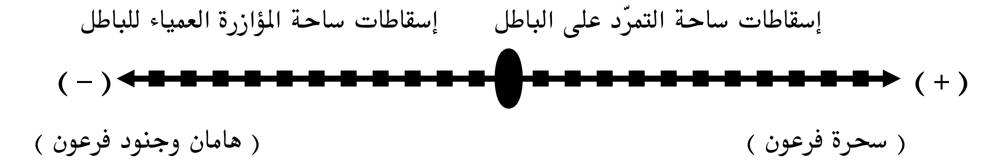

وجميع البشر في كلّ زمانٍ ومكانٍ موجودون – بالنسبة لهذه المسألة – بين هذين الوجهين وفق درجات تتعلّق بمعرفتهم للحقّ وتعلُّقهم به وعزيمتهم على نصرته ، وبحيث تحوي كلّ نفسٍ بشريّة نسبة من كلّ وجهٍ من هذين الوجهين ، تجعلها تقترب من إحدى القمّتين دون الأخرى ، وبالتالي تنتمي لإحدى الساحتين ..

وفي مسألة الإقبال إلى آيات الله تعالى والانسلاخ منها ، يُبيِّن لنا القرآن الكريم وجهين متناقضين تماماً ، هما رمزا نهايتي هذه المسألة ، بحيث يقع البشر في كلِّ زمانٍ ومكانٍ بينهما على درجات تتعلّق بإيمانهم وإخلاصهم للحق ونصرهم له ..

(**١**) – الوجه الأوّل تصوره لنا الصورة القرآنية التالية ..

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى

ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٠ – ٢٧]

(**٢**) – والوجه الثاني تصوِّره لنا الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ
ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ
فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦]

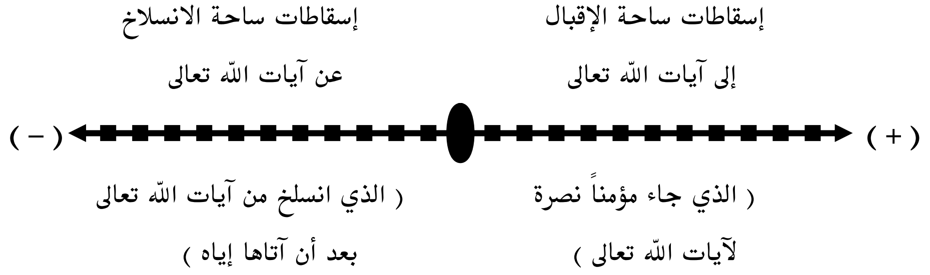

وهكذا نرى أنَّ القصص القرآنيّة ترسم لنا حدود المسائل رسماً يحيط بها من جميع أطرافها ، بحيث يقع البشر في كلِّ زمانٍ ومكان في أقوالهم وأفعالهم تحت ساحة إسقاطات هذه المسائل ، بنسبٍ هي دون الرموز التي ترمز لنهايات تلك المسائل ..

ولنقف عند الأسماء القرآنيّة المرتبطة بمسالة قمّة الرسالة والنبوّة والحكمة ، والتي ترمز لجوانب الحكمة المطلقة التي يصوّرها القرآن الكريم ، لنرى كيف أنَّ كلَّ اسمٍ من هذه الأسماء يرمز للونٍ وجانبٍ من الحكمة ، لا يمثّله أيُّ اسمٍ آخر لأيِّ شخصيّة أُخرى ، وأنّه بتكامل مواضيع هذه الأسماء تتكامل جوانب الحكمة المطلقة – عبر إسقاطات هذه الأسماء – في كلِّ زمانٍ ومكان ..

.. هذه هي الأسماء القرآنيّة التي ترمز وتمثّل جوانب مسألة الرسالة والنبوّة والحكمة ، مرتّبة ترتيباً تصاعديّاً حسب مجموع ورودها في القرآن الكريم ..

﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (١) مرّة واحدة ،، ﴿ أَحْمَدُ ﷺ ﴾ (١) مرّة واحدة ،، ﴿ إِدْرِيسَ ع ﴾ (٢) مرّتين ،، ﴿ ذَا الْكِفْلِ ﷺ ﴾ (٢) مرّتين ،، ﴿ إِلْيَاسَ ﴾ (٢) مرّتين ،، ﴿ الْيَسَعَ ﴾ (٢) مرّتين ،، ﴿ لُقْمَٰنَ ﴾ (٢) مرّتين ،، ﴿ أَيُّوبَ ﴾ (٤) مرّات ،، ﴿ يُونُسَ ﴾ (٤) مرّات ،، ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ (٤) مرّات ،، ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ (٥) مرّات ،، ﴿ هُودٌ ﴾ (٧) مرّات ،، ﴿ زَكَرِيَّآ ﴾ (٧) مرات ،، ﴿ صَٰلِحٌ ﴾ (٩) مرّات ،، ﴿ شُعَيْبٌ ﴾ (١١) مرّة ،، ﴿ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ (١٢) مرّة ،، ﴿ يَعْقُوبَ ﴾ (١٦) مرّة ،، ﴿ دَاوُۥدُ ﴾ (١٦) مرّة ،، ﴿ إِسْحَٰقَ ﴾ (١٧) مرّة ،، ﴿ سُلَيْمَٰنَ ﷺ ﴾ (١٧) مرّة ،، ﴿ هَٰرُونَ ﴾ (٢٠) مرّة ،، ﴿ ءَادَمَ ﴾ (٢٥) مرّة ،، ﴿ عِيسَىٰ ﴾ (٢٥) مرّة ،، ﴿ لُوطٍ ﴾ (٢٧) مرّة ،، ﴿ يُوسُفُ ﴾ (٢٧) مرّة ،، ﴿ نُوحٌ ﴾ (٤٣) مرّة ،، [﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ + ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾] (٦٩) مرّة ،، ﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ (١٣٦) مرّة ..

إذاً لدينا (٢٨) اسماً ، مجموع ورودها في القرآن الكريم هو (**٥١٣**) مرّة ..

ولو قمن بجمع عدد مرّات ورود جميع مشتقّات الجذر (ر ، س ، ل) في القرآن الكريم ، لرأينا أنَّ هذا المجموع هو أيضاً (٥١٣) مرّة .. فالرقم الذي يرتبط بمجموع ورود الأسماء القرآنيّة المتعلّقة بقمّة مسألة الرسالة والنبوّة والحكمة ، هو ذاته الرقم الذي يرتبط بمجموع ورود مشتقّات الجذر (ر ، س ، ل) في القرآن الكريم ، وقد رأينا هذه الحقيقة في النظريّة الأولى (المعجزة) ، حيث رأينا كيف أنَّ مجموع ورود الكلمات القرآنيّة ليس مصادفة ، وأنّه يختزل بشكلٍ مطلق ماهيّة المسائل المتعلّقة بهذه الكلمات ..

إذاً .. هذه الأسماء القرآنيّة تحيط بمسألة الرسالة والنبوّة والحكمة من كلِّ جوانبها ، وتكوّن أبجديّة الحكمة المطلقة في كلِّ زمانٍ ومكان .. فكلّ أوجه الحكمة والدعوة إلى الحقّ والخلاص لله تعالى في كلِّ زمانٍ ومكان ، هي إسقاطات لهذه الرموز ..

وسنتناول – إن شاء الله تعالى – مسألة تعداد ورود هذه الأسماء القرآنيّة ، من منظارٍ عددي ، لنرى كيف أنَّ هذه الأسماء ليست مجرّد أسماء ما لأشخاصٍ ما في أزمنة وأمكنة ما .. إنّها ترد في كتاب الله تعالى بشكلٍ شمولي يُحيط إحاطة مطلقة بمسألة الرسالة والنبوّة والحكمة ، ويرسم لوحة الحكمة المطلقة التي يحملها القرآن الكريم رسماً إعجازيّاً ، يستحيل على البشر الإحاطة بنهاية حدوده ..

ونحن لا نريد من تناول هذه المسألة منة المنظار العددي سوى البرهنة على أنَّ هذه الأسماء مرتّبة ومعدودة في القرآن الكريم ، وفق حكمة مطلقة فوق حدود الحدث القصصي التاريخي المحكوم بإطار المكان والزمان ، وأنَّ تفاعل المجتمعات والأنفس في كلِّ زمانٍ ومكان مع مسائل الحكمة المطلقة ، لا يخرج عن إسقاطات الأسماء القرآنيّة التي تصوّر جميع جوانب الحكمة المطلقة ، وما يواجهها من معارضة ..

يبيّن لنا القرآن الكريم أنَّ للعدد (١٩) خصوصيّة من حيث كونه دليلاً إعجازيّاً ، هو اختبارٌ للذين كفروا ، ويقينٌ للذين أُوتوا الكتاب ، ودليلٌ يزداد به المؤمنون إيماناً ، ومانع للارتياب ..

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدّثر : ٣٠ – ٣٧]

وقد بيّنت في النظريّة الخامسة : إحدى الكُبَر ، وفي النظريّة السادسة : سلّم الخلاص ، وفي كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ، أنَّ هناك معجزةً عدديّةً يحملها القرآن الكريم في كلِّ حرفٍ من حروفه ، تتعلّق بالعدد (١٩) ، وبيّنت من خلال مئات

الأمثلة وعبر أبجديّة قرآنيّة جديدة تُعرَض لأوّل مرّة في العالم ، أنَّ معجزة العدد (١٩) سبيلٌ يجب استثماره لبيان مصداقيّة نزول القرآن الكريم من عند الله تعالى ، ولفهم دلالاته عبر معيارٍ عدديٍّ لا يعرف الكذب والخداع ..

والباحث عن الحقيقة المتدبّر لكتاب الله تعالى ، لا تعنيه أبداً إساءة استعمال الحقيقة من قِبَل غيره وتأويلها وفق أهواءٍ تائهة ، ولا يمنعه ضلال بعض البشر في تأويل حقيقةٍ ما من النظر إلى هذه الحقيقة ، ولا يدفعه ذلك إلى إنكارها والإعراض عنها ..

فتقديس بعضهم للعدد (١٩) لا يحملنا على معاداة هذه العدد ، ولا يدفعنا لإنكار حقائق قرآنيّة لا ينكرها إلاّ كلّ جاهلٍ أحمق .. بل يدفعنا إلى البحث عن هذه الحقيقة ، وإلى البرهنة على بطلان التأويلات الفاسدة التي أُلحقت بها ..

فها اعتبار بعضهم أنّ عيسى عليه السلام إلهاً ، يدفعنا إلى معاداة عيسى عليه السلام ، وإلى إنكار كونه رسولاً من عند الله تعالى ، وإلى الجحود بما يحمله القرآن الكريم من حقائق تبيّن حقيقته وحقيقة ما جاء به ؟!!! ..

إنَّ من يُغمض عينيه عن أيِّ حجّة قرآنيّة ، وعن أيِّ دليلٍ إعجازيٍّ في كتاب الله تعالى – مهما أُسيء استعمال هذه الحجّة وهذا الدليل – لا حجّة له ، وهو جاهل أحمق ، يجعل من جهله وحماقته جداراً بينه وبين كتاب الله تعالى ..

والذين لا يملكون عقولاً يقودون وينقادون من خلالها ، ويحسبون عمق ما يحمله كتاب الله تعالى من أدلّةٍ ومعجزات بطول أنوفهم ، ويحسبون أنَّ ساحة المعاني والأدلّة والبراهين التي تحملها كلمات الله تعالى تُحيط بها ثيابهم وثياب مشايخهم ، وأنَّها بحدود عدد انواع الأطعمة على موائدهم ، والذين لا يملكون إلاّ اتّهام الباحثين عن الحقائق باتّهامات لا يفقهون حتى معانيها ... أقول لهم إنَّ تناولنا لهذه المسالة في بحثنا هذا ، لا يعني إلاّ إظهار حقائق موجودة أصلاً في كتاب الله تعالى ، كان من المفروض اكتشافها منذ قرون عديدة .. ولا يعنينا لا من قريب ولا من بعيد أيّ تأويل فاسد يُخالف مُراد النصّ القرآني .. ولسنا مستعدّين لإنكار حقائق يحملها القرآن الكريم وللإعراض عنها ، وذلك لإرضاء من لا يرضى إلاّ بقتل العقل ، وانصياعِ الآخرين لأهوائه وتصوّراته ..

إنَّ العدد (٥١٣) الذي يمثّل – في الوقت ذاته – مجموع ورود مسالتين متناظرتين تماماً ، هما مجموع ورود مشتقّات الجذر (ر ، س ، ل) في القرآن الكريم ، ومجموع ورود أسماء الشخصيّات القرآنيّة التي تمثّل قمّة مسألة الرسالة والنبوّة .. هذا العدد (**٥١٣**) ، هو من مُضاعفاتِ العدد (**١٩**) :

٢٧ × ١٩ = ٥١٣

..... فالعدد (**٥١٣**) هو جِداء العددين : (**١٩**) ، (**٢٧**) ..... لو جمعنا الآن الأرقامَ التي تُكوِّنُ هذين العددين ، لوجدنا أنَّ الناتجَ هو العدد (**١٩**) :

١٩ ===== ٩ + ١ = ١٠

٢٧ ===== ٧ + ٢ = ٩

١٠ + ٩ = **١٩**

.. ولو حلّلنا العدد (**٥١٣**) إلى عواملِهِ الأوّليّة ، لرأينا أنّه جِداءُ أربعةِ أعدادٍ هي : ٣ × ٣ × ٣ × ١٩ ..... ولو قمنا بِجمعِ هذه الأعداد ، لحصلنا على العدد (**١٩**) : ٣ + ٣ + ٣ + ٩ + ١ = **١٩** ..

ولو أخذنا المعادلة : ٥١٣ = ١٩ × ٢٧ ، وقمنا بجمع أرقام أعدادها لحصلنا على العدد (٢٨) ، الذي هو – كما رأينا – عدد الأسماء المرتبطة بمسألة الرسالة والنبوّة والحكمة ..

٥١٣ ===== ٣ + ١ + ٥ = ٩

١٩ ===== ٩ + ١ = ١٠

٢٧ ===== ٧ + ٢ = ٩

٩ + ١٠ + ٩ = **٢٨**

ولو قمنا بجمع عدد مرّات ورود الأسماء القرآنيّة الممثّلة لقمّة مسألة الرسالة والنبوّة التي رأيناها ، حسب تسلسل عدد ورودها في القرآن الكريم ، دون اسم الرسول [**﴿ مُحَمَّدٌ ﴾** ، **﴿ أَحْمَدُ ﴾**] من جهة ، وابتداءً من اسمه [**﴿ مُحَمَّدٌ ﴾** ، **﴿ أَحْمَدُ ﴾**] من جهة أُخرى

، لرأينا أنَّ كلَّ جمعٍ من هذين الجمعين يحيط به الوجه الإعجازي ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي من مضاعفات العدد (١٩) ..

﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (١) + ﴿ إِدْرِيسَ ﴾ (٢) + ﴿ ذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ (٢) + ﴿ إِلْيَاسَ ﴾ (٢) + ﴿ ٱلْيَسَعَ ﴾ (٢) + ﴿ لُقْمَـٰنَ ﴾ (٢) + ﴿ أَيُّوبَ ﴾ (٤) + ﴿ يُونُسَ ﴾ (٤) = **١٩ = ١٩ × ١**

﴿ أَحْمَدُ ﴾ (١) + ﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ (٤) + ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ (٥) + ﴿ هُودٌ ﴾ (٧) + ﴿ زَكَرِيَّآ ﴾ (٧) + ﴿ صَـٰلِحٌ ﴾ (٩) + ﴿ شُعَيْبٌ ﴾ (١١) + ﴿ إِسْمَـٰعِيلَ ﴾ (١٢) + ﴿ يَعْقُوبَ ﴾ (١٦) + ﴿ دَاوُۥدُ ﴾ (١٦) + ﴿ إِسْحَـٰقَ ﴾ (١٧) + ﴿ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ (١٧) + ﴿ هَـٰرُونَ ﴾ (٢٠) + ﴿ ءَادَمَ ﴾ (٢٥) + ﴿ عِيسَىٰ ﴾ (٢٥) + ﴿ لُوطٍ ﴾ (٢٧) + ﴿ يُوسُفُ ﴾ (٢٧) + ﴿ نُوحٌ ﴾ (٤٣) + [﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ + ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾] (٦٩) + ﴿ مُوسَىٰٓ ﴾ (١٣٦) = **٤٩٤**

٤٩٤ = ١٩ × ٢٦

ولو قمنا بترتيب الأسماء القرآنيّة الممثّلة لقمّة مسألة الرسالة والنبوّة ، حسب ترتيب بداية ورودها في القرآن الكريم ، وقمن بأخذ جداء ترتيب بداية ورود كلّ اسم من هذه الأسماء مع عدد وروده في القرآن الكريم ، وقمنا بجمع الناتج جمعاً تراكمياً ، لحصلنا على الجدول التالي ..

إذاً .. في الجدول التالي .. العمودُ الأوَّلُ رُتِّبَتْ فيهِ أسماءُ الأنبياءِ والمُرسلين عليهم السلام ، حَسْبَ أسبقيّةِ بِدايةِ وُرودِهم في القرآنِ الكريم ، حيثُ يشمَلُ العمودُ الثاني من هذا الجدولِ ترتيبَ بِدايةِ الورود في القرآنِ الكريم ، ويشملُ العمودُ الرابعُ اسمَ السورةِ ورقمَ الآية التي تحتوي بِدايةَ وُرودِ الاسم .. ويشملُ العمودُ الثالثُ عَددَ مرّاتِ ورودِ

الاسمِ في القرآنِ الكريم .. وفي العمودِ الخامس جِداءُ ترتيبِ بدايةِ الورودِ في عددِ مـــرّاتِ الورود .. وفي العمودِ السادِس الجمعُ التراكمي لِنتائجِ العمودِ الخامِس .. هذه المُقــدِّماتُ كُلُّها قُرآنيَّةٌ ..

الاسم	ترتيب بداية وروده في القرآن الكريم	عدد مرّات وروده في القرآن الكريم	بداية وروده في القرآن الكريم	جداء ترتيب بداية الورود بعدد مرّات الورود	الجمع التراكمي
آدم	١	٢٥	البقرة : ٣١	١×٢٥=٢٥	٢٥
موسى	٢	١٣٦	البقرة : ٥١	٢×١٣٦=٢٧٢	٢٩٧
عيسى	٣	٢٥	البقرة : ٨٧	٣×٢٥=٧٥	٣٧٢
سليمان	٤	١٧	البقرة : ١٠٢	٤×١٧=٦٨	٤٤٠
إبراهيم	٥	٦٩	البقرة : ١٢٤	٥×٦٩=٣٤٥	٧٨٥
إسماعيل	٦	١٢	البقرة : ١٢٥	٦×١٢=٧٢	٨٥٧
يعقوب	٧	١٦	البقرة : ١٣٢	٧×١٦=١١٢	٩٦٩
إسحاق	٨	١٧	البقرة : ١٣٣	٨×١٧=١٣٦	١١٠٥
هارون	٩	٢٠	البقرة : ٢٤٨	٩×٢٠=١٨٠	١٢٨٥

داود	١٠	١٦	البقرة : ٢٥١	١٠×١٦=١٦٠	١٤٤٥
نوح	١١	٤٣	آل عمران : ٣٣	١١×٤٣=٤٧٣	١٩١٨
زكريا	١٢	٧	آل عمران : ٣٧	١٢×٧=٨٤	٢٠٠٢
يحيى	١٣	٥	آل عمران : ٣٩	١٣×٥=٦٥	٢٠٦٧
محمد	١٤	٤	آل عمـــــــران : ١٤٤	١٤×٤=٥٦	٢١٢٣
أيوب	١٥	٤	النساء : ١٦٣	١٥×٤=٦٠	٢١٨٣
يونس	١٦	٤	النساء : ١٦٣	١٦×٤=٦٤	٢٢٤٧
يوسف	١٧	٢٧	الأنعام : ٨٤	١٧×٢٧=٤٥٩	٢٧٠٦
إلياس	١٨	٢	الأنعام : ٨٥	١٨×٢=٣٦	٢٧٤٢
اليسع	١٩	٢	الأنعام : ٨٦	١٩×٢=٣٨	٢٧٨٠
لوط	٢٠	٢٧	الأنعام : ٨٦	٢٠×٢٧=٥٤٠	٣٣٢٠
هود	٢١	٧	الأعراف : ٦٥	٢١×٧=١٤٧	٣٤٦٧
صالح	٢٢	٩	الأعراف : ٧٣	٢٢×٩=١٩٨	٣٦٦٥
شعيب	٢٣	١١	الأعراف	٢٣×١١=٢٥٣	٣٩١٨

			: ٨٥		
إدريس	٢٤	٢	مـــريم : ٥٦	٤٨=٢×٢٤	٣٩٦٦
ذا الكفل	٢٥	٢	الأنبياء : ٨٥	٥٠=٢×٢٥	٤٠١٦
لقمان	٢٦	٢	لقمان : ١٢	٥٢=٢×٢٦	٤٠٦٨
إل ياسين	٢٧	١	الصافات : ١٣٠	٢٧=١×٢٧	٤٠٩٥
أحمد	٢٨	١	الصف : ٦	٢٨=١×٢٨	**٤١٢٣**

.. إنّنا نرى أنّ المجموعَ التراكميَّ هو العددُ : **٤١٢٣** ، وهو من مضاعفات العدد (١٩) : **٤١٢٣ = ١٩ × ٢١٧** ..

.. ونرى أيضاً أنّ هناكَ تَوازُناً بينَ ترتيب بِدايةِ ورودِ هذه الأسماء ، وبينَ عددِ مرّات ورودِها .... هذا التوازنُ نراهُ بينَ مجموعِ عددِ مرّاتِ ورودِ الأسماءِ ذاتِ الترتيبِ الفرديِّ في هذا الجدولِ ، وبينَ مجموعِ عددِ مرّاتِ ورودِ الأسماءِ ذاتِ الترتيبِ الزوجيِّ فيه ..

.. فمجموعُ ورودِ الأسماءِ ذاتِ الترتيبِ الفرديِّ هو :

٢٥+ ٢٥+٦٩+١٦+٢٠+٤٣+٥+٤+٢٧+٢+٧+١١+٢+١ = **٢٥٧**

ومجموعُ ورودِ الأسماءِ ذاتِ الترتيبِ الزوجيِّ قريبٌ جداً من هذا الرقم ، وهو :

١٣٦+١٧+١٢+١٧+١٦+٧+٤+٤+٢+٢٧+٩+٢+٢+١ = **٢٥٦**

... ولو قُمنا بجمعِ أرقامِ المجموعَين الفرديِّ والزوجي ، وضربنا الناتِجَ بالعددِ (١٩) ، لحصلنا على عددِ مرّاتِ ورودِ هذه الأسماءِ في القرآنِ الكريم ..

٢٥٧ ===== ٧ + ٥ + ٢ = ١٤

٢٥٦ ===== ٦ + ٥ + ٢ = ١٣

١٤ + ١٣ = ٢٧

٢٧ × ١٩ = ٥١٣

.. ولو قُمنا بجمع أسماءِ الأنبياءِ والمرسلين الواردين في النصِّ القرآنيِّ التـالي ، الـذي يُصَوِّرُ مسألةً كاملةً ، هي اصطفاءُ الدينِ ، والوصيّةُ بعبادةِ الله تعالى ، لرأينا المجموعَ أيضاً مسألةً كاملةً ، أي من المضاعفاتِ التامّة للعددِ (**١٩**) دونَ زيادة أو نقصان ..

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢ – ١٣٣]

إبراهيم (٦٩) + يعقوب (١٦) + إسماعيل (١٢) + إســحاق (١٧) = **١١٤ = ١٩ × ٦**

.. ولننظر إلى الآيةِ الكريمةِ التاليةِ التي تُصوِّرُ مَسألةً كاملة ، ولننظر إلى اكتمالِ مجموعِ ورودِ الأسماءِ الواردةِ فيها ، أي إلى كونهِ من المضاعفاتِ التامّةِ للعدد (**١٩**) دون زيادة أو نقصان ..

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣]

نوح (٤٣) + إبراهيم (٦٩) + إسماعيل (١٢) + إسحاق (١٧) + يعقوب (١٦) + الأسباط (٤) + عيسى (٢٥) + أيوب (٤) + يونس (٤) + هــارون (٢٠) + سليمان (١٧) + داود (١٦) = **٢٤٧ = ١٩ × ١٣**

.. ولننظر إلى الآيات الكريمة التي تُصوِّرُ ما وَهَبَهُ اللهُ تعالى لإبراهيمَ عليه السلام ، وما يتعلّقُ بذلك ..

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤ – ٨٦]

إسحاق (١٧) + يعقوب (١٦) + نوح (٤٣) + داود (١٦) + سليمان (١٧) + أيوب (٤) + يوسف (٢٧) + موسى (١٣٦) + هارون (٢٠) + زكريا (٧) + يحيى (٥) + عيسى (٢٥) + إلياس (٢) + إسماعيل (١٢) + اليسع (٢) + يونس (٤) + لوط (٢٧) = **٢٠ × ١٩ = ٣٨٠**

.. وفي الآيةِ الأُولى من هذا النصِّ نرى ثلاثةَ أسماءَ تقترنُ بمسألةِ الهداية : ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ** ﴾ .. ولذلك نرى أنّ مجموعَ ورودِ هذه الأسماءِ في القرآنِ الكريمِ يُكوِّنُ مسألةً كاملة ..

إسحاق (١٧) + يعقوب (١٦) + نوح (٤٣) = **٧٦ = ١٩ × ٤**

.. لو نظرنا في كتابِ اللهِ تعالى إلى الأسماءِ القرآنيّةِ المُتعلِّقَةِ بكلمة ﴿ **ءَال** ﴾ لوجدناها الأسماءَ التالية : فِرعون ، موسى ، هارون ، إبراهيم ، عِمران ، يعقوب ، لوط ، داود ..

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٠]

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾
[آل عمران : ٣٣]

﴿ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ﴾ [يوسف : ٦]

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦]

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣]

.. ولو قمنا بجمعِ عددِ مرّاتِ ورودِ أسماءِ هذه المسألةِ الكاملةِ في القرآنِ الكريم ، لحصلنا على قيمةٍ عدديّةٍ هي مسألةٌ كاملة ، أي من المضاعفاتِ التامّةِ للعدد (**١٩**) دونَ زيادةٍ أو نقصان ..

فِرعون (٧٤) + موسى (١٣٦) + هارون (٢٠) + إبراهيم (٦٩) + عمران (٣) + يعقوب (١٦) + لوط (٢٧) + داود (١٦) = **٣٦١ = ١٩ × ١٩**

.. ولو أخذنا مسألةَ اصطفاءِ الأشخاصِ في القرآنِ الكريم ، لرأينا أنّ الآياتِ الكريمةَ التاليةَ هي التي تُحدِّدُ لنا الأسماءَ المُقترنةَ بهذهِ المسألة ..

﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠]

﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٤٧]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾
[آل عمران : ٣٣]

﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤]

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ – ٤٧]

وبجمعِ عددِ مرّات ورود هذه الأسماء في القرآن الكريم ، نرى انعكاس هذا التكاملِ في كونِ هذا المجموعِ من المضاعفاتِ تامّة للعدد (**١٩**) دون زيادة أو نقصان ..

إبراهيم (٦٩) + طالوت (٢) + آدم (٢٥) + نوح (٤٣) + مريم (٣٤) + موسى (١٣٦) + إسحاق (١٧) + يعقوب (١٦) = **٣٤٢ = ١٩ × ١٨**

.. ولو أخذنا الأسماءَ القرآنيّةَ التي وُهِبَ لها أشخاص ، لوجدناها الأسماءَ التالية :

.. **إبراهيم** عليه السلام ، حيث وُهِبَ له إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوب ..

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩]

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٢]

.. **موسى** عليه السلام ، ووُهِبَ له هارونُ عليه السلام نبيّاً ..

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣]

.. **داود** عليه السلام ، ووُهِبَ له سليمانُ عليه السلام ..

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠]

.. **أيوب** عليه السلام ، ووُهب له أهلُه ..

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٤٣]

.. **زكريا** عليه السلام ، ووُهِبَ له يحيى عليه السلام ..

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ ﴾ [الأنبياء : ٩٠]

.. **مَريم** عليها السلام ، ووُهبَ لها عيسى عليه السلام ..

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩]

.. وبجمعِ عددِ مرّاتِ ورودِ هذه الأسماءِ التي تُكوِّنُ مسألةً كاملةً في القرآنِ الكريم ، نرى المجموعَ عدداً من المضاعفاتِ التامّةِ للعددِ (**١٩**) دونَ زيادةٍ أو نقصان ..

إبراهيم (٦٩) + موسى (١٣٦) + داود (١٦) + أيوب (٤) + زكريا (٧) + مريم (٣٤) = **٢٦٦ = ١٩ × ١٤**

.. ولو أخذنا الأسماءَ القرآنيّةَ المُرتبطةَ بمسألةِ الرسالةِ والنُّبوّة ، والتي لأصحابِها تعلُّقٌ بنسائهم في القرآنِ الكريم ، وقُمنا بِجمعِ عددِ مرّات ورودها في القرآن الكريم ، لوجدناه من المضاعفات التامّة للعدد (**١٩**) دونَ زيادة أو نقصان ..

١ – آدم عليه السلام .. **﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾** [البقرة : ٣٥]

٢ – إبراهيم عليه السلام .. **﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾** [هود : ٧١]

٣ – زكريا عليه السلام .. ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾ [مريم : ٨]

٤ – ٥ – نوح وَ **لوط** عليهما السلام .. ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٍ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا** ﴾ [التحريم : ١٠]

آدم (٢٥) + إبراهيم (٦٩) + زكريا (٧) + نوح (٤٣) + لوط (٢٧) = **١٧١ = ١٩ × ٩**

.. ولو أخذنا من هذه المسألةِ الكاملةِ ، الأسماءَ التي أزلّ الشيطانُ نساءَهُم ، لوجدنا مسألةً كاملةً ، يُصدّقُ تكامُلها مجموعُ ورودِها في القرآن الكريم ..

آدم (٢٥) + نوح (٤٣) + لوط (٢٧) = **٩٥ = ١٩ × ٥**

ولو أخذنا مسألة الإنجاب في الكِبَر بعد فوات الأوان ، وتبشير الملائكة بذلك ، لرأينا أنَّ إبراهيم وزكريا عليهما السلام ، يمثّلان هذه المسألة .. وهما ذاتهما الاسمان المتعلّقان بمسالة قمّة الرسالة والنبوّة والحكمة ، واللذان نجت زوجتاهما من زلل الشيطان ، من بين الأسماء في المسألة السابقة ..

﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ** ﴾ [هود : ٧١ – ٧٢]

﴿ **يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾ [مريم : ٧ – ٨]

وبجمع عدد مرّات ورود هذين الاسمين في القرآن الكريم ، نرى أنَّ المجموع مرتبطٌ بالوجه الإعجازي ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ ..

إبراهيم (٦٩) + زكريا (٧) = **٧٦**

٧٦ = ١٩ × ٤

ولو أخذنا الأسماء القرآنيّة المرتبطة بقمّة مسألة الرسالة والنبوّة ، والتي ذُكر لها في القرآن الكريم أبناءٌ تلقّوا الهداية والحكمة من آبائهم (أصحاب هذه الأسماء) ، وتفاعلوا مع هذه الحكمة إيجابيّاً لوجدناهم ..

- آدم عليه السلام ، وذُكر له ابنٌ صالحٌ هو الذي أبى قتل أخيه على الرغم من إصرار أخيه على قتله ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨]
- إبراهيم عليه السلام ، وذُكر له ابنان هما إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ..
- إسحاق عليه السلام ، وذُكر له ابنٌ هو يعقوب عليه السلام ..
- يعقوب عليه السلام ، وذُكر له ابنٌ هو يوسف عليه السلام ..
- داود عليه السلام ، وذُكر له ابنٌ هو سليمان عليه السلام ..
- زكريا عليه السلام ، وذُكر له ابنٌ هو يحيى عليه السلام ..
- لقمان عليه السلام ، وذُكر له ابنٌ هو الذي يُوجّه له الحكمة والموعظة ، حيث يُذكر ذلك في القرآن الكريم ..

وبجمع عدد مرّات ورود هذه الأسماء في القرآن الكريم ، نرى أنَّ المجموع مرتبطٌ بالوجه الإعجازي ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ ..

آدم (٢٥) + إبراهيم (٦٩) + إسحاق (١٧) + يعقوب (١٦) + داود (١٦) + زكريا (٧) + لقمان (٢) = **١٥٢**

١٥٢ = ١٩ × ٨

ولو أخذنا مسألة إنقاذ بني إسرائيل من الهلاك على يد عدوّهم ، لرأينا حادثين مميّزين ..

هلاك فرعون وجنوده وإنقاذ بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ..

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٧ – ٧٨]

هلاك جالوت وجنوده ، وقتل جالوت على يد داود عليه السلام ..

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة : ٢٥١]

وبجمع عدد مرّات ورود اسمي : [موسى ، داود] في القرآن الكريم ، نرى أنَّ هذا المجموع مرتبطٌ بالوجه الإعجازي **﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾** ..

موسى (١٣٦) + داود (١٦) = **١٥٢**

١٥٢ = ١٩ × ٨

ولو أخذنا مسألة عدد سنوات اللبث – بالنسبة للرسل عليهم السلام – لرأينا أنَّ القرآن الكريم يذكر لنا فقط عدد سنوات لبث نوح عليه السلام ..

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤]

وقد رأينا في النظريّة الأولى (المعجزة) كيف أنَّ هذه المدّة – وهي (٩٥٠) سنة – توافق تماماً مجموع الحروف المرسومة في سورة نوح عليه السلام ، والتي تبلغ (٩٥٠) حرفاً ، وذلك وفق مبدأ عدّ الحروف المرسومة في كتاب الله تعالى ، والذي بيّناه في كتب

: النظريّة الأولى (المعجزة) ، النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) ، كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ..

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ = ٥١ حرفاً

قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ = ٢١ حرفاً

أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ = ٢٥ حرفاً

يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ = ٦٥ حرفاً

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا = ٢٦ حرفاً

فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا = ٢١ حرفاً

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا = ٧٨ حرفاً

ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا = ١٦ حرفاً

ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا = ٢٨ حرفاً

فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا = ٢٧ حرفاً

يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا = ٢١ حرفاً

وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا = ٤١ حرفاً

مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا = ٢٠ حرفاً

وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا = ١٤ حرفاً

أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا = ٢٩ حرفاً

وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا = ٣١ حرفاً

وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا = ٢٣ حرفاً

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا = ٢٥ حرفاً

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا = ٢١ حرفاً

لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا = ٢٠ حرفاً

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا = ٤٩ حرفاً

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا = ١٥ حرفاً

وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا = ٥٣ حرفاً

وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا = ٣٣ حرفاً

مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا = ٥٢ حرفاً

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا = ٣٦ حرفاً

إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا = ٤١ حرفاً

رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا = ٦٨ حرفاً ﴾

.. فالمجموع إذاً هو (**٩٥٠**) **حرفاً مرسوماً** ، كلُّ حرفٍ يقابلُ وِحدةً زمنيّةً من مُدّةِ لَبْثِه عليه السلام ..

ونحن لا نريد الإطالة ، فالأمثلة كثيرة ، ومثال واحد يُغني أولي الألباب الذين يعتقدون صدقاً – لا مجرّد قول – أنَّ القرآن الكريم يتعلّق بصفات الله تعالى ، وأنَّ القرآن

الكريم بكلِّ حرفٍ وكلمةٍ وجملةٍ ونصٍّ ينبض بالحكمة المطلقة التي لا يحيط بحدودها إلاّ الله تعالى ..

إنَّ ما نريد قولَه هو أنَّ الأسماء القرآنيّة المتعلّقة بمسألة الرسالة والنبوّة والحكمة ، تُمثّل ألوان لوحة الحكمة المطلقة التي يحملها القرآن الكريم ، وبتمازج هذه الألوان تُرسَم لوحة كلِّ مسألة من مسائل الحكمة المطلقة في كلِّ زمانٍ ومكان ..

فلو عدنا إلى هذه الأسماء ، ونظرنا في عدد مرّات ورود كلِّ اسم منها في القرآن الكريم ، لرأينا أنّه لا يُوجَد اسمٌ واحدٌ يرد في القرآن الكريم بمجموعٍ مرتبطٍ بالوجه الإعجازي ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ ، لأنَّ كلَّ اسمٍ يُمثّل جانباً ولوناً خاصّاً يحتاج لغيره من الأسماء في رسم صور مسائل الحكمة المطلقة المجرّدة عن التاريخ والزمان والمكان ..

ونحن لا نقول إنَّ هذه الأسماء لا ترتبط إلاّ بالوجه الإعجازي ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ .. لقد نظرنا إلى عدد مرّات ورود هذه الأسماء من هذا المنظار بالنسبة لبعض المسائل ، للبرهنة على أنَّ هذه الأسماء ترد في القرآن الكريم بشكلٍ مطلقٍ يُمثّلُ تمثيلاً مطلقاً جوانب الحكمة المطلقة وألوانها ، والتي يحملها القرآن الكريم ، وتكوّن أبجديّة الحكمة والهداية في كلّ زمانٍ ومكان ..

ولّما كانت الأسماء القرآنيّة هي أبجديّة صور الحكمة والهداية ، وما يعارضها من باطلٍ وضلال ، وهي رموز الحقّ والباطل في كلِّ زمانٍ ومكان ، فمن الطبيعي أن تُحيط الحكمة المطلقة بعدد مرّات ورود كلِّ اسمٍ من هذه الأسماء في القرآن الكريم ، وليس من العبث تساوي عدد مرّات ورود بعض الأسماء القرآنيّة ..

لو نظرنا إلى آدم وعيسى عليهما السلام من منظار القرآن الكريم ، لرأينا بينهما تماثلاً كبيراً ، يضربه الله تعالى مثلاً ..

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩]

فبالإضافة إلى أنَّ كلاً منهما أتى إلى الدنيا بطريقة تختلف عن باقي البشر ، نرى أنَّ كلاً منهما نُفخ فيه من روح الله تعالى ، حيثُ ذُكِرَ ذلك في القرآنِ الكريم .. وبينهما

تقابلٌ في مسألةِ الهُبوط والرَّفْعِ ، فَفِي حين هبطَ آدمُ عليه السلام من جنّةِ الاختبار ، رفــعَ اللهُ تعالى عيسى إليه .. وفي حين أنَّ آدم عليه السلام حصل بينه وبين الله تعالى حوار — في القرآن الكريم — خارج عالم الدنيا هذه ، أي في جنّة الاختبار قبل هبوطه ، نرى انَّ عيسى عليه السلام سيحصل بينه وبين الله تعالى حوارٌ خارج عالم الدنيا هذه ، وذلك في الآخرة ، كما يصوّر لنا القرآن الكريم ..

وهذا التماثل بين آدم وعيسى عليهما الســلام ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ ينعكس تماثلاً في مجموع ورود كلِّ اسمٍ من هذين الاسمين في كتاب الله تعالى .. .. فاسمُ آدمَ يردُ في القرآنِ الكريم (**٢٥**) مرّة ، واسمُ عيسى يرد في القرآنِ الكريم أيضاً (**٢٥**) مرّة ..

.. ونرى تَماثلاً بين حياةِ لوطٍ عليه السلام ، وحياةِ يوسفَ عليه السلام ، وبالتالي تَماثُلاً في مجموعِ ورودِ اسميهما في القرآنِ الكريم .. فهما يرمزان للونين متناظرين في لوحة الحكمة المطلقة التي يصوّرها لنا القرآن الكريم ..

.. ففي حين أُرسِلَ لوطٌ عليه السلام إلى قومِهِ ، لِعلاجِ مسألةٍ تتعلّقُ بالطهارةِ والعفّة

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٤ – ٥٦]

مَثَّلَ يوسفُ عليه السلام وجهَ الطهارةِ والعِفّةِ ، بابتعادهِ عن الفاحشةِ التي عُرِضَتْ عليه ..

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣]

.. وفي حين أنّ امرأةَ العزيزِ تَعرِضُ نفسَها على يوسفَ عليه السلام ، نرى أنّ لوطاً يَعرِضُ بناتِه لتفادي الخِزيِ في ضيفِه ..

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ [هود : ٧٨]

.. وفي حين أن يوسفَ عليه السلام عاشَ غريباً في أرضٍ غريبة ، فإنّ لُوطاً عليه السلام كان غريباً في قومِهِ ، فلم يؤْمنُ له أحدٌ سوى أهلِ بيتِه عدا امرأته ..

.. وفي حين أنّ لوطاً عليه السلام تمّتْ نجاتُه إلى الأرضِ المباركة ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١] .. نرى أنّ يوسُفَ عليه السلام تمَّ بيعُهُ وتهريبُهُ من الأرضِ المباركة ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٠ – ٢١] ..

وفي حين أنَّ لوطاً عليه السلام خرج من القرية التي كان فيها هو وأهله بيته (ما عدا امرأته) .. ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ – ٣٦] .. نرى أنَّ يوسف عليه السلام اخذ أهله غليه ، وبالتالي خرج هو وأهله من القرية التي كان فيها ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] ..

وفي حين أنَّ لوطاً عليه السلام خانته زوجته ، نرى أنَّ يوسف عليه السلام خانوه أخوته ..

.. وفي حين أنَّ لوطاً عليه السلام أُوتِيَ الحُكْمَ والعِلْمَ ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٤] ، نرى أنّ يوسفَ عليه السلام أُوتِيَ الحُكْمَ والعِلْم ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف : ٢٢] ..

.. والتناظرُ بينهما ساحتُه واسعة .. ولكنْ .. ما نريد تبيانه هو أنّ هذا التماثلَ بينهما ، ينعكِسُ تَماثُلاً في مجموعِ ورودِ اسميهما في كِتابِ اللهِ تعالى ، فَكُلُّ اسمٍ مِنهما يَرِدُ (**٢٧**) مرّة ..

وفي قصّتي أيّوب ويونس عليهما السلام ، نرى تناظراً للونين متناظرين في لوحة الحكمة المطلقة التي يرسمها القرآن الكريم .. فكلٌّ منهما تعرّض بنفسه وجسده لاختبارٍ صعب يضعه على عتبة الهلاك ، وكلٌّ منهما نادى ربّه بأن يكشف عنه هذا الضرَّ والغم ، وكلٌّ منهما اُستجيب له فَكُشِفَ ما به من ضُرٍّ وتمّت نجاته من الغمّ الذي أصابه ..

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ – ٨٤]

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ – ٨٨]

ويشير القرآن الكريم إلى التناظر بين هذين اللونين من ألوان لوحة الحكمة المطلقة التي يرسمها ، عبر التماثل بين مجموعي ورود هذين الاسمين في القرآن الكريم ، فكلٌّ منهما يرد (**٤**) مرّات ..

ويحمل القرآن الكريم تناظراً في عدد مرّات ورود اسمي إسحاق وسليمان ، فكلٌّ منهما يرد (١٧) مرّة .. وتناظراً في عدد مرّات ورود اسمي هود وزكريا ، فكلٌّ منهما يرد (٧) مرّات .. وتناظراً في عدد مرّات ورود الأسماء : إدريس ، ذو الكفل ، لقمان ، إلياس ، اليسع .. فكلٌّ منها يرد مرّتين ..

وكلُّ ذلك ليس مجرّد مصادفة ، إنّما لحكمة مطلقة تحيط بدور الرمز الذي يشير إليه كلُّ اسم من هذه الأسماء في رسم صورة الحكمة المطلقة التي تجسّدها هذه الأسماء .. فكما هي أحرف الأبجديّة تتكرَّر في الكلمات وفق ترتيبٍ وعددٍ يرتبط بماهيّة المعاني التي تحملها هذه الكلمات ، وكما هي الألوان تُوجَد بنسبٍ تتعلّق بماهيّة اللوحة التي تجسّدها هذه الألوان ، كذلك هي الأسماء القرآنيّة ترد في القرآن الكريم ، وفق ترتيبٍ وعددٍ يرتبط بماهيّة الحكمة المطلقة التي تجسّدها هذه الأسماء ..

فعلى سبيل المثال .. نحن نعلم أنَّ إبراهيم عليه السلام ومحمّد ﷺ ، يمثّلان لون الأميّة ، وعدم الشرك بالله تعالى ، على الرغم من وجودهما في مجتمعين وثنيّين ، ويمثّلان الحفاظ على الفطرة النقيّة ومعرفة الله تعالى دون سابق إرث سماوي ، وذلك في لوحة الحكمة المطلقة التي ترسمها هذه الأسماء (إبراهيم ، محمّد ، أحمد) ..

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠]

ولذلك فأولى السماء القرآنيّة بإبراهيم عليه السلام ، هما اسما : محمّد ، أحمد ..

﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [آل عمران : ٦٨]

... وفرعون يمثّل نقيض ذلك تماماً ، فقمّة الابتعاد عن الفطرة النقيّة الطاهرة ، هي إدّعاء الإلوهيّة ..

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص : ٣٨]

هذا التناظر نراه منعكساً في عدد مرّات ورود هذه الأسماء القرآنيّة ، فمجموع ورود الأسماء (إبراهيم ، محمّد ، أحمد) يساوي تماماً مجموع ورود اسم فرعون ..

إبراهيم (٦٩) + محمّد (٤) + أحمد (١) = **٧٤** مرّة

فرعون = **٧٤** مرّة

... وهنا – أيضاً – لا نريد الإطالة ، فالهدف من عرضنا هذا هو البرهنة على أنّ الأسماء القرآنيّة هي رموز الحقّ والباطل ، وأبجديّة الحكمة المطلقة وألوانها المختلفة في كلّ زمانٍ ومكان ، وأنّ الأسماء القرآنيّة وما يحيط بها من أحداث ، ترسم بإسقاطاتها صور الحكمة المطلقة في الماضي والحاضر والمستقبل بشكلٍ مجرّدٍ عن التاريخ والزمان والمكان ..

فكلّ مجتمع في كلّ زمانٍ ومكان بأشخاصه وأحداثه ، هو إسقاطٌ نسبيٌّ لجميع الأسماء القرآنيّة والأحداث القصصيّة المرتبطة بها ، بنسبٍ تختلف من مجتمعٍ لآخر ، حسب ماهيّة كلِّ مجتمع ودرجة إيمانه وكفره .. ففي المجتمعات الصالحة ترجح نسبة إسقاطات أسماء الصالحين والأحداث المرتبطة بها ، على حساب نسبة إسقاطات أسماء العصاة والكفّار والأحداث المرتبطة بها .. والعكس بالعكس ، ففي المجتمعات الفاسدة ترجح نسبة إسقاطات أسماء العصاة والكفّار والأحداث المرتبطة بها ، على نسبة إسقاطات أسماء الصالحين والأحداث المرتبطة بها ..

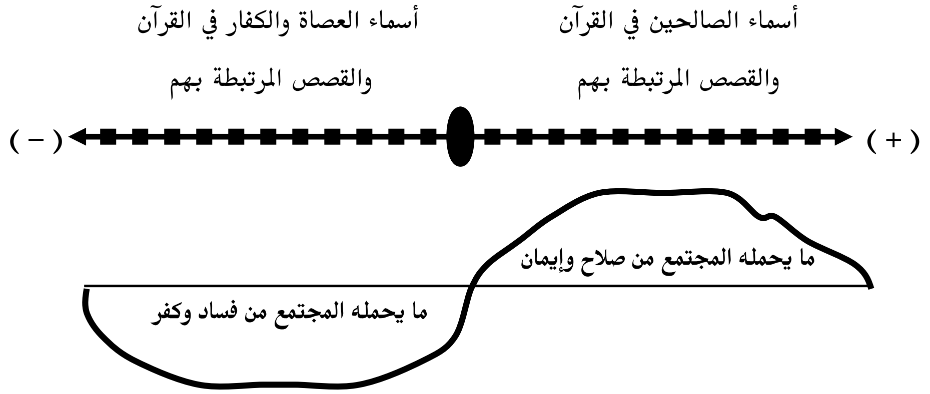

مجتمع يتساوى فيه تقريباً الصلاح والإيمان من جهة والفساد والكفر من جهة أُخرى ، وبالتالي تتساوى فيه إسقاطات الأسماء القرآنيّة والأحداث المرتبطة بها بالنسبة للصالحين ، مع إسقاطات الأسماء القرآنيّة والأحداث المرتبطة بها بالنسبة للعصاة والكفّار ..

فالقصص القرآنيّة بأسمائها وأحداثها ، هي تصوير مطلق مجرّد عن الزمان والمكان لجميع جوانب الخير والشر في المجتمعات الإنسانيّة ، وهي لبنات مجرّدة ، لها إسقاطاتها النسبيّة في كلِّ زمان ومكان ..

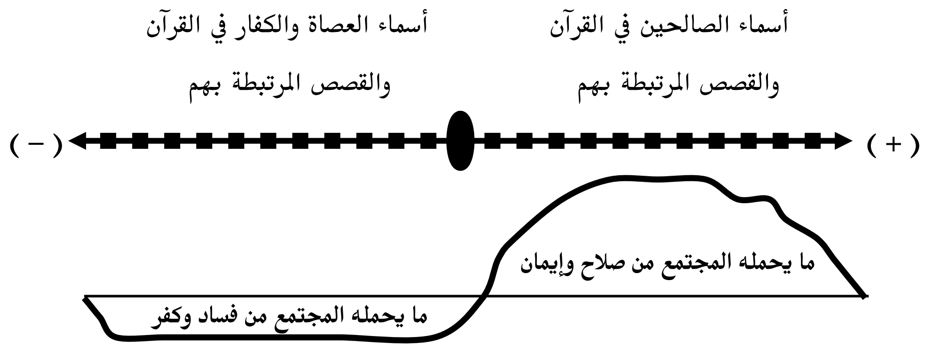

مجتمع ترجح فيه إسقاطات أسماء الصالحين والأحداث القصصيّة المرتبطة بها ، على أسماء العصاة والكفّار والأحداث القصصيّة المرتبطة بها ..

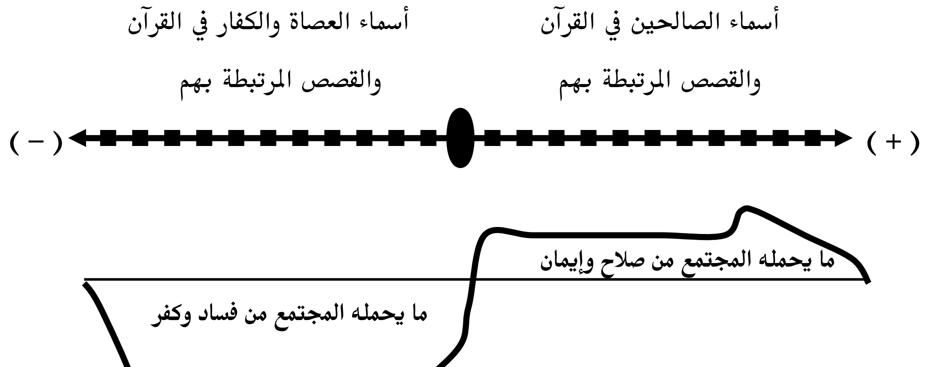

مجتمع ترجح فيه إسقاطات أسماء العصاة والكفّار والأحداث القصصيّة المرتبطة بها ، على أسماء الصالحين والأحداث القصصيّة المرتبطة بها ..

وسنّة الله تعالى التي لا تتبدّل ولا تتغيّر في مسألة هلاك القرى ، أنّ هلاك القرى يكون حينما تنعدم في أهلها إسقاطات الخير والصلاح والإيمان ، وبالتالي حينما يتمثّل أهل القرى تمّثلاً كاملاً إسقاطات الفساد والكفر والعصيان ..

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : ١١٧]

﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص : ٥٩]

ولذلك رأينا كيف أنّ الأقوام الستّة (قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون وقومه) ، الذين يُمثّلون جوانب مسألة الأحزاب ، قد أُهلكوا جميعاً لأنّهم نماذج تامّة لجوانب الكفر والعصيان ، وبالتالي لا يحملون أيَّ إسقاطات من الصلاح والإيمان ..

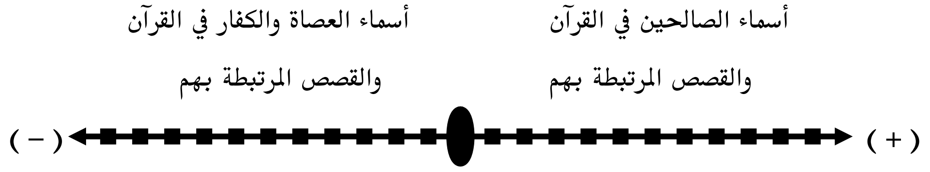

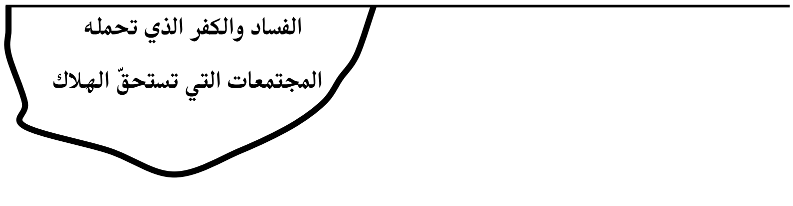

فكلّ مجتمعٍ في كلِّ زمانٍ ومكان هو نسب إسقاطٍ من كلّ قوم في القرآن الكريم ، ومن كلِّ اسم ، ومن كلِّ حدث .. وهذه النسب قد تنعدم في المجتمع بالنسبة لبعض

الأقوام أو بعض الأسماء أو بعض الأحداث ، وقد تقترب كثيراً من مستوى الصورة ذاتها التي تمثّلها تلك الأقوام أو الأسماء أو الأحداث ..

وهذه الإسقاطات التي تتمثّلها المجتمعات في كلّ زمانٍ ومكان ، تتمثّلها أيضاً كلّ نفس بشريّة ، وفق نسبٍ تتعلّق بإيمان هذه النفس وكفرها ، وبصلاحها وفسادها ..

فكلّ نفس تحمل من إسقاطات أسماء الصالحين في القرآن الكريم والأحداث المرتبطة بهم نسبةً قد تنعدم في النفوس الكافرة ، وقد تصل إلى درجة عالية جدّاً في النفوس المؤمنة .. وتحمل في الوقت ذاته من إسقاطات أسماء العصاة والكفّار في القرآن الكريم والأحداث المرتبطة بهم ، نسبةً قد تنعدم في النفوس المؤمنة ، وقد تصل إلى درجة عالية جدّاً في النفوس الكافرة ..

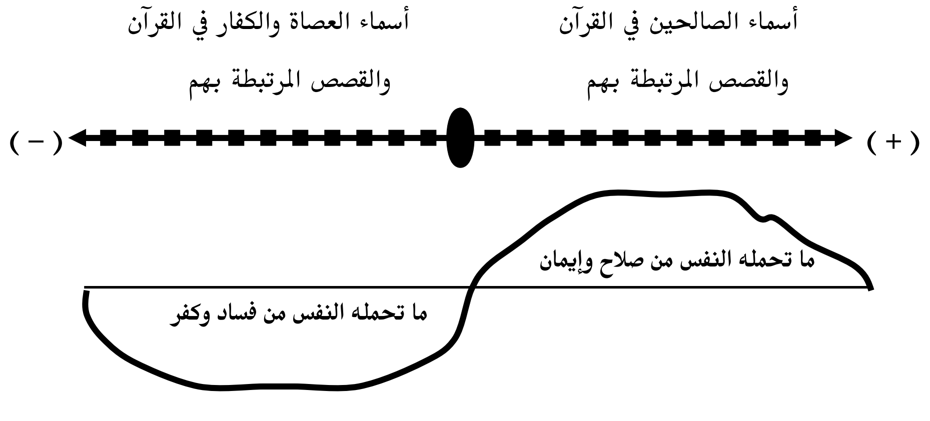

ففرعون وهامان وقارون وأبو لهب و..... ، لأسمائهم وللأحداث المرتبطة بها في القرآن الكريم إسقاطاتُها في كلِّ نفسٍ بشريّة ، بحيث تنعدم في النفوس المؤمنة الطاهرة النقيّة ، وتتدرّج نسبتها في باقي النفوس لتصل إلى درجة عالية جداً في النفوس الطاغية

الكافرة .. وأسماء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم والأحداث المرتبطة بها ، لها إسقاطاتُها في كلِّ نفسٍ بشريّة ، بحيث تنعدم في النفوس الكافرة الطاغية ، وتتدرّج نسبتها في باقي النفوس لتصل إلى درجة عالية جداً في النفوس المؤمنة الطاهرة النقيّة ..

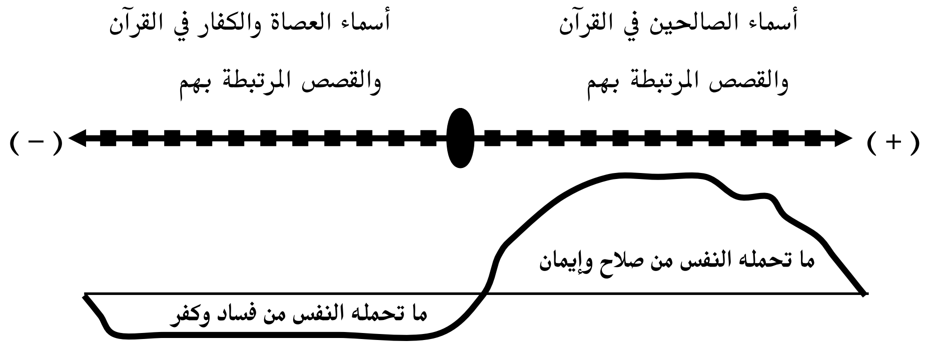

((نفس ترجم فيها إسقاطات أسماء الصالحين في القرآن الكريم))

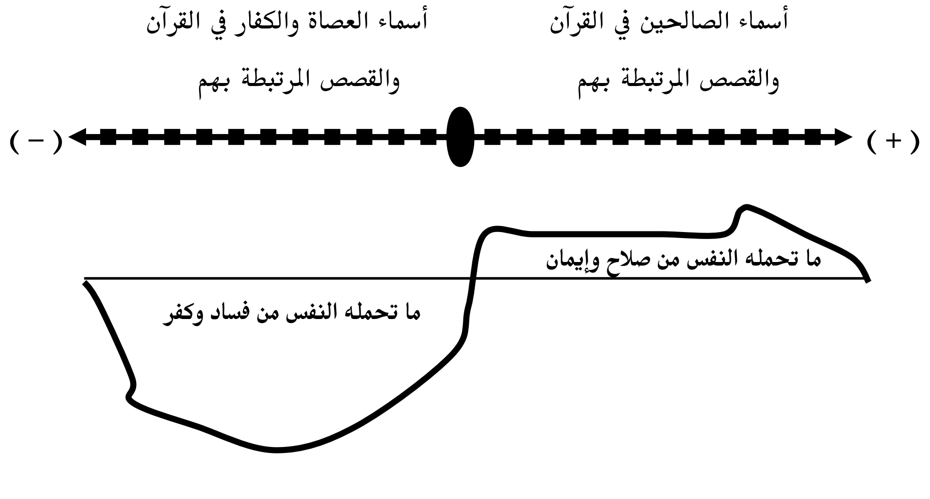

((نفس ترجم فيها إسقاطات أسماء العصاة والكفّار في القرآن الكريم))

وهكذا .. فالأسماء القرآنيّة والأحداث المرتبطة بها والقصص التي لها وجهٌ ظاهره التاريخ والزمان والمكان ، تُمثّل تمثيلاً مطلقاً جميع أوجه الصلاح والفساد والإيمـــان والكفـــر ، في جميع المجتمعات البشريّة ، وفي جميع الأنفس .. فهي تمثّل أبجديّة الخير والشر ، بشكلٍ مجرّدٍ عن الزمان والمكان ، وبحيث ترتسم من إسقاطات هذه الأبجديّة ، جميع صور الحياة في كلّ زمانٍ ومكان ..

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الوجه المطلق
للدلالات التاريخيّة في النصّ القرآني

التفسير الوارد في هذا الفصل لبعض النصوص القرآنيّة ، خارج قيود التاريخ والمكان والزمان ، لا يعني أبداً – كما يريد أن يفهم بعضهم – إلغاء ما تحمله هذه النصوص من معانٍ ودلالات لأحداث خاصّة وقعت في الجيل الأوّل ، ولا يعني – أبداً – حصر دلالات هذه النصوص القرآنيّة بهذا التفسير ..

إنّنا نهدف من تصوّرنا التفسيري هذا إلى البرهنة على أنَّ النصّ القرآني حاملٌ للتاريخ ، وليس محمولاً بالتاريخ ، وأنَّ الوجه المطلق المجرّد للتاريخ والذي يحمله النصّ القرآني ، هو الأساس ، وما التصوّرات التاريخيّة إلاّ إسقاطات في ساحة الزمان والمكان للنواميس المجرّدة عن التاريخ ، والتي يحملها النصّ القرآني ..

لقد رأينا عبر النظريّات الثلاث السابقة كيف أنَّ الكلمة القرآنيّة هي واحدة وصف وتسمية ، تصف المسائل (وتسمّيها) وصفاً مطلقاً يتعلّق بعلم الله تعالى المطلق بحقيقة هذه المسائل .. فالكلمة القرآنيّة روحٌ يفيض بالحياة ، تُعطي كلَّ جيلٍ في كلِّ زمان ومكان صورة للمسألة التي تصفها وتسمّيها ، بما يناسب مدارك ذلك الجيل ..

إنَّ العلاقة بين إدراك ما يحمله القرآن الكريم من معانٍ وأدلّة للمسائل ، وبين حقيقة هذه المسائل ، هي علاقة تناظر يسير طرفاها في خطّين متوازيين .. فالقرآن الكريم يُعطي لكلِّ جيل تصوّراً شاملاً عن المسائل وذلك حسب إدراك ذلك الجيل وحسب الزاوية التي ينظر منها إلى هذه المسائل ، وبالتالي يُعطي تصوّراً يتطوّر إدراكُه مع تطوّر الأجيال ..

ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ التطوّر في إدراك حقيقة المسائل نتيجة التطوّر العلمـي والحـضاري للأجيال ، يوازيه تطوّر في إدراك حقيقة ما يحمله النصّ القرآني لهذه المسائل ..

ولذلك فالوصول إلى الحقائق عبر التقدّم العلمي والحضاري ، ورؤية حَمْـل القـرآن الكريم لهذه الحقائق ، هو تبيانٌ للبشر بأنَّ القرآن الكريم حق ، وأنّه فوق الزمان والمكان ..

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصّلت : ٥٣]

وإنَّ عدمَ إطلاق المعنى الذي تحمله الكلمة القرآنيّة ، وتحجيمَه ضمن إدراك جيلٍ من الأجيال ، يؤدّي إلى تحجيم المعاني التي يحملها النصّ القرآني بحيث لا تتجاوز حدود إدراك ذلك الجيل ، وبالتالي إلغاء مبدأ تدبّر كتاب الله تعالى ، وفرض قوانين هذا العالم المخلوق على نصٍّ ينتمي لعالم الأمر ، ويتعلّق بصفات الله تعالى ..

لقد رأينا – على سبيل المثال – في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) أنَّ كلمة يوم في القرآن الكريم هي واحدة وصف وتسمية ، تستمدّ حركتها التعبيريّة من المسألة التي تقترن بها ، فهي تعني – بصورتها المجرّدة – دوران الشيء حول ذاته دورة كاملة .. ولذلك رأينا أنَّ كلمة أيّام التي تقترن بمسألة خلْق السماوات والأرض تصوّر دورات المادّة الأولى – التي خُلقت بكلمة كن من الله تعالى – دورات كاملة حتّى أخذ الكون شكله الحالي .ز

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨]

فعندما تقترن كلمة يوم أو أيّام بمسألة ساحتها الأرض ، حيث اليوم على الأرض هو دوران الأرض حول نفسها دورة كاملة (٢٤ ساعة) .. عندها تأخذ هذه الكلمة حركتها التعبيريّة من مفهوم اليوم على الأرض ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة : ١٨٣ – ١٨٤]

وعندما تقترن بمسألة لها ماهيّتها الخاصّة بها ، تأخذ هذه الكلمة حركتها التعبيريّة من هذه المسألة ..

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤]

لذلك فدورة الحساب – للكائنات المكلّفة – في الآخرة ، ابتداءً من أوّل مخلوق مكلّف وانتهاءً بآخر مخلوق مكلّف ، هي دورة كاملة ، وبالتالي هي يوم ..

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ١٠ – ١١]

وهكذا نرى أنّه لا يمكن تحجيم الدلالات والمعاني التي تحملها كلمة يوم في القرآن الكريم داخل إطار المفهوم الزماني الحسّي لليوم على الأرض (٢٤ ساعة) .. فالكلمة القرآنيّة تحمل وجهين للدلالات والمعاني :

(**١**) **–** وجه مادّي حسّي يصف الجانب المادّي الحسّي للمسائل .. وإدراكنا لدلالات ومعاني الكلمة – من منظار هذا الوجه – يتعلّق بإدراكنا لحقيقة المسألة وماهيّتها المادّيّة الحسيّة ، وبتطوّر إدراكنا لحقيقة المسألة من جانبها المادّي الحسّي .. فقبل أن نُدرك أنّ لكلمة يوم مفهوماً حسيّاً نسبيّاً لا يُمكن إطلاقه على أرجاء الكون ، كان إدراكنا للدلالات والمعاني التي تحملها كلمة يوم يختلف عن إدراكنا لدلالات هذه الكلمة بعد إدراك نسبيّة اليوم وارتباطه بالمسألة التي تدور دورة كاملة حول ذاتها ..

(**٢**) **–** وجه معنوي مجرّد عن المادّة والحس ن يتعلّق بالماهيّة غير المادّيّة للمسألة ، وهو وجه إطلاق المسألة خارج إطار التصوّرات المادّيّة التاريخيّة للأجيال .. وهذا الوجه ينبع من المعنى المجرّد الذي يحمله الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه هذه الكلمة ..

فالكلمة القرآنيّة بصورتها المجرّدة عن ارتباطها بالأشياء ، لها معنىً لا يتغيّر ، يرتبط – كما رأينا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) – بجذرها اللغوي .. وما نتصوّره من معانٍ مختلفة لها ، ناتجٌ عن اقترانها بالمسائل المختلفة ، وعن درجة إدراكنا لحقيقة هذه المسائل ..

وبالتالي فالذي يتغيّر هو إدراكنا لعمق وصف الكلمة القرآنيّة للمسألة التي تصفها وتسمّيها هذه الكلمة ..

إذاً علينا أن ننظر إلى الكلمة القرآنيّة من منظار جذرها اللغوي ، ومن مناظير الجذور اللغويّة لكلمات النصّ الذي يحوي هذه الكلمة ، وألاّ نؤطِّر إطلاق المعنى الذي تحمله الكلمة القرآنيّة عند تصوّرات جيلٍ من الأجيال ..

وهذه المسالة في القرآن الكريم تنسحب حتّى على الأسماء ، فكلُّ اسمٍ هو في الوقت ذاته صفةٌ يصف ويسمّي المسألة وصفاً مطلقاً مجرّداً عن ارتباطها المادّ الحسّي التاريخي .. أي أنَّ كلَّ اسمٍ يحمل في الوقت ذاته وجهين : وجه مادّي حسّي تاريخي ، ووجه معنوي مجرّد عن المادّة والحس والتاريخ ، ينبع من المعنى المُجرّد الذي يحمله الجذر اللغوي الذي تفرّع عنه هذا الاسم ..

وعلى سبيل المثال لو أخذنا اسم ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] ، لرأينا أنّه يحمل في الوقت ذاته وجهين للدلالات والمعاني :

(١) – وجه معنوي مجرّد عن التاريخ والحس ، ينبع ممّا يحمله الجذران (أ ، ب ، و) ، (ل ، هـــ ، ب) من معانٍ ودلالات ، وله إسقاطاته التاريخيّة في كلّ زمانٍ ومكان .. ووفق هذا الوجه يخرج الاسم أبو لهب من إطار التاريخ ليكون له إسقاطٌ في كلِّ زمانٍ ومكان .. ففي كلّ زمان هناك أكثر من شخص يتّصفون بهذه الصفة ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ ..

(٢) – وجه حسّي تاريخي يصف شخصيّة معلومة تاريخيّاً .. وهذا الوجه التاريخي هو إسقاط لدلالات الوجه المجرّد في زمن الجيل الأوّل .. وجميع كتب التفسير جمّدت دلالات هذه السورة الكريمة عند هذا الوجه التاريخي المحدّد ، الذي هو حالة من الحالات التي تصوّرها هذه السورة الكريمة ، والتي لا يعلم عددها إلاّ الله سبحانه وتعالى ..

ومّما يبيّن جانب الوجه المجرّد لهذا الاسم وللصورة المرسومة في سورة المسد هو ورود كلمة ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ منصوبة وليست مرفوعة ..

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد : ١ – ٥]

فكلمة ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ بصيغتها المنصوبة هذه ، ليست خبراً لامرأة أبي لهب ، إنّما تصف مصيرها في حالة محدّدة ، حينما تكون حمالةً للحطب .. بمعنى أنَّ كلَّ من يستحقّ اللهب ، ستستحقّه امرأته في حالة محدّدة حينما تكون حمّالةً للحطب .. فالآية الكريمة ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ ،

وكذلك الاسم ﴿ زَيْدٌ ﴾ في الآية الكريمة ..

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧]

إنّنا نرى أنَّ لهذا الاسم ﴿ زَيْدٌ ﴾ وجهين :

(**١**) – وجه حسّي تاريخي ، يرتبط بشخصيّة تاريخيّة معلومة ..

(**٢**) – وجه معنوي مجرّد عن الحسّ والتاريخ ينبع ممّا يحمله الجذر (ز ، ي ، د) في القرآن الكريم من معانٍ ودلالات مجرّدة .. فاسم ﴿ زَيْدٌ ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة – من المنظار المجرّد عن الحسّ والتاريخ – نراه يصوّر لنا – ممّا يصوّره من هذا المنظار – الزيادة في قضاء الوطر لدرجة لم تعد فيها الاستزادة مُرادة ، فما قضاه من وطرٍ منها زاد عن الحدّ الذي يريده ، ودليل ذلك هو العبارة القرآنيّة ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ .. فهذه العبارة تبيّن أنّه ﴿ زَيْدٌ ﴾ لا يريد الإمساك بها ، لأنّه لا يريد الزيادة في قضاء وطره منها ، لأنَّ ذلك زاد عن الحدّ الذي يريده .. وقد بيّنت في كتاب : المعجزة الكبرى

(حوار أكثر من جريء) تفسير هذه المسألة بشكلٍ جلي ، وعبر برهانٍ رياضي لا يعرف الكذب والخداع ..

وكذلك كلمة ﴿ حُنَيۡنٍ ﴾ في الآية الكريمة ..

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ ﴾ هي الأُخرى لها وجهان من المعاني والدلالات :

(١) – وجه حسّي تاريخي يرتبط بمعركة معلومة تاريخيّاً ، وهي إسقاطٍ زماني مكاني في الجيل الأوّل ، للوجه المجرّد الذي تحمله هذه الصورة القرآنيّة ..

(٢) – وجه معنوي مجرّد عن الحسّ والتاريخ ، ينبع ممّا يحمله الجذران (ي ، و ، م) ، (ح ، ن ، ن) من معانٍ ودلالات ... وسنرى إن شاء الله تعالى عبر تفسيرٍ مفصَّل مسألةً مشابهة لهذه المسألة ، هي كلمة ﴿ بِبَدۡرٖ ﴾ في الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣]

وبالنظر إلى وجه الكلمة المعنوي المجرّد عن المادّة والحس والتاريخ ، نرى إطلاقاً للنصّ القرآني يتجاوز المكان والزمان والتاريخ .. أمّا حينما نحصر الكلمة القرآنيّة ضمن إطار وجهها الحسّي التاريخي ، فإنّنا نحجّم كلمات الله تعالى ضمن إطار عالم الخلق ، ونفرض على النص تصوّراتنا الماديّة التاريخيّة ، وبالتالي نُعطِّل مسالة تدبّر كتاب الله تعالى ، التي يأمرنا الله تعالى بها ..

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤]

وهكذا نرى أنَّ لكلِّ نصٍّ قرآنيٍّ – من زاوية إدراكنا – وجهين يرتبطان بعمقين :

(١) – وجه ذو عمق مجرّد عن الزمان والمكان والتاريخ .. وذلك كون القرآن الكريم ينتمي لعالم الأمر ويتعلّق بصفات الله تعالى ..

(٢) – وجه ذو عمق يصوِّر حركة التاريخ وسيرة البشريّة في تفاعلها مع مناهج الله تعالى ، وإسقاطات تفاعلات البشر مع النواميس الشرعيّة في كلّ زمانٍ ومكان ..

وكلّ وجه من هذين الوجهين لا يُلغي الآخر .. فظهور الوجه التاريخي في بعض النصوص القرآنيّة بشكلٍ يطفو فيه – بالنسبة لتصوّراتنا – أكثر من الوجه المجرّد عن الحسّ والتاريخ ، لا يلغي الوجه المطلق الذي يحمله هذا النصّ ، والمجرّد عن الحسّ والتاريخ .. وكذلك فإنّ ظهور الوجه المجرّد عن الحسّ والتاريخ في بعض النصوص القرآنيّة بشكلٍ يطفو فيه – بالنسبة لتصوّراتنا – أكثر من ظهور الوجه الحسّي التاريخي ، لا يُلغي الإسقاطات الحسيّة التاريخيّة لهذا النصّ في كلّ زمان ومكان ..

وأولى الوجهين في دراسة النصّ القرآني وتفسيره وتدبّره ، هو الوجه المجرّد عن الحسّ والتاريخ ، حتّى في النصوص القرآنيّة التي يطفو فيها الوجه التاريخي ، لأنّ ذلك يرسم في نفوسنا إطلاقاً يتناسب مع كون القرآن الكريم روحاً من أمر الله تعالى .. ويأتي الوجه الحسّي التاريخي كإسقاط حسّي من مجموعة الإسقاطات التي يحملها النصّ القرآني ..

وللنصّ القرآني (بعمقيه المجرّد والتاريخي) أعماقٌ مختلفة منها الظاهر ، ومنها الباطن الذي ينتهي – كما رأينا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) – بعمق التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى ..

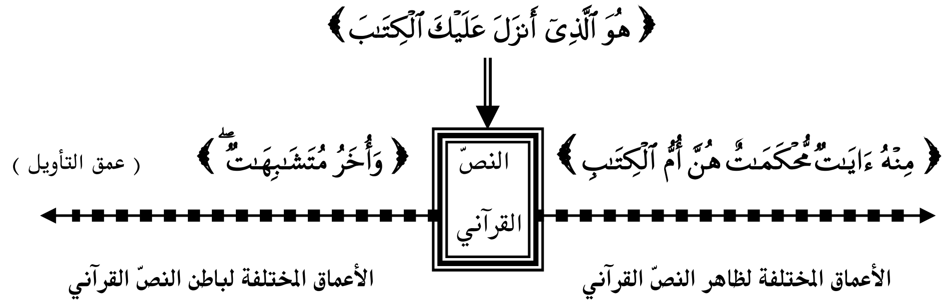

فالترميز الذي رأيناه في الفصل الأوّل في قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، هو – من زاوية الترميز – عمقٌ واحد من مجموعة أعماق هذا النص .. فالأشخاص ذاتهم الذين تمّ ترميزهم ن يمكن ترميزهم برموزٍ أُخرى – في حال إيجاد برهان قرآني لكلِّ ترميز – وبالتالي الوصول عبر النصّ القرآني ذاته إلى معانٍ وأدلّة وبراهين أُخرى منسجمة مع حركة هذا الترميز في النصّ القرآني ..

والتفسير الذي يتصوّره فردٌ أو جيلٌ من الأجيال – إن كان هذا التفسير سليماً ومبرهناً – بالنسبة للنصّ القرآني ، هو عمقٌ واحد من مجموعة الأعماق التي يحملها النصّ القرآنيّ .. وإنّ التقوقع في منظار هذا العمق ، والاعتقاد بأنَّ النصّ القرآنيَّ لا يحمل من إلاّ المعاني والدلالات التي تُرى من منظار هذا العمق ، هو حماقةٌ يريد صاحبها جَعْلَ النصّ القرآني – من خلالها – خاضعاً لتصوّراته وأهوائه ، ومقيّداً في إطار إدراكه ووعيه ..

وهذا لا يعني – كما يريد أن يفهم بعضهم – تصوّر معانٍ ودلالاتٍ للنصّ القرآني ما انزل الله تعالى بها من سلطان ، وأن يفهم كلّ واحدٍ النصَّ كما يريد وكما تهوى نفسه .. أبداً .. فعندما نقول : للنصّ أعماقٌ كثيرة ، نعني أعماقاً مبرهنة قرآنيّاً ، برهنة لا يمكن إثبات نقيضها ، ولا يمكن البرهنة على بطلانها .. والقرآن الكريم يؤكّد أنَّ معاني كلمات الله تعالى ودلالاتها لا تنتهي أبداً ..

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

ومن هنا نقول : لا يحقّ لفردٍ أو لجيل أن يفرض تصوّراته للنصّ القرآني – وإن كانت صحيحة – بحيث تُلغي الأعماق الأُخرى لهذا النصّ ، وبالتالي لا يحقّ لأحدٍ أن يُوقف التدبّر بكتاب الله تعالى ، وأن يُلغي البحث المنهجي السليم في كتاب الله تعالى ، بحجّة إدراكه لعمقٍ من أعماق النصّ القرآني ..

وكون القرآن الكريم هو خاتم الرسالات السماويّة ، وهو خاتم المعجزات المؤيّدة للرسل عليهم السلام ، ومجرّداً عن الزمان والمكان والتاريخ والحدوث .. يقتضي – كلّ ذلك – أن يكون القرآن الكريم رسالةً موجّهةً مباشرةً إلى كلِّ إنسان في هذا العالم ، وأن يكون الخطاب القرآني – بجميع صيغه – موجّهاً إلى كلِّ نفسٍ حسب درجة إيمانها ..

لو نظرنا إلى خطاب الله تعالى المباشر لرسوله ونبيّه محمّد ﷺ ، لرأينا أنَّ اللهَ تعالى لَمْ يُخاطِبْ الرسولَ ﷺ باسمِهِ في القرآنِ الكريم ، ولا مرّة ، فلمْ يَقُلْ اللهُ تعالى : يا مُحمَّد ، أو يا أحمد ، كما خاطبَ المرسلينَ السابقين [**﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾** ، **﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾** ، **﴿ يَٰعِيسَىٰ ﴾** .....] ..

.. فَمُخاطبتُهُ جلّ وعلا لرسولِهِ ﷺ ، كانتْ من خلالِ قولِهِ تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، ومن خلالِ الإشارةِ إليه ﷺ دونَ ذكرِ اسمه ..... فعلى سبيلِ المثالِ .. يقولُ تعالى ..

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [المائدة : ٤١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ [المزمل : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر : ١]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٣]

.. وفي هذا إطلاقٌ قُرآنيٌّ يَشمَلُ الرسولَ مُحمَّداً ﷺ ، كونَهُ نبيّاً ، وكونَهُ رسولاً ، ويشمَلُ كُلَّ داعٍ إلى اللهِ تعالى ، بدرجةٍ تتناسبُ مع خَلَاصه للهِ تعالى ، ومعَ حَمْلهِ لِرسالةِ الإسلام إلى الآخرين .. فَرِسالةُ الإسلامِ التي يَحْمِلُها القرآنُ الكريمُ ، مُستَمِرَّةٌ ولا تنتهي إلى قِيامِ الساعة ..

وكلمتا [﴿ مُحَمَّدٌ ﴾ ، ﴿ أَحْمَدُ ﴾] كاسمين للنبيّ ﷺ تردان في القرآن الكريم – كما رأينا – خمس مرّات ، تأتيان من خلال نصوص قرآنيّة عبر خطابٍ موجّهٍ لنا ، وليس عبر خطابٍ مباشرٍ إلى الرسول ﷺ ..

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٤٤]

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٢]

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح : ٢٩]

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف : ٦]

وكلُّ ذلك ليس مصادفة ، وهو لحكمة إلهيّة عظيمة ، فاختيار الله تعالى – في خطابه القرآني – لصفات الرسول ﷺ ، دون الخطاب القرآني المتعلّق باسم الذات مباشرة (يا محمّد – يا أحمد) هو اختيارٌ مطلق ، بغية إطلاق النصّ القرآني ، ليكون لها النصّ إسقاطاتٌ نسبيّةٌ في كلّ نفس ، وفي كلّ زمانٍ وزمان ، حسب تعلّق النفس بصفات الرسالة والنبوّة ، التي يبيّنها القرآن الكريم ..

فصفتا الرسالة والنبوّة ، بصورتيهما الكاملتين ١٠٠ / ١٠٠ ، اجتمعتا في شخص محمّد ﷺ ، ولن تظهرا – بعده – بهذه الصورة الكاملة في أيِّ شخصٍ غيره ، كونه ﷺ خاتم الأنبياء .. أمَّا الإسقاطات النسبيّة لهاتين الصفتين وباقي صفاته ﷺ ، فتقع في كلّ زمانٍ ومكان في نفوس الناس ، بنسبٍ تتعلّق بشفافيّة تلك الأنفس ونقائها ودرجة حملها وتبليغها لمنهج الله تعالى ..

إذاً .. كلّ نفسٍ تحمل من صفتي الرسالة والنبوّة درجة (دون الدرجة الكاملة حيث محمّد ﷺ) تتعلّق بسمو هذه النفس وعلوّها الإيماني ، وعزيمتها بتبليغ منهج الله تعالى .. والنفوس الكافرة تكون – بالنسبة لصفتي الرسالة والنبوّة – على الجهة السالبة من محور درجات الرسالة والنبوّة ، لأنَّ تعلّقها بهاتين الصفتين هو تعلّق سلبي يناقض السمو والعلو الإيماني .. وهكذا .. كلّ نفسٍ لها ترتيب على محور الرسالة والنبوّة ، حسب خلاصها وصدق دعوتها لله تعالى ..

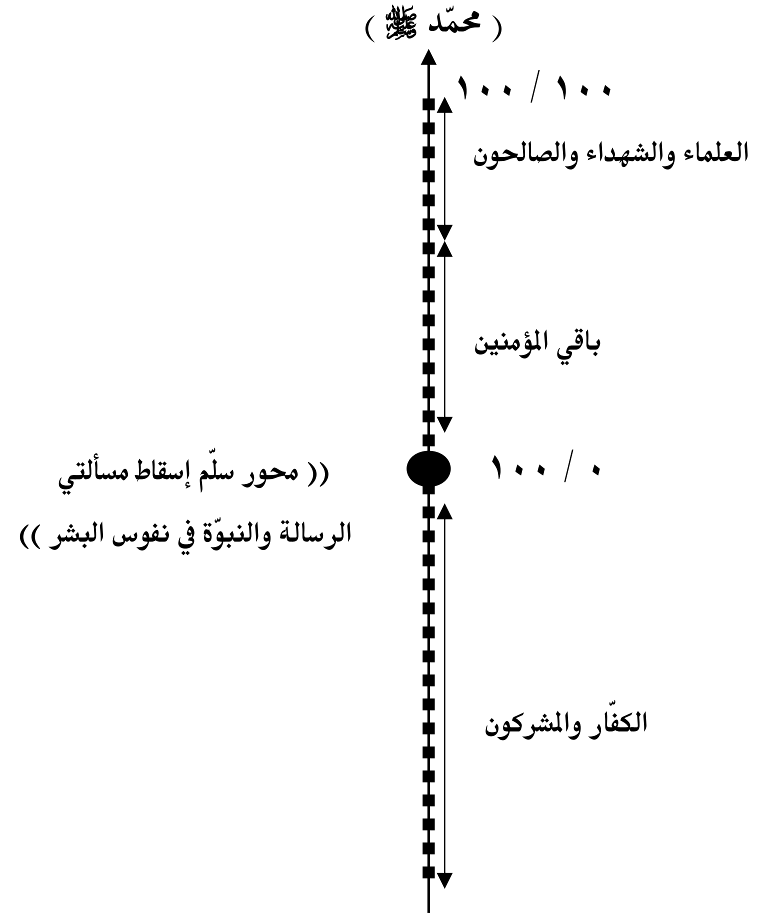

لننظر إلى الصور القرآنيّة التالية ..

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ .... ﴾ [المائدة : ٤١]

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأنعام : ٧]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾ [الأنفال : ٦٥]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۞ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب : ١ – ٣]

إنّنا نرى أنَّ الخطاب موجَّهٌ عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة ، حيث يتربّع على هذه القمّة الرسول النبيّ محمّد ﷺ [﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ ﴾ ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾] ..

ومن خلال صيغة هذا الخطاب ، فإنَّ كلَّ نفسٍ تحسُّ أنَّ الخطاب (في الآيات السابقة وما شابهها كصيغة خطاب) موجَّهٌ إليها ، إحساساً يوازي درجة سموّها وعلوّها على محور الرسالة والنبوّة ..

فما تحمله الآيات السابقة (وما شابهها كصيغة خطاب) من أحكامٍ ، نحن مكلّفون بتنفيذها ، وليس فقط محمّد ﷺ لوحده هو المكلّف بذلك .. ولكن .. كون محمّد ﷺ في قمّة محور الرسالة والنبوّة فإنَّ إسقاط هذه الأحكام في نفسه هو ١٠٠ / ١٠٠ ، وكلُّ واحدٍ فينا مُكلَّفٌ بدرجة توازي درجة موقعه على سلّم الرسالة والنبوّة .. صحيحٌ أنَّ هذه الدرجة لن تصل قمّة المحور (١٠٠ / ١٠٠) ولكنّها درجة لها قيمتها على هذا المحور ..

فطلب الله تعالى بأن لا تتسبّب مسارعة الكفّار بالكفر بإدخال الحزن إلى النفس الداعية إلى الله تعالى ، ومعرفة حقيقة مجادلة الكفّار ، وقولهم عن البراهين والأدلّة الواضحة بأنّها سحرٌ مبين ، والتحريض على قتال الكفّار والمشركين ، والأمر بتقوى الله تعالى ، وعدم طاعة الكفّار والمنافقين ، واتّباع ما أوحى الله تعالى ، والتوكّل عليه (وهذا ما تحمله الآيات السابقة) .. كلُّ ذلك نحن مطالبون به ، وله إسقاطات في نفوسنا تتناسب مع درجة هذه النفوس على محور الرسالة والنبوّة .. ولذلك فالمطالبة المطلقة (١٠٠ / ١٠٠) للرسول ﷺ بها كونه يتربّع على محور الرسالة والنبوّة ، لا تُلغي إسقاطات هذا الخطاب في نفوس باقي البشر ، إيجابيّة كانت أم سلبيّة ..

وتتجلّى هذه الحقيقة في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١]

الآية كما نرى تبدأ بالعبارة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ بخطابٍ موجَّهٍ عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة ، ولكنَّ هذا لا يُلغي إسقاطات الأحكام التالية بعد هذه العبارة في نفوس المؤمنين ، فالعبارات التالية لهذه العبارة تأتي بصيغة الجمع التي تعني جميع المؤمنين بمصداقيّة كتاب الله تعالى ، وليس محمّداً ﷺ لوحده [﴿ طَلَّقْتُمُ ﴾ ، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ ، ﴿ وَأَحْصُوا۟ ﴾ ، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ ، ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾] ..

وجميع المؤمنين مكلّفون بتنفيذ الأحكام الواردة خلف هذه العبارة القرآنيّة ، وهي أحكام صارمة تقتضي عدم عودة المطلّقة إلى عصمة زوجها أثناء العدّة ، مع وجودها في بيتها ، وقد بيّنت ذلك بشكلٍ مُفصَّلٍ في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ... هذه الأحكام الصارمة يحتاج تطبيقها إلى نقاء والتزام كامل بمنهج الله تعالى عبر خلاص الإنسان وصدقه ، ولذلك كانت هذه الأحكام تالية لعبارة تخاطبنا من قمّة محور الرسالة والنبوّة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ..

إنَّ محمّداً ﷺ الصفة الكاملة للرسالة والنبوّة (١٠٠ / ١٠٠) أُوحي إليه القرآن الكريم من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام ، ونحن تلقَّيناه من الله تعالى عن طريق محمّد ﷺ ... فمسألة إنزال القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ وإيحائه من الله تعالى إليه ، لها إسقاطاتها النسبيّة في جميع النفوس ، كلٌّ يحسُّ بروح هذا الكتاب الموحى (القرآن الكريم) حسب درجته على سلّم الرسالة والنبوّة ..

لننظر إلى قوله تعالى ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [الطلاق : ١]

.. هناك الكثير من الأسئلة التي تخطر في النفس ، والتي لا نجد لها أجوبة بعيداً عن فهم كتاب الله تعالى فهماً حقيقيّاً ، ولذلك فهي إنْ تُبْدَ لنا تَسُؤنا .. ولكن حينما يُنزَّل القرآن

الكريم روحاً في قلوبنا ، وإدراكاً لبيانِ الأجوبةِ في عقولنا .. حين ذلكَ تُبْدَ لنا أجوبَةُ هذه الأسئلة ، وندرِكُها إدراكاً لا يكونُ إلاّ بهذا التنزّلِ في قلوبنا وعقولنا .. فتنزُّل القرآن الكريم روحاً في قلوبنا ، وإدراكاً وبياناً في عقولنا ، يكون حسب درجتنا على سلّم الرسالة والنبوّة ..

وهكذا .. فالقرآن الكريم الذي نُزّل وأنزل على محمّد ﷺ ، نزّل وأُنزل علينا ، كـلّ حسب درجته على محور الرسالة والنبوّة ..

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ١٠٥]

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٣١]

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ [النساء : ١٤٠]

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣]

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠]

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور : ٣٤]

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٥]

والكفّار الموجودون في الجهة السالبة على محور الرسالة والنبوّة ، والذين كرهوا ما انزل الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٨ – ٩] ، والذين يعكسون ما انزل الله تعالى إسقاطاً سلبيّاً في نفوسهم ، بأن يُقابلوا ما انزل الله تعالى بالإعراض والاستهزاء .. هؤلاء .. ما أُنزل على محمّد ﷺ أُنزل أيضاً إليهم ..

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤]

.. فهم من الناس ، وما أنزل إلى محمّد ﷺ أُنزل إلى كلّ الناس ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤]

.. وهكذا .. عندما يقول الله تعالى ..

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩]

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٤]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٣]

.. عندما يقول الله تعالى هذه الصور القرآنية من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ، فإنّه يُخاطب كلّ نفسٍ بشريّة .. ودرجة الاستجابة لهذا الخطاب ، وتفاعل النفس معه ، تُحدّد سموّ النفس البشريّة في سلّم رقيّها نحو الخلاص لله تعالى (صفة النبوّة) ، والدعوة الصادقة لله تعالى (صفة الرسالة) ..

وفي خطاب الله تعالى عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة [عبر صفة الرسالة ، أو النبوّة ، أو أيّ صفة ، أو عبر خطاب مباشر للرسول ﷺ] ، في ذلك بيانٌ أنّ موضوع الخطاب هو في القمّة ، وبالتالي فإنّ جميع إسقاطات هذا الخطاب في نفوس جميع البشر (عدا محمّد ﷺ) هي دون صورة الخطاب ، لأنّ الخطاب يأتي من قمّة محور الرسالة والنبوّة ، ولمّا

كانت درجات جميع البشر على محور الرسالة والنبوّة هي دون القمّة ، فإنَّ إسقاطات خطاب القمّة في نفوس البشر لن تصل إلى صورة هذا الخطاب الآتي من القمّة ..

بينما في خطاب الله تعالى (القرآني) عبر منظار يتلقّاه البشر دون قمّة محور الرسالة والنبوّة [﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ، ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ....] .. فيه بيانٌ إلى أنَّ موضوع الخطاب – بالنسبة لمحور الرسالة والنبوّة – يتلقّاه البشر في مستوي درجات من يوجَّه إليهم الخطاب ، وهؤلاء هم دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ، وبالتالي لصورة هذا الخطاب إسقاطات – على محور الرسالة والنبوّة – باتّجاهين ، منها ما هو أعلى من تلقّي صورة الخطاب ، ومنها ما هو أدنى ، وذلك حسب درجات سموّ الأنفس على محور الرسالة والنبوّة ..

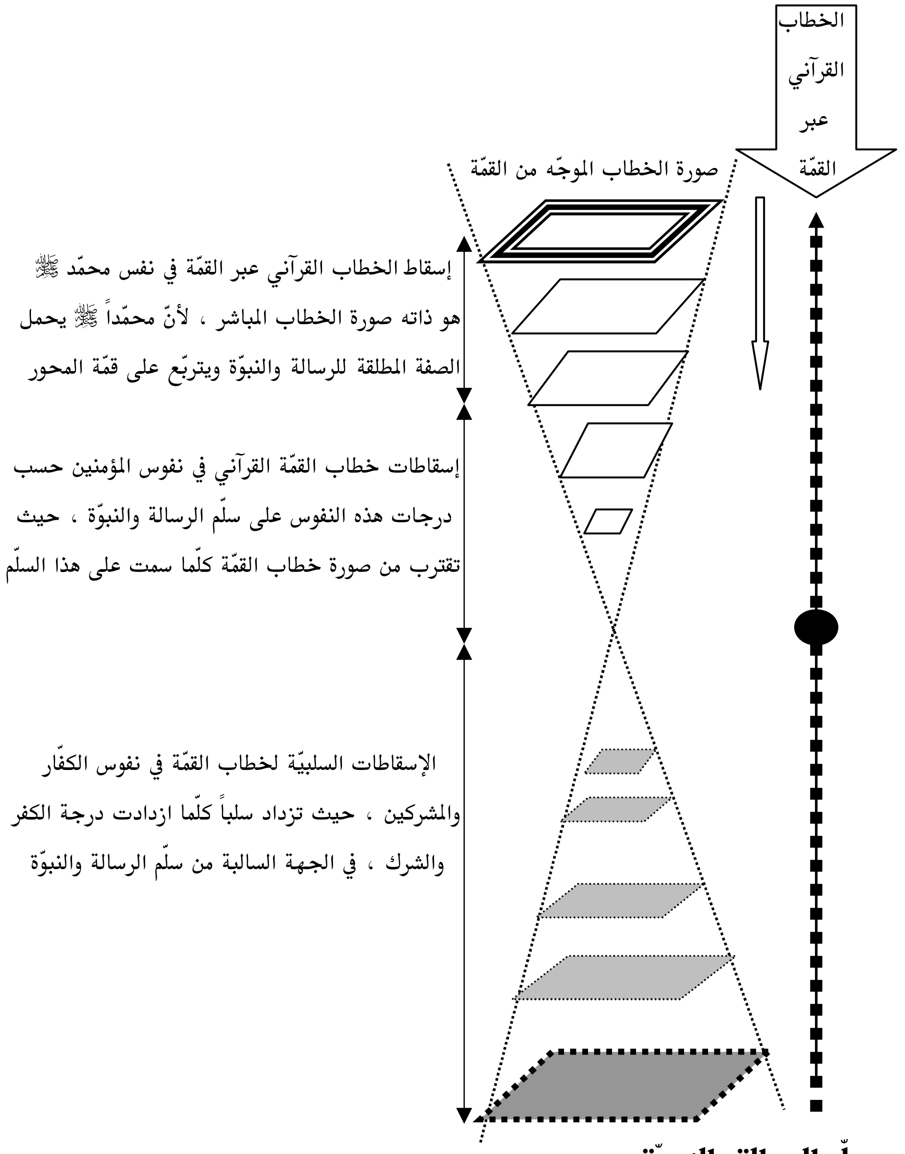

((**محور سلّم الرسالة والنبـوّة**))

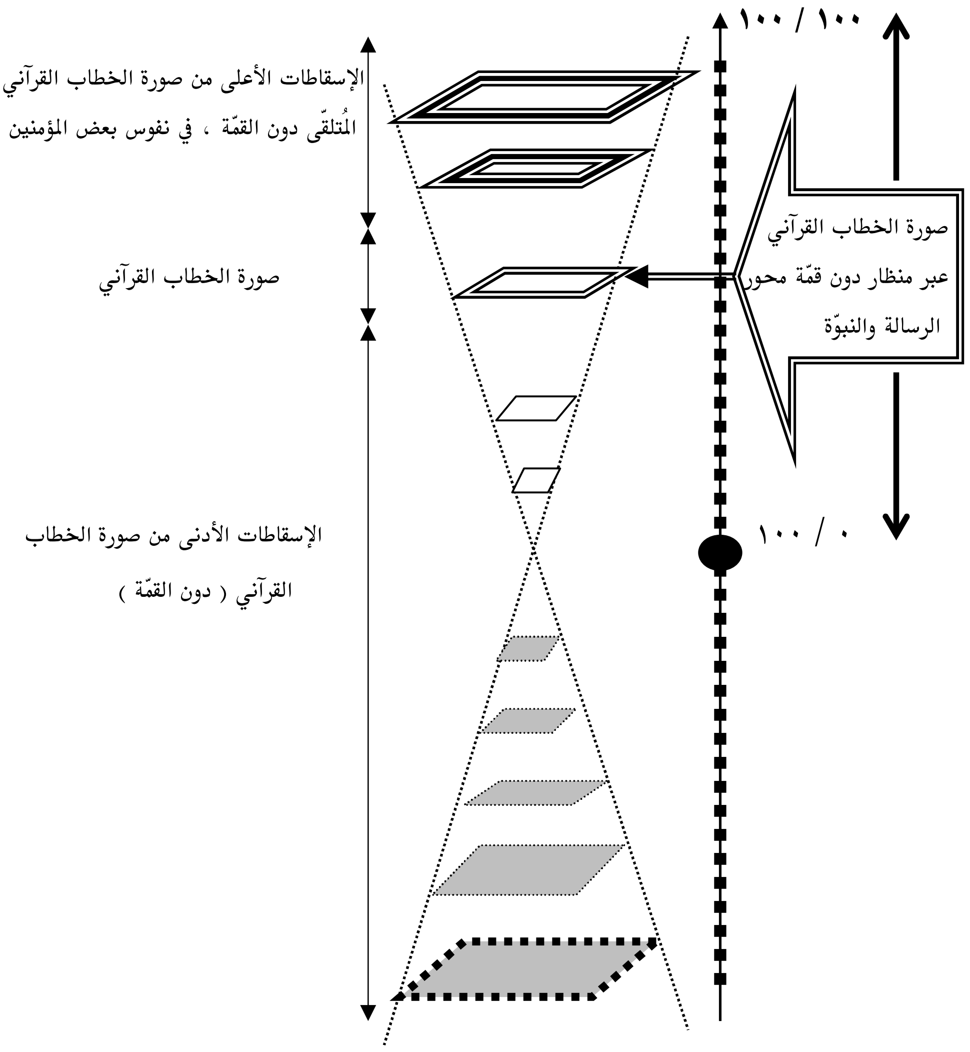

((**محور سلّم الرسالة والنبوّة**))

ففي خطاب الله تعالى للبشر مباشرة عبر خطاب يتمّ تلقيه دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٠]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء : ٤٧]

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٣]

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ [الحج : ١]

... في ذلك بيانٌ أنَّ هذا الخطاب موجّهٌ للبشر مباشرة عبر منظارٍ يتلقّاه البشر في مستوي درجاتهم على محور الرسالة والنبوّة ، وبالتالي فالبشر عبر تنفيذهم لموضوع الخطاب سينتقلون على محور الرسالة والنبوّة – بالنسبة لمستوي منظار صورة الخطاب – عبر اتّجاهين ، إمّا باتّجاه السمو إلى الأعلى ، وإمّا باتّجاه الدنو إلى الأسفل .. فمستوي الخطاب على درجات محور الرسالة والنبوّة ، هو ميزان السمو والدنو على هذا المحور بالنسبة لتفاعل البشر مع ما يحمله هذا الخطاب ..

بينما حينما يأتي الخطاب من اتّجاه القمّة ، (عبر صفات الرسول ﷺ وعبر الخطاب المباشر له) ، فإنَّ صورة الخطاب – من هذا المنظار – هي فوق جميع إسقاطاته في نفوس البشر ، لأنَّ صورة الخطاب تأتي من القمّة ، والقمّة لن يصلها (باستثناء محمّد ﷺ) أحد ..

ففي هذا الفارق بين منظاري الخطاب (خطاب عبر القمّة ، وخطاب عبر درجات دون القمّة) حكمةٌ إلهيّة مقصودة تتعلّق بموضوع الخطاب في كلّ حالة ، وبماهيّة سموّ النفس على محور الرسالة والنبوّة ، بالنسبة للخطاب في كلّ حالة ..

وفي خطاب الله تعالى المباشر للنبيّ ﷺ وزوجاته إطلاقٌ فوق التاريخ والزمان والمكان ، فهذا الخطاب ليس مجرّد أحكامٍ مرحليّة تاريخيّة خاصّة كما يتوهّم الكثيرون .. فمجيء هذه الأحكام المطلقة عبر خطابٍ ظاهره متعلّق بالنبيّ ﷺ وزوجاته ومن عاصره ، لا يُلغي الوجه المُطلق لخطاب النصّ القرآني ..

لننظر إلى الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٣ – ٧٥]

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠ – ٣١]

إنّنا نرى أنّ ورود صيغة الخطاب عبر القمّة (سواءٌ عبر الخطاب المباشر للنبيّ ﷺ ، أو عبر زوجاته) يحمل حكماً مطلقاً مجرّداً عن التاريخ والزمان والمكان ، هو أنّه في بيت قمّة صفة النبوّة والرسالة ، يكون ثواب وعقاب أيِّ مسألة هما ضعف ثواب وعقاب المسألة ذاتها في بيتٍ عاديٍّ من بيوت المسلمين ..

فورود هذين النصّين عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة يعني أنَّ هذه المضاعفة للثواب والعقاب هي قمّة المضاعفة .. وبالتالي فالثواب والعقاب يتدرّجان – حسب درجات الأنفس على سلّم الرسالة والنبوّة – ابتداءً من المثل بشكلٍ تصاعدي للوصل في القمّة إلى الضعف ..

وهكذا .. بورود النصّين عبر خطاب من قمّة محور الرسالة والنبوّة ، يعني أنَّ إسقاطات أحكام هذين النصّين بالنسبة للبشر هي دائماً وأبداً دون صورة الخطاب ، لأنَّ البشر لن يصلوا القمّة على محور الرسالة والنبوّة ، والخطاب يحمل الحدَّ الأعلى من مضاعفة الثواب والعقاب الذي يتعلّق بالقمّة ، وبالتالي فثواب وعقاب المسألة بالنسبة للبشر يتراوح بين المثل وبين الضعف ، وذلك حسب درجاتهم على محور الرسالة والنبوّة ..

ولو أتى الخطاب عبر منظار مباشر للبشر (دون القمّة) وكان الحكم هو الضعف ، لكان الثواب والعقاب من الممكن أن يتجاوزا الضعف ، لأنّه من الممكن سموّ النفس على محور الرسالة والنبوّة بدرجات أعلى من مستوى درجة منظار الخطاب ..

وهكذا نرى أنّه في ورود الخطاب القرآني عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة ، أو عبر خطاب هو دون هذه القمّة ، نرى حكمة مُرادة ، وليس مجرّد التفات أدبي لا علاقة له بماهيّة الأحكام القرآنيّة كما يتوهّم الكثيرون ..

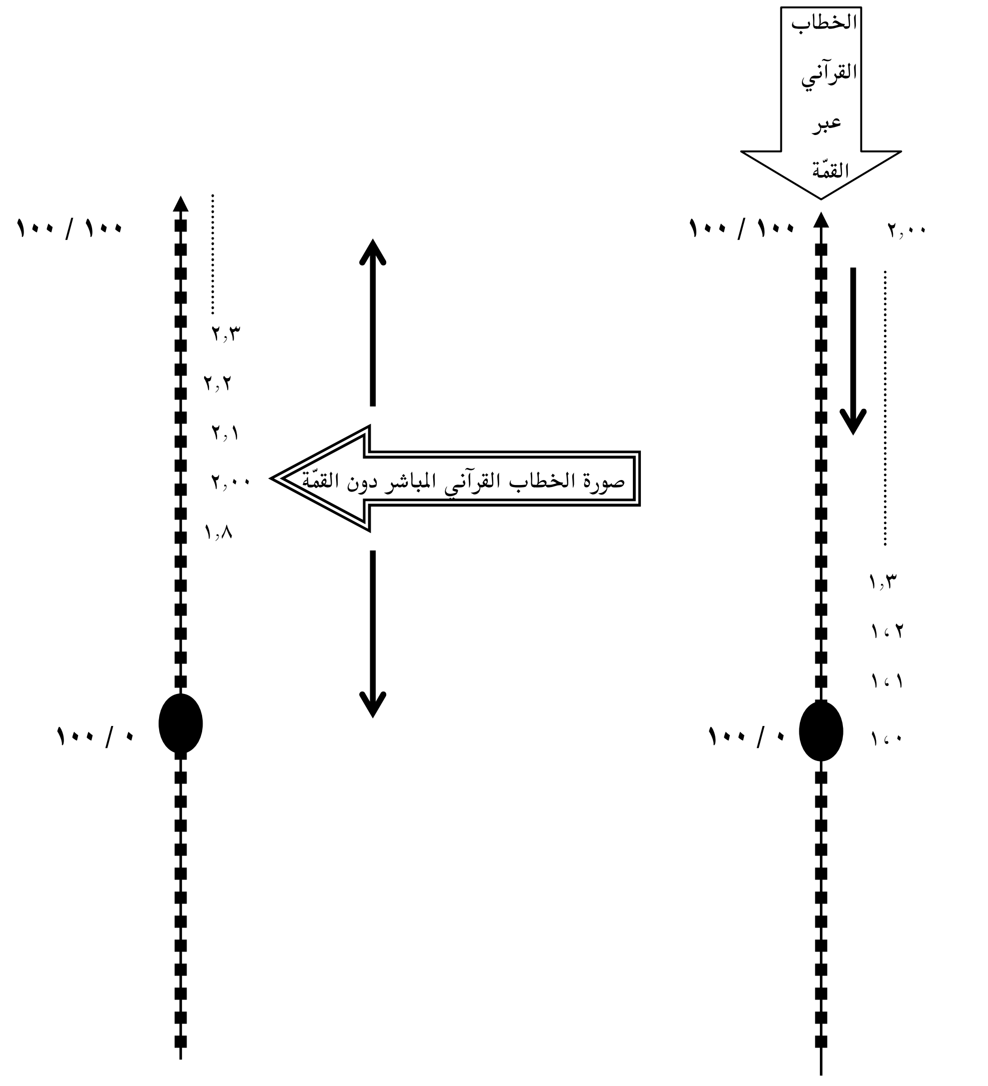

درجات مضاعفة الثواب والعقاب كما يحملها النصّ القرآني عبر خطاب قمّة محور الرسالة والنبوّة

درجات مضاعفة الثواب والعقاب فيما لو أتى النصّ القرآني عبر خطاب دون قمّة محور الرسالة والنبوّة

وجميع المفسّرين قديماً وحديثاً نظروا إلى النصوص القرآنيّة التي يطفو فيها الوجه التاريخي على الوجه المجرّد ، نظرةً حسيّة تاريخيّة بحتة ، ولم ينظروا – بالنسبة لهذه النصوص – إلى الوجه المطلق المجرّد عن التاريخ والزمان والمكان ، وبالتالي أطّروا هذه النصوص ضمن إطار التاريخ والزمان والمكان ، واكتفوا بإطلاق الحكمة الكامنة في هذه الأحداث التاريخيّة ..

فإطلاقهم للنصّ ليس بإطلاق ماهيّة النصّ وعباراته وكلماته ، وإنّما بإطلاق الحكم والعِبَر المستنبطة من تلك الأحداث .. وبالتالي جعلوا هذه النصوص – سواء علموا بذلك أم لم يعلموا – نصوصاً مخلوقة محكومة لقوانين عالم الخلق ..

إنَّ استسلام العقل لأفكار وتصوّرات مُقَوْلَبة في قوالب تاريخيّة حسيّة بالنسبة للنصوص القرآنيّة ، والنظر إلى هذه النصوص من منظار حسّي تاريخي تحيط به تلك القوالب الفكريّة المسبقة الصنع ، وتصوّر معظمهم أنَّ أسباب نزول آيات القرآن الكريم هي إطارٌ حسيٌّ تاريخي يخصّ الجيل الأوّل فقط ، وكأنّ القرآن الكريم لا يحمل من المعاني والأدلّة ما لا يتجاوز حدود إدراك الجيل الأوّل ن والنظر – في تفسير القرآن الكريم – من منظار أحادي البعد ، هو تفاعل الجيل الأوّل مع آيات القرآن الكريم ... كلّ ذلك أدّى بمعظم المفسّرين إلى فرض الوجه التاريخي الحسّي على الكثير من النصوص القرآنيّة ، وبالتالي غياب الوجه المجرّد عن التاريخ والمكان والزمان بالنسبة لهذه النصوص من تفاسيرنا ، قديماً وحديثاً ..

نحن لا ننكر مصادفات (وليس مناسبات) النزول ، ولا ننكر خصوصيّة الجيل الأوّل الذي عاصر النبيّ ﷺ في التفاعل مع نزول القرآن الكريم ، ولا ننكر الوجه التاريخي الذي يطفو في بعض النصوص القرآنيّة .. نحن نقول انظروا إلى القرآن الكريم كونه روحاً من أمر الله تعالى يتعلّق بصفاته العظيمة ، ولا تغفلوا عن ذلك .. انظروا إلى القرآن الكريم كونه رسالةً مستمرّة في كلِّ زمان ومكان ، وكونه معجزةً مستمرّة في كلِّ زمان ومكان ، وكونه متنزّلاً على قلب كلِّ إنسان حتى قيام الساعة ، ولا تغفلوا عن ذلك ..

إنَّ من يريد أن يتفاعل بروحه مع الروح القرآني عليه – بعد النظر إلى كلّ الأوجه التي يحملها القرآن الكريم – أن ينظر إلى القرآن الكريم على أنّه نزل الآن من السماء على

قلبه هو ، وأنَّ خطاب الله تعالى في القرآن الكريم موجَّهٌ إليه الآن توجيهاً يتناسب ودرجة سموّه على محور الرسالة والنبوّة ..

.. فمثلاً بالنسبة للنصّين التاليين ..

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾
[عبس : ١ – ١٦]

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق : ١ – ٨]

الكلّ يعلم أنَّ هذين النصّين يحمل كلٌّ منهما وجهاً تاريخيّاً حسيّاً معروفاً ، يتعلّق بأحداث تاريخيّة حصلت مع النبي ﷺ .. وجميع المفسّرين ومعظم أفراد الأمّة ينظرون إلى هذين من هذا المنظار التاريخي ، نظرةً يغيب فيها الوجه المطلق المُجرَّد عن التاريخ والزمان والمكان الذي يحمله هذان النصّان ..

نحن لا ننكر الوجه التاريخي الحسّي لكلٍّ من هذين النصّين ، وفي الوقت ذاته لا نُلغي الوجه المجرّد عن التاريخ والمكان والزمان لكلٍّ منهما .. فلو نظرنا نظرةً مجرّدة عن التاريخ والزمان لكلٍّ من هذين النصّين ، وعمّا نحمله لهما من تصوّرات مسبقة ، لرأيناهما مُجرَّدين عن التاريخ ، ويخاطبان كلَّ إنسان في كلِّ زمانٍ ومكان ..

فكلّ داعية إلى الله تعالى في كلِّ زمانٍ ومكان ، يخاطبه النصّ الأوّل حاملاً له أحكاماً وعِبَراً ترسم له طريق دعوته السليمة الصادقة إلى الله تعالى .. وكلٌّ متّجه إلى الله تعالى بقلب صادق يريد قراءةً صادقة لآيات الله تعالى وتدبّراً سليماً لها ، يخاطبه النصّ الثاني حاملاً له أحكاماً وعِبَراً ترسم له طريق قراءته السليمة الصادقة لآيات الله تعالى ..

وسنتناول – إن شاء الله تعالى – بالتفصيل بعض النصوص القرآنيّة من كتاب الله تعالى ، التي يطفو فيها الوجه التاريخي الحسّي ، لنرى أنَّ لكلٍّ من هذه النصوص وجهاً وعمقاً مُجرّدين عن التاريخ والزمان والمكان ، وأنَّ إلغاء هذا العمق المُجرّد عن التاريخ – في التفاسير قديماً وحديثاً – هو نتيجة فرض تصوّرات مسبقة الصنع على النصّ القرآني ، ونتيجة عدم النظر إلى هذا النصّ إلاّ من منظار تلك التصوّرات .. وتناولنا لهذه النصوص الكريمة من هذا المنظار المجرّد ، لا يعني أبداً – كما سيفتري بعضهم – أنَّنا نُنكر الوجه الحسّي التاريخي لهذه النصوص ..

لنقف عند النصّ القرآني التالي ن الذي يتصوّره معظمهم خاصّاً بالجيل الأوَّل من الذين عاصروا النبيّ ﷺ ، لنرى كيف أنَّ هذا النصَّ مطلق ، وأنَّ له إسقاطاً في كلِّ زمانٍ ومكان ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات : ١ – ٥]

إنّنا نرى أنَّ النصّ يبدأ بالعبارة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ .. وهذه العبارة مُطلقة تُخاطب كلَّ مؤمن ومؤمنة في كلِّ زمانٍ ومكان ، ولا يُمكن حصر خطابها في جيلٍ دون غيره ، فحين يوجّه الله تعالى خطابه للذين آمنوا ، فهذا يعني جملة المؤمنين حتّى قيام الساعة ..

ولإدراك ما تحمله العبارة ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ من معانٍ ، لا بدّ من العودة إلى مشتقّات الجذر (ق ، د ، م) في القرآن الكريم ، والنظر إلى هذه العبارة من مناظير المحاور الرئيسة – في المعنى – لهذه المشتقّات ..

إنَّ المتقدّم يكون في مقدّمة من هو متقدِّمهم ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ ﴾ [هود : ٩٨] .. فالمتقدّم – وفق هذا المحور من المعنى – هو نقيض المتأخّر ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدّثّر : ٣٧] ، فهذا المحور من المعنى يدور في إطار قفز المتقدِّم إلى الأمام بحيث يتأخّر غيره في مسألة التقدّم التي قفز بها ..

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ – من هذا المنظار – هي بمعنى لا تتقدّموا ، أي لا تكونوا أمام الفطرة النقيّة والروح الذي وضعه الله تعالى في كلِّ إنسان حين ولادته ، ولا تكونوا أمام العقل المجرّد عن أيّ انتماء ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ ﴾ ... ولا تكونوا أمام منهج الله تعالى الذي يحمله رسوله وهو القرآن الكريم ﴿ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾ .. بمعنى لا تجعلوا لأنفسكم رأياً وإرادةً واقتراحاً ، فيما هو واضح في فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها ، وفي منهج الله تعالى (القرآن الكريم) الذي أنزله على رسوله ﷺ ..

نحن نعلم أنَّ الكلمة ﴿ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾ تعني محمّداً ﷺ ، ولكنّها تصفه من زاوية حمله لمنهج الله تعالى ، وهي صفة مجرّدة عن الجانب الشخصي له ﷺ ، وهي صفة تتعلّق بمنهج الله تعالى في كلِّ زمان ومكان ن وقد بيّنت ذلك بشكلٍ مفصّل في بعض كتبي الأُخرى ..... والقرآنُ الكريم يحملُ الكثيرَ من الآياتِ الكريمةِ التي تُصوِّرُ وجودَ صفةِ الرسالة في كُلِّ زمانٍ ومكان .. والآيةُ الكريمةُ التالية تُبيّنُ لنا هذه الحقيقة ..

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

.. فكافُ المُخاطَب في كلمةِ ﴿ يُحَكِّمُوكَ ﴾ تتعلّقُ بصفةِ الرسالةِ ، أيّ بأحكامِ كتابِ الله تعالى المُستنبطةِ منه في كلِّ زمانٍ ومكان .. ولا يُمْكنُ سجْنُ دلالاتِ هذه الآيةِ الكريمةِ في إطارِ الجيلِ الأوّل ، بحيث تُستثنى الأجيالُ اللاحقةُ إلى قيامِ الساعة ..

.. وفي النصِّ القرآنيّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .. لا يُمكنُ اقتصارُ دلالات الكلمة القرآنيّة **﴿ وَأنت ﴾** على شخصِ النبيّ ﷺ بحيث لا تتجاوزُ السنينَ التي قضاها ﷺ مع أفرادِ الجيلِ الأوّل .. فهذه الآيةُ الكريمةُ تحملُ دلالاتٍ ونواميسَ لكلِّ زمانٍ ومكان ، والمخاطَبُ هو صفةُ الرسالةِ المستمرّةِ في كلِّ زمانٍ ومكان ..

.. وما نذهبُ إليه ، نستطيعُ قراءتَه من الآيةِ الكريمة :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

.. فالعبارةُ القرآنيّةُ **﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾** ، تُخاطبُ المعنيّينَ بها في كُلِّ زمانٍ ومكان ، ومن الجحود تحجيمُ دلالاتِها بحيث لا تتجاوزُ أفرادَ الجيلِ الأوّل .. وكذلك الأمر بالنسبة لدلالاتِ العبارة القرآنيّة **﴿ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾** ، فآياتُ اللهِ تعالى تُتلى في كُلِّ زمانٍ ومكان .. وكذلك الأمرُ بالنسبة لدلالات العبارة القرآنيّة : **﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾** .. وكذلك الأمْرُ – أيضاً – بالنسبة لدلالاتِ العبارة : **﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ ﴾** .. فصفةُ الرسالةِ المعنيّة موجودةٌ في كُلِّ زمانٍ ومكان ، ومن الجحود بمنهجِ اللهِ تعالى حصرُها بزمنِ الجيلِ الأوّل ..

.. وما نذهبُ إليه ، نستطيعُ قراءتَه – أيضاً – من الآيةِ الكريمة :

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] ..

.. خطابُ اللهِ تعالى : **﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾** موجّهٌ لكلِّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكان ..... وحتى لو فرضنا – جدلاً – منهجيّةَ التفاسير الموروثة ، بأنَّ هذا الخطابَ موجّهٌ فقط لشخصِ محمّدٍ ﷺ في إطار التاريخ الذي عاشه .. لو فرضنا هذه المنهجيّةَ جدلاً .. كيف بنا أنْ نفهمَ العبارةَ القرآنيّة : **﴿ مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾** ؟!!! ..

فهل سيخرجُ الرسلُ السابقون من قبورهم ليسألهم ﷺ ؟!!! .. أليست المسألةُ مسألةَ رسالاتٍ موجودةٍ من خلالِ أحكامِها التي يستطيعُ الإنسانُ – في كلِّ زمانٍ ومكان – النظرَ إليها والتعرّفَ على حقيقتها ؟ ..

.. أمّا القول بأنَّ هذه الآية الكريمة تتعلّقُ بحادثة الإسراء والمعراج ، وبمقابلة الرسول ﷺ للرسل السابقين .. فهذا القولُ لا يُوجَدُ عليه أيُّ دليلٍ في سياقِ هذا النصّ ، وهو محاولةٌ – غيرُ موفّقة – لسجنِ دلالاتِ هذا النصِّ في إطار التاريخ ، من أجل عدم الاعتراف بكونِ صفةِ الرسالةِ – في كتاب الله تعالى – مُطلقةً تتجاوز أحداثَ التاريخ ..

لنعد إلى العبارة القرآنيّة ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ .. ففي حذف المفعول به الذي يقع عليه التقديم إطلاقٌ للمعنى ولحدود الخطاب ، وإشارةٌ إلى عدم خصوصيّته ، بحيث يتناول كلّ ما يمكن تصوّره من التقديم بين يدي الله تعالى (فطرة نقيّة وعقل مجرّد) ورسوله (منهج الله تعالى) ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، تؤكّد إطلاقَ النصّ ، وعدمَ خصوصيّته – كما يتصوّر معظمهم – للجيل الأوّل ممّن عاصر النبيّ ﷺ ..

إنَّ اليد في القرآن الكريم تأتي بمعنى القوّة والاستطاعة التي يملكها صاحب إرادة تحقيق الأمر ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] .. فما هو باليد يكون تحت سيطرة من بيده تنفيذ الأمر وتحت استطاعته وإرادته ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٧٣] .. وبين يدي الأمر يعني أمامه (ظاهره) ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصّلت : ٤٢] ..

وهكذا فالعبارة القرآنيّة ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ تعني أمام ظاهر إرادة الله تعالى ، تلك الإرادة التي تدركونها بعقولكم المجرّدة وفطرتكم النقيّة ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ ، وأمام ظاهر ما يحمله منهجه الذي أراده للبشر وأنزله على رسوله ﷺ ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ..

وهذا الإطلاق ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، الواقع تحت خطاب الله تعالى للمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، يقابله في الآية ذاتها إطلاقٌ آخر يُناظره تماماً ، هو الوجه الآخر للخطاب ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .. هذا التناظر نراه واضحاً جليّاً عبر التناظر بين مجموعي الحروف المرسومة المصوّرة لهذين الوجهين من الخطاب ، فكلٌّ منهما مكوّن من (٢٤) حرفاً ..

﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ = **٢٤** حرفاً

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ = **٢٤** حرفاً

فعدم التقدّم بين يدي الله تعالى ورسوله (وهذا ما يصوّره الركن الأوّل) ، هو من تقوى الله تعالى (وهذا ما يصوّره الركن الثاني) .. ومن جهة أُخرى فإنَّ تقوى الله تعالى تقتضي عدم التقدّم بين يدي الله تعالى ورسوله .. فعدم جعل المؤمنين وزناً وشاناً لأهوائهم وصبيّاتهم عند الله تعالى ومنهجه (الركن الأوّل) ، يقتضي عدم فعل ما يُنبّئ عن عدم التقوى (الركن الثاني) ، والعكس بالعكس ..

وهكذا نرى أنَّ الوجه الأوّل للخطاب (التقدّم) يصف الجانب الظاهري لقول المؤمنين وفعْلِهم ، في تفاعلهم المجرّد مع منهج الله تعالى ، وأنَّ الوجه الثاني للخطاب (التقوى) يصف الجانب الباطن لقول المؤمنين وفعلهم ، في تفاعلهم مع منهج الله تعالى ..

وفي التناظر الذي رأيناه بين الظاهر والباطن لأقوال المؤمنين وأفعالهم في تفاعلهم مع منهج الله تعالى إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ منسجمون في تفاعلهم مع منهج الله تعالى ، ما بين الظاهر ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، وما بين الباطن ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ..

وما نراه أنَّ النصَّ القرآنيَّ يأتي بصيغة الرسالة ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، ولم يأت بصيغة النبوّة كما سنرى في الآية الثانية من النصّ الذي بين أيدينا ، ولم يأت بأيِّ صيغة أُخرى .. فمن قدّم رأيه وهواه وعصبيّته على منهج الله تعالى الذي أنزله على رسوله

﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ يكون قد قدّمه على أمر الله تعالى ، ولذلك فاتّباع منهج الله تعالى هو اتّباعٌ لمراد الله تعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقد رأينا في النظريّة الأولى (المعجزة) التناظر التام بين ركني هذه المسألة ..

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ ﴾ = **١١** حرفاً

﴿ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ = **١١** حرفاً

إنَّ طاعة الرسول باتّباع منهج الله تعالى تؤدّي إلى طاعة الله تعالى ، ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ طاعة الله تعالى تقتضي اتّباع منهجه ..

فالآية الأولى بيّنت أمراً إلهيّاً يجمع تفعيل الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها والعقل المجرّد عن أيِّ هوىً ، مع منهج الله تعالى (القرآن الكريم) الذي أنزله على رسوله ﷺ .. بينما الآية الثانية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ ، نرى فيها :

- تبدأ بخطاب المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، وفي هذا دليل استقلاليّة محتوى أحكامها ودلالاتها ، عن محتوى أحكام ودلالات الآية الأولى .. فتكرار الخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بين الآيتين ليس عبثاً وليس حشواً ..

- الانتقال من صيغة الرسالة (منهج الله تعالى) في الآية الأولى إلى صيغة النبوّة ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ، حيث صفة النبوّة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ تصف جانب الخلاص لله تعالى ..

ولو اُستبدلت صيغة النبوّة ﴿ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ بصيغة الرسالة ، أي لو كانت هذه العبارة القرآنيّة على الشكل (فوق صوت الرسول) ، لَما أُضيئت الحقيقة المحمولة بهذه الآيةِ الكريمةٍ الإضاءَةَ ذاتها التي تضيئها صيغة النبوّة .. فمن الممكن أن يسمو المؤمن إلى درجة عالية (ولكنها دون الكاملة) بصفة الرسالة ، وذلك عبر دعوته الصادقة لله تعالى ،

حيث كِبَر هذه الدرجة تابعٌ لصدق الرسالة التي يحملها ، إضافة إلى جهده في الدعوة .. بينما السموّ في صفة النبوّة يحتاج إلى خلاصٍ لله تعالى في النفس ذاتها ، وصفة النبوّة أقرب إلى الجانب الشخصي الذاتي من صفة الرسالة ، وبالتالي أقرب إلى مسائل رفع الصوت والاحتكاك المباشر ، تلك المسائل المحمولة بهذه الآية الكريمة .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ ..

هذه الحقيقة نراها في الصورة القرآنيّة ..

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

فصفة الرسالة ليست موقوفة – كما هو الحال بالنسبة لصفة النبوّة – على بعض الأنبياء من البشر ، فالملائكة هم رسل الله تعالى ..

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ [العنكبوت : ٣٣]

وهناك من البشر من هو رسولٌ لبشر ..

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٠]

بينما مسألة تمثّل صفة النبوّة بمضمونها المطلق (١٠٠ / ١٠٠) في شخص ، انتهت عند خاتم النبيّين محمّد ﷺ .. وانتهت عنده ﷺ تمثّل صفة الرسول بمضمونها المطلق (١٠٠ / ١٠٠) ، وذلك بالنسبة للبشر فقط ، ولذلك فصفة الرسالة – ضمن إطارها العام – لم تنته بعد .. هذا العمق نستشفّه من الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ ..

فما نبتعد به من الدرجات على سلّم الرسالة والنبوّة ، بالنسبة لصفة النبوّة ، عن محمّد ﷺ ، أكبر بكثير ممّا نبتعد به عنه ﷺ بالنسبة لصفة الرسالة .. وهكذا فكون ارتقائنا على سلّم الرسالة والنبوّة بالنسبة لصفة الرسالة أكبر بكثير بالنسبة لصفة النبوّة ، يقتضي أنَّ بُعد

جانب صفوة النبوّة في صوتنا عن جانب صفة النبوّة في صوت محمّد ﷺ ، أكبر بكثير من بُعد جانب صفة الرسالة في صوتنا عن صفة الرسالة في صوته ﷺ ، وذلك على محور الرسالة والنبوّة ..

ولذلك نرى أنّ الصورة القرآنيّة ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ ، تأتي بصيغة النبوّة ، لإظهار هذا الفارق الكبير بين أصواتنا وصوت النبي ﷺ .. ولو أتت الصورة القرآنيّة مرتبطةً بصيغة الرسالة (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت الرسول) ، لكان الفارق بين الصوتين أقل ممّا تبيّنه العبارة القرآنيّة بصيغة النبوّة ..

وللجذر (ر ، ف ، ع) في القرآن الكريم عمقان :

- عمق مادّي يعني العلو في عالم الحسّ والمادّة ..

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ – ٢٨]

- عمق معنوي يعني العلوّ والسموّ في الروح وعالم الأمر ..

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤]

وللجذر (ص ، و ، ت) في القرآن الكريم عمقان أيضاً :

- عمق مادّي ساحته عالم المادّة والحس ..

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩]

- عمق معنوي ساحته النفس والفكر والإرادة ..

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٤]

فالشيطان لا يملك – كما نعلم – أيّ تأثير مادّي حسّي على الإنسان ، إنّما ينحصر تأثيره (صوته) في نفس الإنسان وفكره للتأثير على إرادته ..

وما يحدّد التعلّق الظاهر للكلمة (سواء الرفع أو الصوت) بالنسبة لكلٍّ من العمقين ، المادّي والمعنوي ، هو ماهيّة المسألة المرتبطة بالرفع والصوت ..

وكون فكر المؤمنين في تفاعلهم مع روح منهج الله تعالى ، مستمرّاً في كلّ زمانٍ ومكان ، وكون هذا المنهج هو حياة تعبديّة تُمارس في كلّ زمان ومكان ، وإطلاق بداية الآية الكريمة حيث تخاطب كلّ مؤمن في كلّ زمانٍ ومكان .. كلّ ذلك يؤكّد أنّ الرفع والصوت في هذه الآية الكريمة يتبعان للعمق المعنوي ، ولا يجوز حصرهما بالعمق المادّي الحسّي التاريخي ، فصوت المؤمنين هو فكرهم واعتقادهم ورأيهم وتصوّرهم ، وصوت النبيّ ﷺ هو كلّ هذه المسائل النابعة من خلاصه لله تعالى ونقائه ..

وفي الصورة القرآنيّة ﴿ **لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ** ﴾ بيانٌ أنّ للمؤمنين أصواتاً (آراءً وأفكاراً وتصوّرات) ، وهذه الأصوات هي بالتأكيد دون النبي .. فما يميّز صوت النبي عن أصوات المؤمنين ، هو ذاته ما يميّز صفة النبوّة الكاملة (١٠٠ / ١٠٠) عن خلاص أولئك المؤمنين ..

وفي إضافة الأصوات للمؤمنين ، مع استقلاليّة أصوات المؤمنين ﴿ **أَصْوَٰتَكُمْ** ﴾ عن صوت النبي ﴿ **صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ** ﴾ ، إشارة إلى أنّ مخالفة مُراد صوت النبي الواردة في هذه الصورة القرآنيّة هي ليست في الحوار حول فهم صوت النبي ﷺ ، وإنّما في وضع أصوات المؤمنين كبديل لصوت النبي ﷺ ..

وهذا الوجه من أوجه المخالفة لمراد صوت النبي ﷺ ، هو من أكبر أوجه المخالفة ، ودليل ذلك هو التناظر بين هذه الصورة القرآنيّة ، وبين نهاية الآية الكريمة ..

﴿ **لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ** ﴾ = **٢٥** حرفاً

﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾ = **٢٥** حرفاً

فرفع أيّ صوت إلى مستوى صوت النبيّ ﷺ للمسألة ذاتها ، هو وجهٌ من أوجه الشرك في الإيمان ، ورفع أيّ صوت فوق صوت النبي ﷺ هو وجهٌ من أوجه الكفر بالإيمان .. وكلّ ذلك يؤدّي إلى إحباط العمل ، لأنّ إحباط العمل يرتبط بالكفر والشرك ..

﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ** ﴾ [المائدة : ٥]

﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ [الزمر : ٦٥]

والوجه الآخر من أوجه مخالفة صوت النبيّ ﷺ ، هو ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ ..

إنَّ الجهر هو نقيض السّر والخفية ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر : ٦٥] .. والجهر هو رفع الصوت فوق الحدّ المطلوب ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : ١١٠] ..

والله تعالى لا يحبّ الجهر بالسوء ..

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ ﴾ [النساء : ١٤٨]

ولمّا كان صوت النبيّ حقّاً لا يأتيه الباطل ، فإنَّ المجادلة فيه أثناء التفاعل معه هي سوء ، لأنّها مجادلة لا ينبغي أن تكون مع الحق (صوت النبي) ، ولذلك ينهى الله تعالى عن هذه المجادلة ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ .. وكلمة ﴿ لَهُۥ ﴾ تدلّ على أنَّ ساحة المجادلة هي في التفاعل مع صوت النبي ، وليس بوضع صوتٍ بديلٍ لصوته كما هو الحال في الصورة القرآنيّة السابقة ، فالجهر له يعني إظهار السوء لصوته ﷺ ..

والصورة القرآنيّة ﴿ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ تُبيّن خصوصيّة صوت النبيّ ﷺ ، وأنّه فوق المجادلة وفوق الآراء والتصوّرات ، وتبيّن في الوقت ذاته أنَّ أصوات البشر (آراءهم وتصوّراتهم) مهما كان هؤلاء البشر يجوز الجهر لها بالقول ، أي تجوز مجادلتها بالحجّة والبرهان وإخضاعها للتصوّرات والآراء ، فهي صادرة عن بشر ليسوا خالصين لله تعالى خلاص النبيّ ﷺ ..

إنَّ المنهج التربوي للمؤمنين – في كلّ زمانٍ ومكان – في تفاعلهم مع منهج الله تعالى ، والذي رأيناه في الآيتين الأولى والثانية ، يتدرّج بهم سموّاً على سلّم الرسالة والنبوّة ، ليصلوا إلى ما تصوّره الآية الثالثة .. فعدم وضع المؤمن نفسه أمام الفطرة النقيّة والعقل المجرّد ومنهج الله تعالى ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ يسمو بالمؤمن إلى درجة أعلى على سلّم الرسالة والنبوّة ، فلا يجعل فكره وتصوّراته (صوته) فوق صوت النبي ﷺ ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ .. وبعد ذلك يسمو المؤمن على سلّم الرسالة

والنبوّة إلى درجة أعلى ، فلا يجهر ولا يجادل بالنبي كجهره ومجادلته لفكر غيره من البشر وتصوّراته ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ .. وبعد ذلك يسمو المؤمن على سلّم الرسالة والنبوّة إلى درجة أعلى ، فيغضّ من صوته (فكره وتصوّراته) أمام منهج الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ..

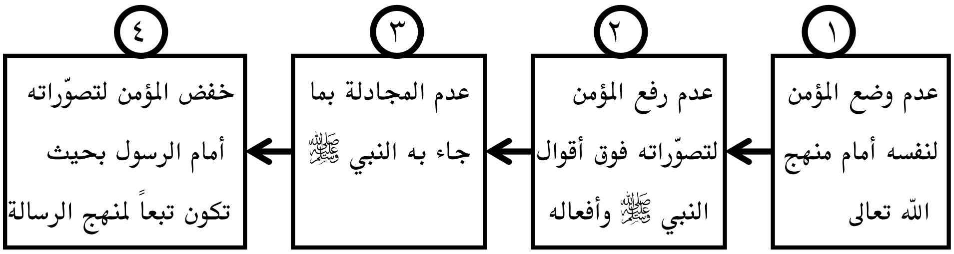

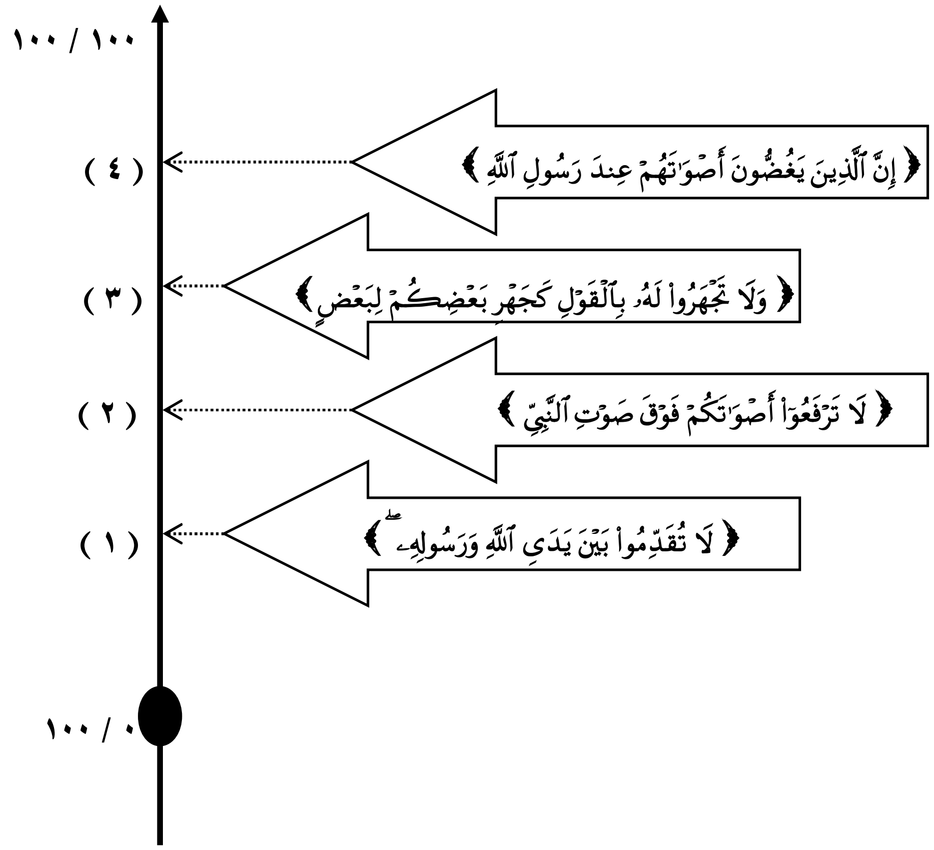

((محور سلّم الرسالة والنبوّة))

إنّ الغضّ من الشيء هو خفضه والحدّ منه ..

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور : ٣٠]

ولكلمة ﴿ عِندَ ﴾ في القرآن الكريم عمقان :

عمق مادّي محكوم للمكان والزمان ..

﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٩١]

عمق معنوي مجرّد عن المكان والزمان ..

﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم : ٧٨]

وما يحدّد العمق الأقرب لكلمة ﴿ عِندَ ﴾ هو المسالة التي أُضيفت إليها ..

وفي الآية الثالثة من النصّ نرى أنَّ العمق المعنوي المجرّد عن التاريخ والزمان والمكان ، هو الأقرب لكلمة ﴿ عِندَ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ، وذلك بسبب إطلاق الخطاب القرآني في الآيات الثلاث الأولى من النص ، وعدم تأطيره – كما رأينا – في إطار المكان والزمان والتاريخ ..

وهكذا فالصورة القرآنيّة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ تصوّر لنا درجة عليا من درجات السموّ على سلّم الرسالة والنبوّة ، وهي أن يضع المؤمن أفكاره وتصوّراته (صوته) خلف منهج الله تعالى ، بحيث تكون تبعاً لمنهج الله تعالى .. ولمّا كانت هذه الدرجة من السمو الإيماني تتميّز باتّباع منهج الرسالة ، نرى – كما هو الحال في الآية الأولى – ورود صيغة الرسالة دون أيّ صيغة أُخرى ، فما يجب عدم التقدّم أمامه ، وخفض الصوت عنده بحيث يكون خلفه ، هو محتوى الرسالة ..

وامتحان المؤمن هو اختباره بهدف حصول علم المشاهدة الإيمانيّة ، أي ترجمة إيمانه إلى شواهد حسيّة ظاهرة ..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ ﴾ [الممتحنة : ١٠]

إنّنا نرى أنَّ النصَّ القرآني يؤكّد إيمانهن ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ ، وبالتالي فالعبارة ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ ﴾ - التي تتعلّق بنتيجة الامتحان – تعني إن وقفتم على حقيقة إيمانهن ، بأن شاهدتم ترجمة إيمانهن إلى أعمالٍ حسيّة ظاهرة ، ولا يعني إن كنّ مؤمنات ، فهن مؤمنات كما يقول النصّ القرآني ..

ولذلك فإنَّ الامتحان في الصورة القرآنيّة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ في الآية الثالثة من النصّ الذي ندرسه ، يعني حصول علم الله تعالى المشاهِد في إطار المكان والزمان ، لإيمانهم الكائن في قلوبهم .. وذلك بغية وصولهم إلى درجة التقوى ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ، وذلك بعد سموّهم – كما رأينا – إلى هذه الدرجة على سلّم الرسالة والنبوّة ..

وما يؤكّد تقواهم ودرجتهم العالية على سلّم الرسالة والنبوّة هو نهاية الآية الكريمة ، التي تؤكّد حصولهم – بعد وصولهم إلى هذه الدرجة الكبيرة من التقوى – على المغفرة والأجر العظيم ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ..

فبالتزام المؤمن ، وتنفيذه لأحكام الآيات الثلاث الأولى ، حيث الخطاب للمؤمنين ، سموٌّ على سلّم الرسالة والنبوّة إلى درجة عالية .. ولهذه الدرجة العالية على سلّم الرسالة والنبوّة درجةٌ مناظرة لها في الجهة السالبة على هذا السلّم ، يهبط إليها الذين يعملون بنقيض الأحكام التي تحملها الآيات الثلاث الأولى ..

وهؤلاء العاملون بنقيض هذه الأحكام التي تحملها الآيات الثلاث الأولى ، في كلِّ زمانٍ ومكان ، والبعيدون عن سماع النداء القرآني ، لا يُجدي معهم الخطاب المباشر كما هو الحال في الآيات الثلاث السابقة ، لذلك نرى أنَّ وصف حالهم يأتي في الآية الرابعة ، من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ، حيث يتربّع ﷺ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ..

في الآيات الثلاث الأولى ، يُوجَّه الخطاب للمؤمنين عبر منظار دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾

وبالتالي لصورة الخطاب في هذه الآيات إسقاطات على كامل المحور ، منها ما هو أعلى من صورة الخطاب ، ومنها ما هو أدنى ، وذلك حسب التزام المؤمنين بمضمون هذا الخطاب ..

بينما في الآيتين الرابعة والخامسة ، يتمّ – كما سنرى – تصوير الموانع (الحجرات) التي تحجز بعض البشر – أثناء تفاعلهم مع منهج الله تعالى – عن حقيقة هذا المنهج ومراده .. وهذه الحجرات نسبيّة ، فبُعد أيّ درجة من درجات محور الرسالة والنبوّة عن قمّة هذا المحور ، هو حاجز (حجرة) بين هذه الدرجة وبين قمّة المحور .. فكلّما ابتعد الإنسان على محور الرسالة والنبوّة بالاتّجاه السالب ، كبرت هذه الحجرات ، حيث تبلغ ذروتها في أسفل هذا المحور .. وكلّما اقترب الإنسان من قمّة محور الرسالة والنبوّة ، تصغر هذه الحجرات ، حيث تتلاشى عند تلك القمّة ..

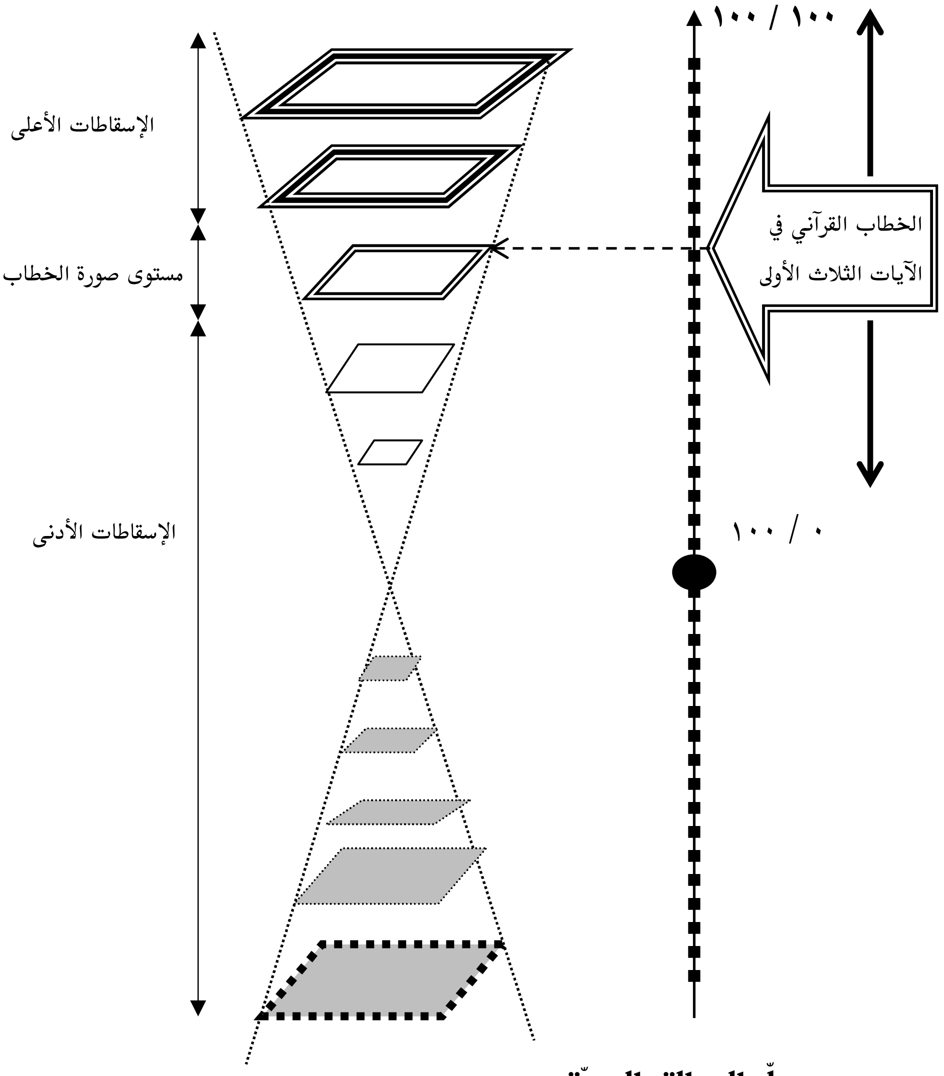

((محور سلّم الرسالة والنبوّة))

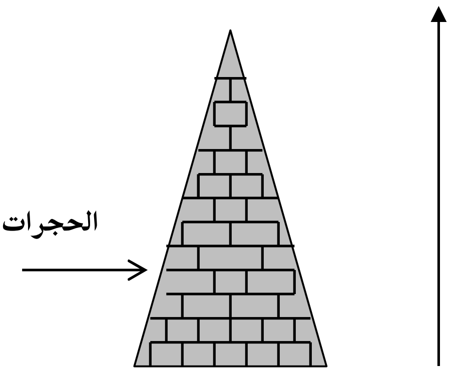

((محور سلّم الرسالة والنبوّة))

ولّما كانت النقطة الوحيدة التي تتلاشى فيها الحجرات – كما رأينا – هي قمّة محور الرسالة والنبوّة ، نرى أنَّ صورة الخطاب في هاتين الآيتين (الرابعة والخامسة) تأتي من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ، لتكون جميع إسقاطاته على هذا المحور أدنى من صورة الخطاب ، وذلك بسبب الحجرات التي تحول بين المُنادي وبين حقيقة المُنادَى (قمّة محور الرسالة والنبوّة) ..

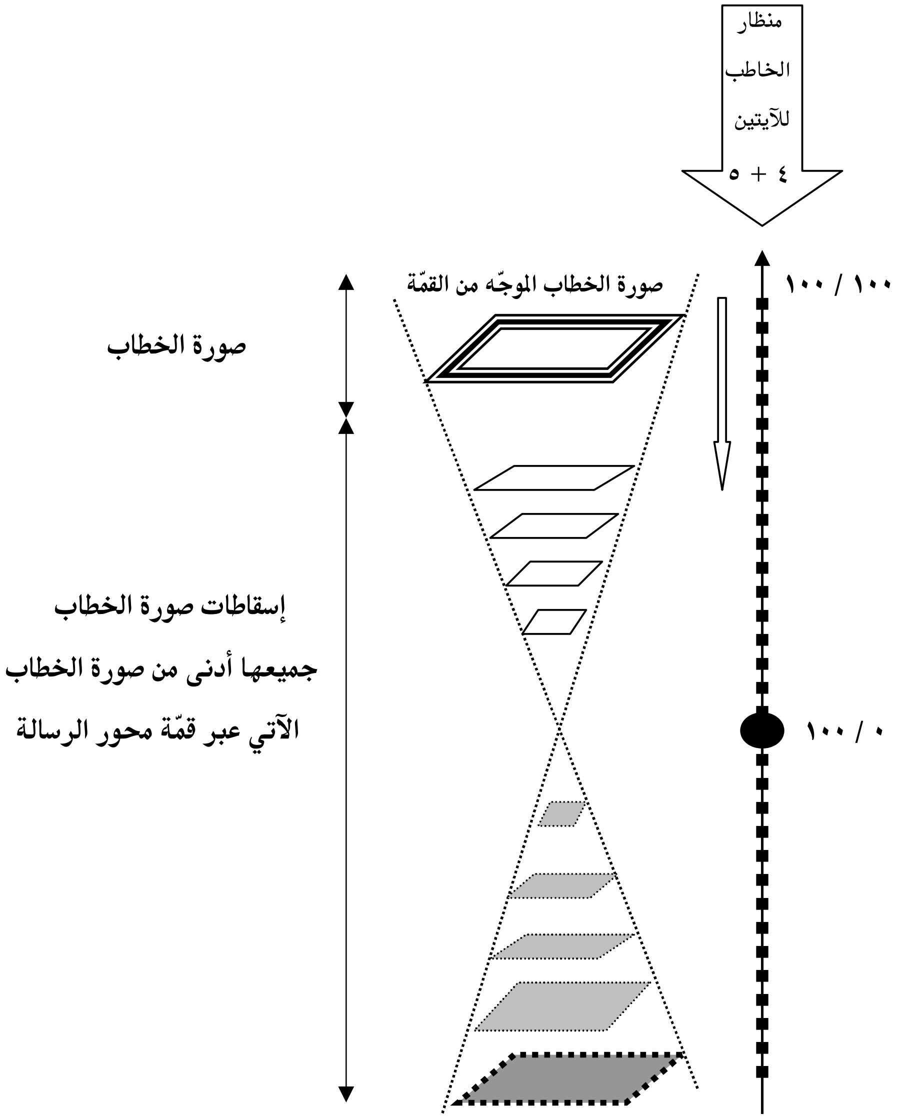

وفي الآية الرابعة من النصّ ، لماذا تأتي صيغة النداء ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ بدلاً من صيغة الخطاب ، أو الكلام ؟ .. ولماذا تأتي الكلمتان ﴿ مِن وَرَآءِ ﴾ بدلاً من الصياغة (من خلف) ؟ .. ولماذا لم تُضف كلمة ﴿ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ إلى الرسول ﷺ أو إلى غيره ؟ ..

للنداء وجهان ، وذلك حسب علوّ أو دنو المنادِي من المنادَى ..

المُنادِي أعلى من المُنادَى .. حين ذلك تغلب على النداء صفة التنبيه والتذكير ، وذلك دون طلب حاجة يفتقرها المُنادي ..

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٤]

فأهل الجنّة أعلى شاناً من أهل النار ، ونداؤهم لأهل النار هو من أجل تذكيرهم ، وليس من طلب حاجة منهم ..

المُنادِي أدنى من المُنادَى .. حين ذلك تغلب على النداء صفة طلب الحاجة ..

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٠]

ويكون النداء برفع الصوت والجهر به ، دون الذهاب إلى المُنادَى ..

وفي النصّ الذي بين أيدينا نرى أنَّ المُنادِي أدنى من المنادَى ، ولذلك يجب أن يكون النداء بهدف طلب الحاجة ... فما هي حاجة هؤلاء من ندائهم هذا ؟ .. للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من معرفة عمق الموقع الذي تمّ النداء من خلاله .. هذا الموقع تبيّنه لنا العبارة ﴿ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾ ، فإلى ماذا ترمز هذه العبارة ؟ ..

وراء الشيء يعني خلفه بوضعٍ مخفيٍّ ..

﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ ﴾ [الحشر : ١٤]

ويواري الشيء يخفيه ..

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ﴾ [المائدة : ٣١]

وأصل الحجر هو المنع ..

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٨]

ولذلك فوجود فلان في كنفٍ فلانٍ آخر وتربيته ، حيث يمنعه من عدم الانضباط ، يعني وجوده في حجره ..

﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [النساء : ٢٣]

ولذلك فالعقل الذي يمنع النفس من وقوعها فيما لا ينبغي لها أن تقع فيه ، يُسمّى حجر ..

﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر : ٥]

وهكذا .. نرى في الصورة القرآنيّة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ ارتباطاً كاملاً بالآيات الثلاث الأولى ، وإطلاقاً كاملاً فوق الزمان والمكان والتاريخ ، وذلك من عدّة وجوه ..

(**١**) – هؤلاء الذين يعملون بنقيض الآيات الثلاث الأولى ، إنّما يُنادون منهج الرسالة ، دون أن يذهبوا إلى هذا المنهج ، ودون أن يعطوه حقَّه من التدبّر ، وهذا ما يتوافق مع صيغة النداء التي تعني رفع الصوت والجهر به دون الذهاب إلى المنادَى .. ولو أتت بداية الآية الكريمة بصيغة الخطاب (إنَّ الذين يخاطبونك) ، لتناقض ذلك مع ماهيّة تفاعل هؤلاء مع منهج الله تعالى ، فهم لم يذهبوا إلى هذا المنهج ، ولم يهتمّوا به ، إنّما وضعوا أنفسهم أمامه ، ورفعوا أصواتهم فوقه ، وجهروا له بالقول والجدال ، وهذا تناسبه صيغة النداء دون الخطاب .. وهذه الصورة لها إسقاطٌ في كلِّ زمانٍ ومكان ، فكثيرون هم الذين يتفاعلون مع منهج الله تعالى من هذا المنظار ..

(**٢**) – معلومٌ أنَّ النداء – كما رأينا – حينما يكون من الأدنى للأعلى ، يكون لطلب حاجّة يريدها المُنادِي ممّا هو أعلى منه ن وحينما يكون من الأعلى للأدنى يكون لتذكير الأدنى وتنبيهه .. ولا شكَّ أنَّ هؤلاء هم الأدنى من المُنادِي الذي ينادونه ، ولذلك من المفروض أن يكون نداؤهم لطلب حاجة يريدونها ن وليس للتذكير والتنبيه .. ولكنَّ هؤلاء بوضْعِ أنفسِهم أمام منهج الله تعالى ، وبرفع أصواتهم فوق صوته ، إنّما يريدون

وضْعَ أنفسِهم بموقفٍ أعلى من منهج الله تعالى ، وبالتالي يريدون عكس صفة النداء ليكون من أجل التذكير والتنبيه ن وكأنَّ صوهم الوضعي أعلى من صوت منهج الله تعالى .. وكم من إسقاطٍ في كلِّ زمانٍ ومكان لهذه الحالة ؟ .. فكثيرون هم الذين ينظرون إلى منهج الله تعالى من هذا المنظار ن في كلِّ زمانٍ ومكان ..

(٣) – هؤلاء الذين ينادون ويعملون بنقيض ما تأمر به الآيات الثلاث الأولى ، إنّما شكّلوا بذلك موانع (حجرات) معنويّة ، تمنعهم من الوصول إلى حقيقة هذا المنهج .. وهذه الحجرات موجودة في كلِّ زمانٍ ومكان ، فكثيرون هم – في كلِّ زمانٍ ومكان – الموجودون وراء هذه الحجرات المعنويّة بالنسبة لمنهج الله تعالى ..

(٤) – في تعريف كلمة الحجرات بأل التعريف ﴿ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ ، إشارة إلى أنَّها معلومة في زمانٍ ومكان .. وتعلُّق تعريفها – كما قلنا – هو ذكر الموانع (الحجرات) التي ينهى الله تعالى عنها في الآيات الثلاث الأولى .. وفي عدم إضافتها إشارة إلى إطلاقها في كلّ زمانٍ ومكان ..

(٥) – في الكلمتين ﴿ مِن وَرَآءِ ﴾ ، تأكيدٌ لما ذهبنا إليه ، فمن وراء الشيء – كما رأينا – خَلفه بوضْعٍ مخفيٍّ لا يظهر فيه .. فالصورة القرآنيّة ﴿ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ ، تعني خلف الموانع المعنويّة التي تمنعهم من الوصول إلى منهج الله تعالى ، بشكلٍ مخفيٍّ ، لا يظهرون فيه .. وكم من إسقاطٍ في كلِّ زمانٍ ومكان لأمثال هؤلاء ؟ ..

وهكذا .. فالحجرات ليست محصورةً بتاريخيّة النبيّ ﷺ وبموانع ماديّة حسيّة ، وهي تعني – من المنظار المجرّد عن التاريخ – حواجز معنويّة ، تُوجَد نتيجة عمل هؤلاء بنقيض ما تأمر به الآيات الثلاث الأولى ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ التي تصف حال هؤلاء الذين ينادون منهج الله تعالى من وراء الحجرات ، تؤكّد إطلاق النصّ فوق الزمان والمكان .. فأكثر الناس في كلِّ زمانٍ ومكان يتّبعون أهواءهم ، ولا يستخدمون عقولهم في تفاعلهم مع منهج الله تعالى ، وبالتالي فأكثر الناس يعملون بنقيض ما تأمر به الآيات الثلاث الأولى من

النصّ .. والآيات الكريمة التالية تؤكّد هذه الحقيقة ، فترسم حقيقة أعمال أكثر الناس المناقضة لما يستحقّه منهج الله تعالى من تدبّرٍ وعمل ..

﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : ١٧]

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣]

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤]

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣]

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٨]

ولّما أكثر هؤلاء الموجودين وراء هذه الحجرات لا يعقلون ، فإنَّ أكثرهم لا يضع حدّاً لهوى نفسه ، ولا يجعلها تابعة للعقل .. وبالتالي فإنَّ أكثرهم لا يصبر على كبح جماح نفسه فيمنعها من النداء السلبي لمنهج الرسالة من وراء الحجرات .. فاختفاؤهم وراء تلك الحجرات ، ونداؤهم لمنهج الرسالة من ورائها ، وبالتالي وجود أنفسهم في دياجير الظلام من وراء تلك الحجرات .. كلُّ ذلك ناتجٌ عن عدم صبرهم ، وعن ترك أنفسهم تسبح في ظلمات المعصية دون أن يروا نور منهج الرسالة ..

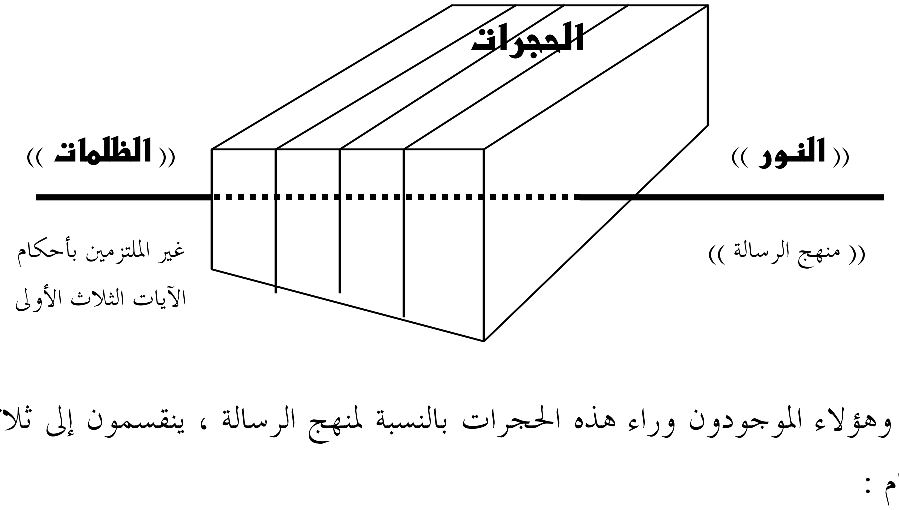

وهؤلاء الموجودون وراء هذه الحجرات بالنسبة لمنهج الرسالة ، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

(١) – قسم سيعقلون أحكام الله تعالى لاحقاً وسيعملون بها ، وبالتالي ستتلاشى هذه الحجرات من أمامهم ، فيخرجون بأنفسهم من دياجير الظلام إلى نور منهج الرسالة .. وهذه الفئة هي الأقليّة العاقلة من هؤلاء ، وهي ما تبقّى من الأكثريّة غير العاقلة ، ففي قوله تعالى ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إشارة إلى أنَّ هناك أقليّة – مستثناة من الكليّة – ستعقل لاحقاً ، وذلك من مجموعة المنادين من وراء الحجرات ..

(٢) – قسم من الأكثريّة غير العاقلة يبقى سابحاً في دياجير الظلام ، منصاعاً لهوى نفسه ، فلا يصبر على كبح هوى نفسه ، وهذه الفئة لا سبيل لها إلى رؤية نور منهج الهداية ، وهي الفئة التي ستستمرّ في عملها بنقيض أحكام الآيات الثلاث الأولى ..

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦]

(٣) – القسم المتبقّي من الأكثريّة غير العاقلة ، ويمثّل مجموعة المتبقّين من الذين لا يعقلون بأنفسهم حقيقة منهج الرسالة ، ولكنّهم يصبرون على كبح جماح أنفسهم ، وهم الذين أوقفوا نداءهم لمنهج الرسالة من وراء الحجرات ، منتظرين خروج نور الهداية إليهم .. فالصبر يؤدّي إلى خروج نور الهداية إلى الصابر ..

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ ﴾ [السجدة : ٢٤]

فالخروج من دياجير الظلام خلف الحجرات ، يحتاج إمّا إلى تعقّل (القسم الأوّل) ، وإمّا إلى الصبر والسماع لانتظار نور منهج الرسالة (القسم الثالث) .. فالذي لا يسمع ولا يصبر ولا يعقل (القسم الثاني) لن يرى نور منهج الهداية ..

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠]

فهذه الآية تبيّن لنا أنَّ التعقّل لوحده (القسم الأوّل) ، أو السماع والصبر لوحده (القسم الثالث) ، يُخرج من الظلمات إلى النور ، ودليل ذلك هو كلمة ﴿ أَوْ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ ..

ومسألة الخروج ليست محصورة بالجانب المادّي الحسّي ، فالخروج والإخراج يكون أيضاً لمسائل معنويّة روحيّة فوق الحسّ والمادّة ..

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٥٧]

إذاً هؤلاء الذين لا يعقلون الحقيقة بأنفسهم (ليسوا من القسم الأوّل) ، بقي لهم — حتى يخرجوا من دياجير الظلام ويروا نور منهج الرسالة — أن يكونوا من القسم الثالث ، وذلك بأن يصبروا ويسمعوا ويكفّوا عن مناداتهم لمنهج الرسالة من وراء الحجرات ، وذلك حتى يخرج إليهم (بموقف تعقّل أو سماع) نور منهج الرسالة محطّماً تلك الحجرات .. ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .. فالذين يفعلون ذلك — من مجموعة المنادين من وراء الحجرات — يخرج إليهم نور منهج الرسالة من وراء تلك الحجرات .. فصبرهم وعدم ندائهم من وراء الحجرات لمنهج الرسالة ، يؤدّي إلى خروج هذا المنهج إليهم ..

وهذا الصبر الذي صبروه ، وهذا الخروج لنور منهج الرسالة إليهم ، هو خيرٌ لهم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ ﴾ ، وحين ذلك فإنَّ الله تعالى يغفر لهم ما نادوا به من وراء الحجرات قبل صبرهم ، لأنّهم رجعوا عنه ن وعملوا ما هو خير ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ..

وهكذا نرى عبر الإبحار في أعماق هذا النصّ القرآني ، أنَّ لهذا النصّ ذاته معانٍ وأعماقاً مطلقة مجرّدة عن التاريخ والزمان والمكان ، لكلِّ عمقٍ منها إسقاطٌ في كلِّ نفسٍ من نفوس البشر ، حسب تفاعلها مع منهج الله تعالى ، وحسب درجتها على سلّم الرسالة والنبوّة ..

وحتّى لو نظرنا إلى النصّ من زاوية الجانب الحسّي المادّي ، معتبرين أنَّ الحجرات هي حواجز ماديّة محسوسة (غرف) ، وأنَّ الخروج هو خروجٌ حسيٌّ ماديٌّ من داخل هذه الغرف للخارج حيث يُنادي المنادي .. لو نظرنا إلى النصّ من هذه الزاوية ، لرأينا أنَّ النصَّ يرسم لكلِّ مؤمن ومؤمنة في كلِّ زمان ومكان ، منهج الدب في نداء الزائر لأهل

البيت .. فحتّى من هذه الزاوية ، تُوجَد لأحداث هذا النص رموز وإسقاطات تتكرَّر في كلِّ زمانٍ ومكان ..

ولنقف عند النصّ القرآني التالي ..

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢١ – ١٢٦]

.. لقد اختلف المفسّرون في اليوم الذي تصفه بداية هذا النصّ ، وفيما يلي أنقل من تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمّد الرازي فخر الدين ، أنقل حرفيّاً النصّ التالي من تفسير الآية الأولى في هذا النص ..

[[اختلفوا في أنَّ هذا اليوم أي يوم هو ؟ .. فالأكثرون أنّه يوم أُحد ، وهو قول ابن عباس والسدي وابن إسحاق والربيع والأصم وأبي مسلم ، وقيل : إنّه يوم بدر ، وهو قول الحسن ، وقيل : إنّه يوم الأحزاب وهو قول مجاهد ومقاتل ....]] ..

لا شكَّ أنَّ للنصّ إسقاطاً مكانيّاً زمانيّاً تاريخيّاً – بالنسبة للجيل الأوّل – يشمل معركتي أُحد وبدر وأيّ معركة ، ولا شكَّ أنَّ هذا النصَّ يضيء حقائق عميقة من ماهيّة تلك المعارك .. ونحن لا ننكر الأعماق الحسيّة التاريخيّة لآيات هذا النصّ أو لغيره – كما يفتري بعضهم – ولكنّنا ننكر سجن دلالات النصّ القرآني ومعانيه ضمن إطار التاريخ والزمان والمكان ، بحيث لا تخرج عن حدود هذا التأطير التاريخي .. فهذا النصّ القرآنيُّ من الزاوية المجرّدة عن التاريخ والزمان والمكان التي ننظر منها في تصوّرنا التفسيريّ هذا ، هو فوق التاريخ والزمان والمكان ، ولا تختلف معركة أحد وبدر والأحزاب وغيرها عن أيِّ

معركة من المعارك بين المؤمنين والكفّار ، بالنسبة لما يحمله هذا النصّ من دلائل ومعانٍ مجرّدة ..

إذاً سنبحر إن شاء الله تعالى داخل هذا النص ، عبر مركبٍ مجرّدٍ عن التاريخ والزمان والمكان ، سالكين سبيل منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾ الذي رأيناه في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) ، ناظرين إلى كلٍّ كلمة من كلمات هذا النصّ من منظار باقي الكلمات القرآنيّة التي تشترك معها بالجذر ذاته ..

إنَّ مسألتي الغدو والأهل ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ليستا محصورتين بالجانب المادّي ، فهما مسألتان تأتيان أيضاً كمسائل معنويّة مجرّدة عن المادّة وعلائقها ..

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣]

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴾ [القلم : ٢٥]

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦]

وكذلك كلمة ﴿ تُبَوِّئُ ﴾ ليست محصورة بالجانب المادّي الحسّي ، وتأتي كمسألة معنويّة فوق المادّة والحس ..

﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة : ٩٠]

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : ٢٩]

وكذلك كلمة ﴿ مَقَـٰعِدَ ﴾ كفرع من الجذر (ق ، ع ، د) ، ليست محصورةً بالجانب المادّي ، وتأتي كمسألة معنويّة فوق الحسّ والمادّة ..

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦]

وفي كلمة المؤمنين المعرّفة بأل التعريف ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وجهٌ من أوجه الإطلاق ، فلا أحد يستطيع الجزم بأنَّ هذه الكلمة ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تخصّ جيلاً دون آخر ..

ولّما كان المؤمنون على محور الرسالة والنبوّة في درجاتٍ هي دون قمّة هذا المحور ، ولن يصلوا هذه القمّة باستثناء محمّد ﷺ ، ولّما كان الخطاب في هذه الآية يُحدّد الدرجات

(المقاعد) لجميع المؤمنين ، ليكون له إسقاطٌ على كلّ درجة من درجات هذا المحور .. نرى أنّ الخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة يأتي من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ** ﴾ ، ليرسم على كلّ درجة من درجات هذا المحور إسقاطاً يتناسب مع هذه الدرجة ، ولتكون جميع إسقاطات صورة هذا الخطاب على محور الرسالة والنبوّة أدنى من صورة الخطاب ، وليبقى المؤمنون في سموٍّ وعلوٍّ على هذا المحور ، سموّاً وعلوّاً قمّتُهُ صورة الخطاب القرآني ..

وهكذا .. تحمل الآية الكريمة – إضافة للدلالات التاريخيّة – معنىً مجرّداً عن التاريخ والمكان والزمان هو : إذ انطلقت سموّاً وعلوّاً إيمانيّين في كينونتك ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ** ﴾ .. فمن أهليّتك لهذا السموّ والعلو كونك على قمّة محور الرسالة والنبوّة ﴿ **مِنْ أَهْلِكَ** ﴾ تضع وترسم وتحدّد ﴿ **تُبَوِّئُ** ﴾ للمؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكان ﴿ **ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ درجاتٍ للسموِّ والعلوِّ الإيماني على سلّم الرسالة والنبوّة ﴿ **مَقَـٰعِدَ** ﴾ لقتال المؤمنين وجهادهم في سبيل الله تعالى ﴿ **لِلْقِتَالِ** ﴾ .. والله تعالى يسمع في كلِّ زمانٍ ومكان ظاهر قولكم في هذه المسالة ، ويعلم حقيقة نيّاتكم ﴿ **وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ..

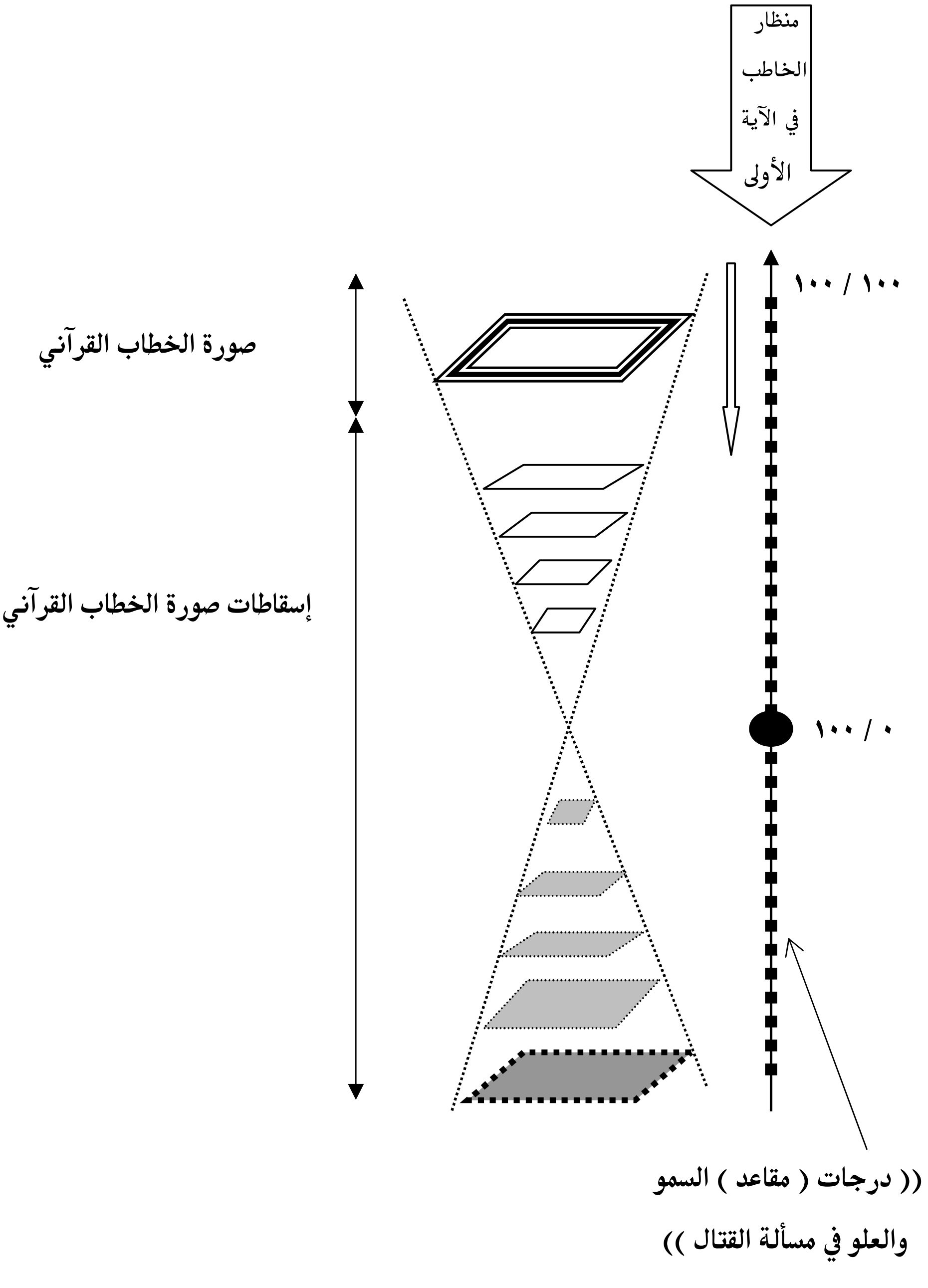

فالفعل غدا – من هذا المنظار المجرّد عن التاريخ – في العبارة القرآنيّة ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ يحمل معنىً معنويّاً فوق المادّة والحس ، وهو فعل ماضٍ ناقص ، خبره جملة ﴿ تُبَوِّئُ ﴾ ،

والجار والمجرور ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، متعلّقان بالفعل ﴿ تُبَوِّئُ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَهْلِكَ ﴾ ، تعود لكينونة رمز مطلق الرسالة والنبوّة ، ولا علاقة لغيره بها ... وهنا سؤالٌ يطرح نفسه .. لماذا قُدِّم الجار والمجرور ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ على الفعل ﴿ تُبَوِّئُ ﴾ ؟ ..

إنَّ التقديم والتأخير في القرآن الكريم هو لحكمة مُرادة من الله تعالى ، ويتعلّقان بالتصوير القرآني لحقيقة المسألة المصوَّرة .. وتقديم الجار والمجرور على الفعل في الآية الأولى ﴿ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ﴾ يُفيد إظهار ساحة المُقَدَّم ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ وحصر عمل الفعل في هذه الساحة فقط .. بينما لو أتت العبارة القرآنيّة على الشكل (تبوّئ من أهلك) لكان التبوّؤ يشمل عدّة ساحات ، وساحة الأهل ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ هي ساحة من هذه الساحات ..

.. فالصورة القرآنيّة ﴿ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ﴾ تبيّن لنا أنَّ تبوّأ المؤمنين مقاعد للقتال مسألة محصورة ضمن ساحة ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ .. فصعود المؤمنين درجات على سلّم السموّ والعلوّ الإيماني (محور الرسالة والنبوّة) في مسألة قتالهم في سبيل الله تعالى ، محصورٌ بساحة تعلّقهم بإسقاطات قمّة السموّ والعلوّ الإيماني ، الذي يمثّل ﷺ أهله وقمّته ، في نفوس أولئك الذين يريدون السموّ والعلوّ درجات (مقاعد) على سلّم الرسالة والنبوّة ..

وهكذا .. فالخطاب القرآني يأتي عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة فيقول : إنّك ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾ أهلٌ ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ لأن ترسم وتحدّد ﴿ تُبَوِّئُ ﴾ حقيقة المؤمنين ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في سموّهم وعلوّهم درجاتٍ على محور الرسالة والنبوّة ﴿ مَقَـٰعِدَ ﴾ في مسالة قتالهم وجهادهم ﴿ لِلْقِتَالِ ﴾ ، وسَمْعُ الله تعالى وعلْمه يحيطان بظاهر هذه المسالة وباطنها ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ..

وتأتي الآية الثانية من هذا النصّ مخاطبةً المؤمنين مباشرةً دون منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ، لتصوّر حقيقة المؤمنين في صعودهم وهبوطهم على سلّم السموّ والعلو الإيماني في

مسألة قتالهم ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ..

فلهذا الخطاب الموجّه دون القمّة ، إسقاطاتٌ في نفوس المؤمنين ، منها ما هو أعلى من منظار الخطاب ، ومنها ما هو أدنى ، وذلك حسب تفاعل المؤمنين أثناء قتالهم وفق صورة هذا الخطاب القرآني الذي هو دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ..

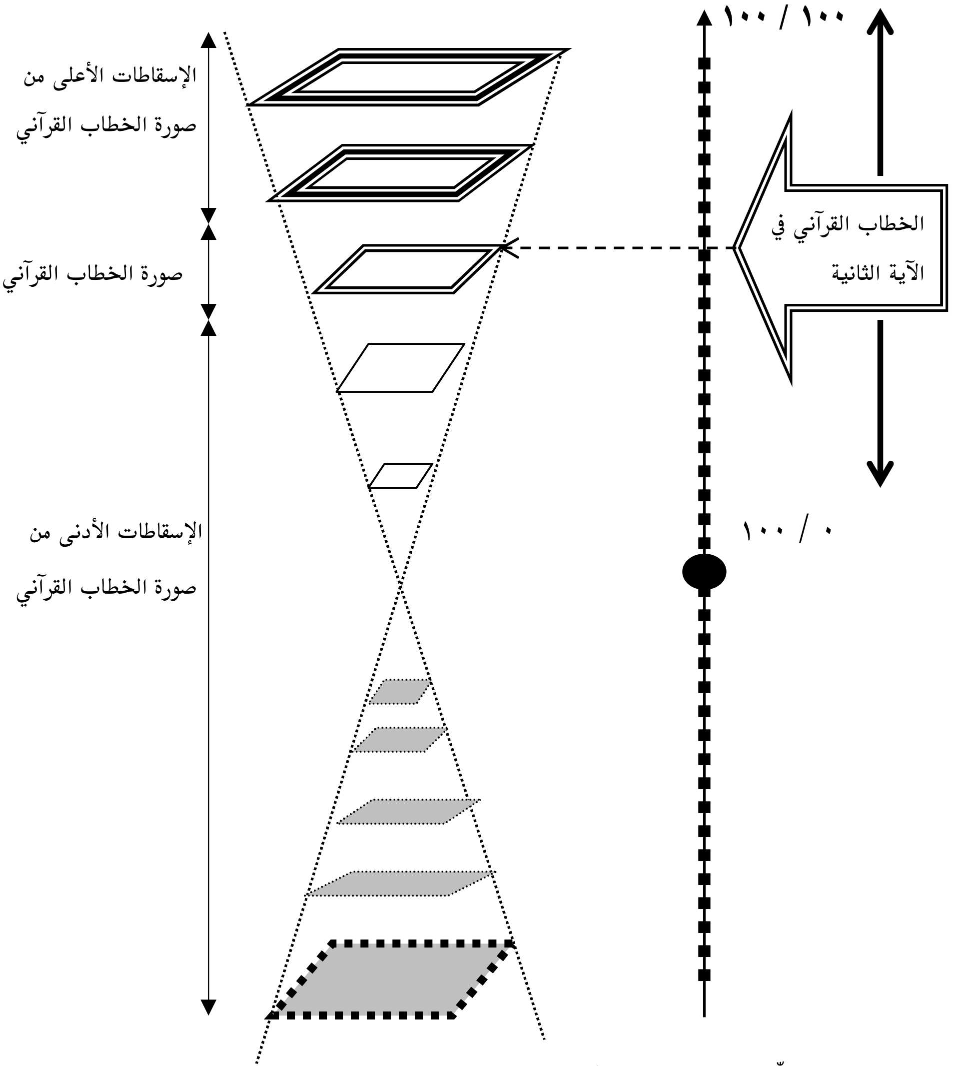

((**محور سلّم الرسالة والنبوّة**))

إنَّ الهمَّ بمسألة ما هو تحرّك الخاطر تحرّكاً يوجّه العزيمة والقصد ويدفع العمل نحو القيام بهذه المسألة ، أي اشتغال النفس للعمل بهذه المسألة اشتغالاً تغفل فيه عمّا سواها ..

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ ﴾ [النساء : ١١٣]

ومشتقّات الجذر (ط ، و ، ف) تدور داخل إطار الدوران حول الشيء ..

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩]

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٤]

فالطوفان هو فيضٌ يحيط بالشيء من كلِّ جوانبه ..

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤]

ولهذا الجذر عمقان :

عمق مادّي حسّي نراه جليّاً في الصورة القرآنيّة :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ ﴾ [النساء : ١٠٢]

عمق معنوي فوق المادّة والحس نراه جليّاً في الصورة القرآنيّة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١]

والفشل هو تبدّد القصد الواحد والعزيمة الواحدة والهدف الواحد ، نتيجة الاختلاف والتنازع في سُبُلٍ مختلفة تُشتِّت الهدف والعزيمة ..

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

وهاتان الطائفتان اللتان همّتا بالفشل ، هما داخل إطار ولاية الله تعالى لهما ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ ﴾ ، وهذا ينفي توجّه الخاطر والقصد نحو الجبن والخور والانشغال فيهما ..

وفي تنكير كلمة ﴿ طَآئِفَتَانِ ﴾ إشارةٌ إلى عدم تحديد هاتين الطائفتين .. وقد وصف الله تعالى هاتين الطائفتين عبر ثلاث صفات :

(١) – أنّهما من ساحة الإيمان ﴿ طَآئِفَتَانِ مِنكُمْ ﴾ ..

(٢) – أنَّ اتّجاه تحرّك هاتين الطائفتين هو بشكلٍ مختلفٍ يؤدّي إلى تشتّت توجّه المؤمنين في القتال ، وإلى انشغال هاتين الطائفتين في هذا الاختلاف .. وبالتالي يؤدّي إلى الفشل ﴿ أَن تَفْشَلَا ﴾ ..

(٣) – أنَّ هاتين الطائفتين على الرغم من اختلافهما ، ومن أنَّ حصيلتهما تؤدّي إلى الفشل ، هما في إطار ولاية الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ، لأنّهما من ساحة خواطر الإيمان وقصده وهدفه ..

وفي الصورة القرآنيّة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بيانٌ إلى إطلاق هذه الآية الكريمة ، وعدمِ حصرها في إطار معركة محدّدة دون غيرها ، فهي تحمل أمراً لكلِّ مؤمن ومؤمنة في كلّ زمانٍ ومكان بالتوكّل على الله تعالى .. وتبيّن أنَّ هذا التوكّل هو سبيل التغلّب على الفشل الناتج عن مسألة الهم هذه ، وذلك عبر توجيه القصد والعزيمة نحو هدفٍ واحد هو سبيل الله تعالى ..

وهكذا نرى من خلال إطلاق كلمات هذه الآية الكريمة أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ ﴾ تصوّر تحرّك خاطرين مختلفين في نفوس المؤمنين ﴿ مِنكُمْ ﴾ أو تحرّك حسّي لمجموعتين تحملان رأيين مختلفين ، وذلك أثناء القتال ، باتّجاه نتيجة محصّلتها الفشل ﴿ أَن تَفْشَلَا ﴾ ، وهاتان الطائفتان (كتحرّك خواطر أم كتحرّك حسّي) لا تخرجان عن إطار ولاية الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ .. وإنَّ نتيجة الفشل لهما ناتجة عن كونهما باتّجاهين مختلفين ، وبالتالي تسحبان توجّه المؤمنين في القتال باتّجاهين مختلفين .. وفي توجيه العزيمة والقصد باتّجاه الله تعالى ، وبوضْع خواطر النفس (وما تؤدّي إليه من تحرّكٍ

حسّي يؤدّي للفشل) باتّجاه واحد هو الاتّجاه إلى الله تعالى ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ ، في ذلك ، حماية للمؤمنين من الفشل المترتّب على التشتّت والاختلاف ..

وبربط هذه الآية ، مع الآية الأولى من النصّ قيد الدراسة ، يتّضح هذا المعنى بشكلٍ جليٍّ .. فالسموّ والعلوّ الإيماني وتبوّؤ الدرجات على محور الرسالة والنبوّة ﴿ **تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ** ﴾ ، يرتبط بجهاد المؤمنين – حين القتال – لكلِّ خاطرين مختلفين يطوفان في نفوسهم يؤدّيان لتحرّكين مختلفين – أثناء الحركة – محصّلتهما الفشل ، حتى وإن كانا من خواطر الإيمان في إطار ولاية الله تعالى ﴿ **إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ** ﴾ ، وذلك حتى لا يُصرَف توجّه خواطرهم إلى ساحتين مختلفتين تؤدّيان إلى الفشل ، ليبقوا في إطار التوكّل على الله تعالى ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ الذي يقتضي توجيه القصد والعزيمة إلى الله تعالى ، دون التشتّت بين أيِّ اتّجاهين مختلفين من شأنهما أن يؤدّيا إلى الفشل ..

وهناك صلةٌ عميقةٌ بين نهاية الآية الأولى وبداية الآية الثانية ﴿ **وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .... إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا** ﴾ فسمع الله تعالى وعلمه يحيطان إحاطةً تامّة بتحرّك أيِّ خاطرين مختلفين في نفوس المؤمنين أثناء القتال ، من شأنهما أن يؤدّيا إلى الفشل ..

ومسألة تحرّك خاطرين مختلفين في نفوس المؤمنين أثناء القتال يؤدّيان لدفع التحرّك الحسّي باتّجاه الفشل ﴿ **إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا** ﴾ ، وأنَّ التوكّل على الله تعالى هو العاصم من الفشل ، وذلك بتوجيه القصد والنيّة إلى الله تعالى ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ .. هذه المسألة .. نراها عبر التناظر التام بين هاتين العبارتين القرآنيّتين في الآية الثانية ، فكلٌّ منهما مكوّنة من (٢٣) حرفاً مرسوماً ..

﴿ **إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا** ﴾ = **٢٣** حرفاً

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ = **٢٣** حرفاً

وتأتي الآية الثالثة – في هذا النصّ قيد الدراسة – من منظار الخطاب المباشر للمؤمنين – كما هي الآية الثانية – دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ، ليكون خطاب هذه الآية الكريمة واقعاً في نفوس البشر وأحوالهم وفق إسقاطات مختلفة على محور الرسالة والنبوّة ، منها ما هو أعلى من صورة الخطاب ، ومنها ما هو أدنى منه ، وذلك حسب التزام المؤمنين بمتطلّبات هذا الخطاب ..

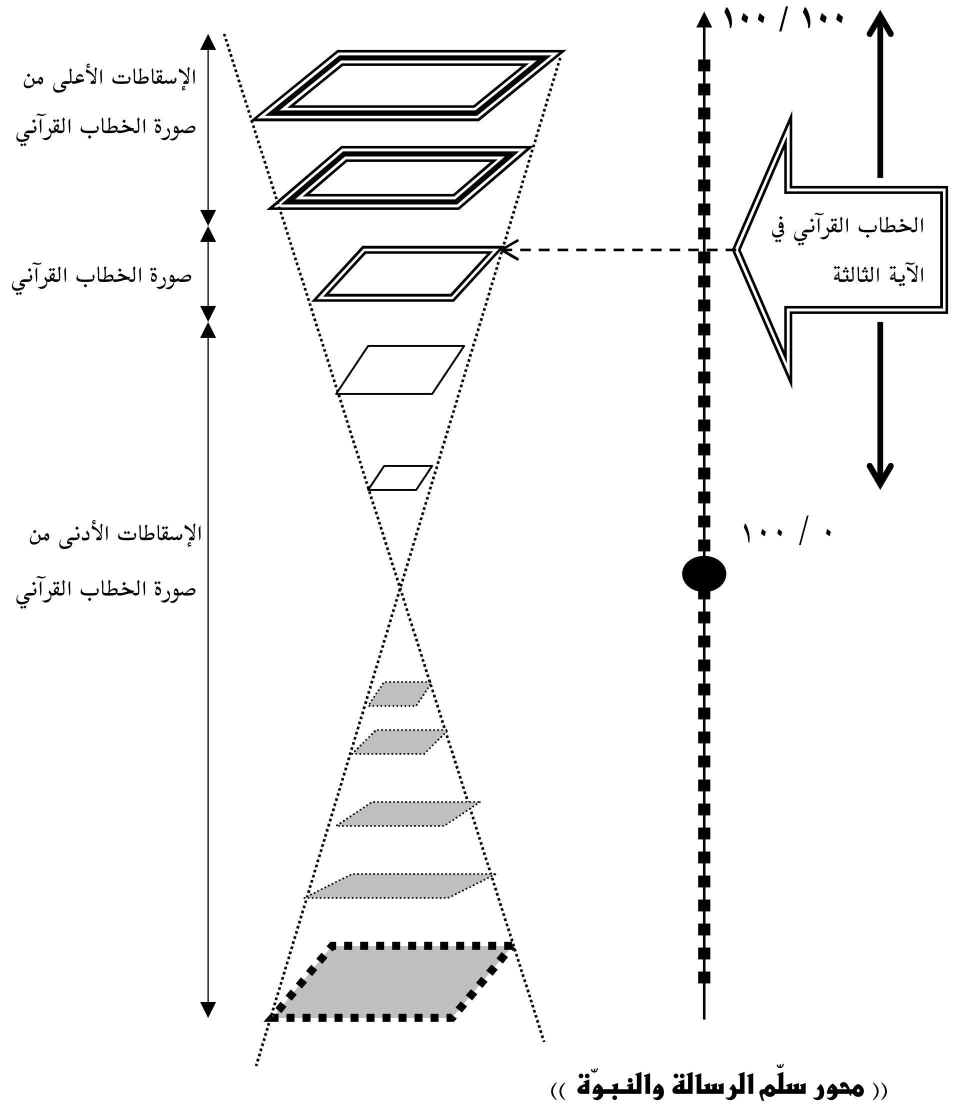

((**محور سلّم الرسالة والنبوّة**))

لا شكّ أنَّ هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، إذا نُظر إليها من منظار التاريخ ، تصوّر معركة معروفة هي معركة بدر ، وأنَّ الكلمة ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ تعني – من هذا المنظار – هذه المعركة حصراً .. وجميعُ المفسّرين نظروا إلى هذه الآية من هذا المنظار ، وصوَّروها ضمن إطار التاريخ ، وداخل حدود معركة بدر ..

ونحن لا ننكر الإسقاط التاريخي لهذه الآية الكريمة ، ولكنّنا ننكر فرض المنظار التاريخي على هذه الآية (أو على أيّ آية في كتاب الله تعالى) فرضاً ينكر الأعماق الأُخرى للنصّ القرآني ، لأنَّ ذلك تحجيمٌ وتأطيرٌ داخل حدود التاريخ والزمان والمكان ، لكلمات الله تعالى المتعلّقة بصفاته جلّ وعلا ..

ولننظر إلى كلمة ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ من منظار جذرها اللغوي في القرآن الكريم .. إنَّ للجذر (ب ، د ، ر) في القرآن الكريم فرعين ، فرع هو هذه الكلمة ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ في الآية الثالثة من النصّ الذي ندرسه ، وفرع هو كلمة ﴿ وَبِدَارًا ﴾ في الآية الكريمة ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ ﴾ [النساء : ٦]

من الواضح أنَّ كلمة ﴿ وَبِدَارًا ﴾ في العبارة ﴿ وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ ﴾ تعني مبادرة كبرهم ، أي مبادرين كبرهم ، وذلك بالإسراع في إنفاق أموال اليتامى قبل أن يكبروا ، وقبل أن تُدفع أموال اليتامى لهم ..

إذاً الكلمة ﴿ بِبَدْرٍ ﴾ – إضافة إلى أنَّها اسم للمعركة المعروفة تاريخيّاً – تعني بمبادرة وإسراع .. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ ﴾ تشير إلى قلّة العدد وقلّة السلاح وقلّة المال وضعف الحال ، وبالتالي تشير إلى عدم امتلاك أسباب النصر الماديّة ..

وهكذا نرى أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ ﴾ تحمل – إضافة للدلالات التاريخيّة – معنىً مطلقاً مجرّداً عن الزمان والمكان والتاريخ هو : جاء نصر

الله تعالى وأسرع إليكم مع أنّكم لا تملكون العوامل الماديّة للنصر .. أي بادركم وأسرع إليكم نصر الله تعالى حال كونكم أذلّة لا تملكون العوامل الماديّة للنصر ، فنصر الله تعالى بادركم وأسرع إليكم قبل وقوع الإذلال بكم .. فلولا مبادرة نصر الله تعالى وإسراعه إليكم لوقعتم في الذل .. فنصر الله تعالى موجود قبل حصول عوامله الماديّة ..

وهذا النصر الذي يبادر الله تعالى المؤمنين به ، ويسرعه إليهم ، على الرغم من كونهم لا يملكون عوامله الماديّة ، يجب على المؤمنين أن يقابلوه بتقوى الله تعالى وخشيته وطاعته ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، لعلّهم يشكرون الله تعالى على هذه المبادرة والإسراع في النصر ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ ..

معلوم أنّ مسألة الإلوهيّة تصف جانب العطاء الإلهي فوق الأسباب ، أي تصف الجانب المجرّد عن الأسباب .. بينما مسألة الربوبيّة تصف جانب العطاء السَّبَبِي ، وتتعلّق بها أسباب الوجود ورعايته .. ولّما كانت الآية الثالثة من النصّ الذي نحن بصدد دراسته تصوّر نصر الله تعالى للمؤمنين بشكله المجرّد عن أسبابه ، واصفةً مرجعيّة النصر دون امتلاك عوامله الماديّة ، لذلك نرى صيغة الإلوهيّة ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ..

بينما في الآيتين الرابعة والخامسة من النص قيد الدراسة ﴿ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ، نرى ورود صيغة الربوبيّة ﴿ يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم ﴾ ، ﴿ يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم ﴾ .. ففي هاتين الآيتين يتمّ تصوير كيفيّة المدد الإلهي عبر الأسباب التي من طريقها يأتي المدد (وهي هنا الملائكة) ، وهذا تناسبه صيغة الربوبيّة ..

وكما رأينا أنّ الآية الأولى من النص قيد الدراسة تأتي من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ، لتصوّر درجات السموّ والعلو الإيماني على هذا المحور في مسألة القتال ، فإنّنا نرى أنّ صورة الخطاب في الآية الرابعة من هذا النص تأتي من المنظار ذاته ، لتصوّر كيفيّة مدد الله تعالى للمؤمنين في القتال ، حسب سموّهم وعلوّهم على درجات (مقاعد) سلّم

الرسالة والنبوّة التي تبوّؤها في الآية الأولى ، ولتكون جميع إسقاطات صورة الخطاب على محور الرسالة والنبوّة أدنى من تلك الصورة ، لأنَّ جميع الدرجات (المقاعد) التي يتبوّؤها المؤمنون على هذا المحور هي دون القمّة ..

إذاً يصوّر لنا النصّ القرآني في الآيتين الرابعة والخامسة ، كيفيّة النصر الإلهيّ في كلّ زمانٍ ومكان ، ذلك النصر الذي تصوّره الآية الثالثة بصفته المجرّدة عن التاريخ والمكان والزمان ، وذلك حسب درجات (مقاعد) ارتقاء المؤمنين على سلّم الرسالة والنبوّة ، حين القتال ، تلك الدرجات (المقاعد) التي رأيناها في الآيتين الأولى والثانية من النص .. فالصلة بين العبارات القرآنيّة في بداية الآيات الأولى **﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ ﴾** والثانية **﴿ إِذْ هَمَّت ﴾** والرابعة **﴿ إِذْ تَقُولُ ﴾** هي صلةٌ عميقة ، ترتبط بإطلاق النصّ من المنظار المجرّد عن التاريخ والزمان والمكان ..

ولإدراك ما نستطيع إدراكه من دلالات الآيتين الرابعة والخامسة من النص قيد الدراسة ، لا بدّ من ربطهما مع الآية التالية المكمّلة لهما في تصوير مدد الله تعالى للمؤمنين في القتال عن طريق الملائكة ..

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ .... ﴾ [الأنفال : ٩ – ١٠]

وبالنظر إلى الآيات الثلاث – من المنظار المجرّد عن التاريخ – نرى أنَّ مدد الله تعالى للمؤمنين في القتال يأتي وفق ما يلي :

(١) – الله تعالى يقول **﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾** ، ويقول **﴿ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾** ، ويقول **﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾** ، وبالتالي فمجموع المدد هو تسعة آلاف ، والحدّ الأدنى هو ألف ..

(٢) – في مدد المُردِفين يقول تعالى **﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم ﴾** ، وذلك بالصيغة الاسميّة التي تفيد الاستقلال عن الحدث ماضيه وحاضره ومستقبله ، أي أنَّ المدد واقعٌ قبل الاستغاثة

وأثناءها وبعدها .. وفي مدد الثلاثة آلاف المُنزَلين يقول تعالى ﴿ **يُمِدَّكُمْ** ﴾ ، بصيغة المضارع التي تفيد المدد الحاضر .. وفي مدد الخمسة آلاف المُسوِّمين يقول تعالى ﴿ **يُمْدِدْكُمْ** ﴾ بصيغة المبالغة ..

(٣) – إنَّ إتيان المدد بالألف المردفين واقعاً ، وإتيان المدد بالثلاثة آلاف المنزلين حاضراً ، وإتيان المدد بالخمسة آلاف المسوّمين مشروطاً بثلاثة شروط ﴿ **إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا** ﴾ .. في ذلك إشارة إلى أنَّ ازدياد المدد متعلّق بازدياد شروط مجيئه ..

(٤) – نحن نعلم أنَّ الصفة إذا سُبقت بمضاف ومضاف إليه يجوز أن تكون صفةً لأيٍّ منهما .. وفي النصِّ الذي نحن بصدد دراسته ، نرى أنَّ كلمة ﴿ **مُرْدِفِينَ** ﴾ هي صفة لكلمة ألف ﴿ **بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ ، وأنَّ كلمة ﴿ **مُنزَلِينَ** ﴾ هي صفة للثلاثة آلاف ﴿ **بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ** ﴾ ، وأنَّ كلمة ﴿ **مُسَوِّمِينَ** ﴾ هي صفة للخمسة آلاف ﴿ **بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ .. فالمدد بأنواعه الثلاثة ليس هو الملائكة عينها ، وإنّما عن طريقها وبواسطتها ..

.. فالعبارة ﴿ **مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ** ﴾ ، تعني من طريق الملائكة ، ولا تعني من عين الملائكة وذاتهم .. فالله تعالى لم يقل (بألفٍ من الملائكة المردِفين) أو (بألف ملك مُردِف) .. ولم يقل (بثلاثة آلاف من الملائكة المنزَلين) أو (بثلاثة آلاف ملك مُنزَل) .. ولم يقل (بخمسة آلاف من الملائكة المسوِّمين) أو (بخمسة آلاف ملك مسوِّم) .. حتى نجزم بأنَّ المدد يحصل بالملائكة عينها وليس من طريقها ..

فحينما نقول (نمدّكم بثلاثة رجال من المدينة متطوّعين) ، فإنَّ المدد الذي نعنيه هو الرجال الثلاثة الذين نصفهم بالتطوّع ، ولا نعني المدينة ، فالمدينة هي الوسيلة التي أتى منها الرجال ..

وحتّى لو اعتبرنا الكلمات [[﴿ مُرۡدِفِينَ ﴾ ، ﴿ مُنزَلِينَ ﴾ ، ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾]] حالاً ، فإنَّ ذلك لا يُلغي تصوّرنا الذي ذهبنا إليه ..

إذاً إمداد الله تعالى للمؤمنين في القتال من طريق الملائكة ، هو تثبيت الملائكة للمؤمنين ، وتقوية نفوسهم ، وإشعارهم أنَّ النصر لهم ، وعزم قلوبهم على ذلك ، وإلقاء الإلهام في قلوبهم ، وإلقاء الرعب في قلوب الكفّار .. ولا يعني نزولاً حسيّاً ليقاتلوا قتالاً حسيّاً ماديّاً محكوماً لقوانين الأسباب الماديّة ، إلى جنب المؤمنين .. والآية الكريمة التالية تُلقي الضوء على هذه المسألة ..

﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢]

إنَّ الخطاب القرآني ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ ، موجَّهٌ للمؤمنين المقاتلين المؤيَّدين بتثبيت الملائكة لهم ، بأن يضربوا ضرباً ماديّاً حسيّاً حسب قوانين الأسباب التي تحكمنا ، وموجَّهٌ للملائكة بأن يضربوا ضرباً معنويّاً متعلّقاً بحيثيّات التثبيت المعنوي لقلوب المؤمنين وبحيثيّات إلقاء الرعب في قلوب الكفّار ﴿ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾ ..

وفي الصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ .... ﴾ بعد إمدادي الإنزال والسوم ، وكذلك في الصورة القرآنيّة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ .... ﴾ بعد إمداد الإرداف .. في هاتين الصورتين دليلٌ على أنَّ إمداد الله تعالى للمؤمنين – أثناء القتال – يحصل بالبشرى وباطمئنان قلوب المؤمنين المقاتلين ، وبالتالي إشارة إلى نفي الجانب الحسّي المادّي للإمداد حسب قوانين المادّة والمكان والزمان التي تحكمنا ..

وهكذا .. فالكلمات [[﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ ، ﴿ مُنزَلِينَ ﴾ ، ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾]] هي – كما رأينا – صفات ليس للملائكة ، وإنّما للمدد الحاصل في قلوب المؤمنين [[﴿ بِأَلْفٍ ﴾ ، ﴿ بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ ﴾ ، ﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ ﴾]] .. وتقدير الكلام أنّه حصل مددٌ هو ألفٌ صفته الإرداف وذلك في قلوب المؤمنين ، ومددٌ هو ثلاثة آلاف صفته الإنزال وذلك في قلوب المؤمنين ، ومددٌ هو خمسة آلاف صفته السوم وذلك في قلوب المؤمنين .. وكلّ ذلك من طريق الملائكة ﴿ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ، ولا علاقة للمدد بأنواعه الثلاثة بالملائكة كذوات مستقلّة ، إلاّ أنَّ الملائكة تثبّت ذلك المدد في قلوب المؤمنين بأمرٍ من الله تعالى أثناء المعركة ..

.. إنَّ ما يأتي الإنسان من مسائل معنويّة ممّا هو فوق المادّة والحس ، لا يعني أنَّ الآتي هو جزء من ماهيّة من ارتبط به الإتيان ، وإنّما يعني من طريقه وبواسطته ..

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٢]

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : ٣٩]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر : ٨]

وفي هذا السياق لا بدّ أن نبيّن أنّنا لا ننكر نزول الملائكة – كما سيفتري بعضهم علينا – لكنّنا نقول إنَّ سنّة الله تعالى لا تتبدّل ولا تتغيّر كما يؤكّد الله تعالى ، وإن كان هناك استثناء فلا بدّ أن تكون له ولو إشارة في كتاب الله تعالى .. فالنزول الحسّي المادّي للملائكة نزولاً يقاتلون فيه قتالاً ماديّاً حسيّاً خاضعاً لقوانين المكان والزمان ، يقتضي أنّهم تحوّلوا إلى صورة عالمنا المادّي ، وبالتالي سيراهم المؤمنون والكفّار في عالمنا الحسّي ..

والقرآن الكريم يبيّن لنا أنَّ جميع البشر الذين عاينوا الملائكة إنّما عاينوهم بصورة بشريّة وليس بأجساد ماديّة ، كضيوف إبراهيم عليه السلام ، ولذلك نرى أنَّ إبراهيم عليه السلام حينما قدّم طعاماً لضيوفه الملائكة رأى أنَّ أيديهم لا تصل إليه ، ولذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة ..

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٦٩ – ٧٠]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ ﴾ ، تحمل بياناً واضحاً أنّهم كانوا صوراً بشريّة وليسوا أجساداً ماديّة كأجسادنا ..

وجبريل عليه السلام حينما أرسله الله تعالى إلى مريم ، لم يتحوّل إلى جسد مادي كأجسادنا ، إنّما تمثّل لها صورة بشريّة تمثّلاً وليس تجسّداً أو تحوّلاً إلى الماهيّة الماديّة كماهيّة أجسادنا ..

﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧]

والصورة القرآنيّة التالية تُلقي الضوء على هذه المسالة بشكلٍ جلي ..

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٨ – ٩]

.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن .. ماذا تعني الكلمات : ﴿ بِأَلْفٍ ﴾ ، ﴿ بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ ﴾ ، ﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ ﴾ ؟ ..

إنَّ الكلمة القرآنيّة تأخذ روح معناها – كما رأينا في النظريّة الثالثة (الحق المطلق) – من جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ، وتحمل إطاراً من المعنى يُمكن رسمه – حسب استطاعتنا – من خلال دلائل باقي الكلمات التي تشترك معها بالجذر اللغوي ذاته ، وتأخذ عمقاً حسيّاً أو معنويّاً ، حسب المسألة التي تقترن بها هذه الكلمة ..

تدور مشتقّات الجذر (أ ، ل ، ف) في القرآن الكريم داخل إطار الجمع والتوفيق .. ولها عمقان ..

- عمق معنوي مجرّد عن المادّة والحس ، وذلك إذا اقترنت بمسائل معنويّة مجرّدة ..

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣]

عمق مادّي حسّي ، وذلك إذا اقترنت بمسائل ماديّة حسيّة ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ [النور : ٤٣]

ولكلمة ألف في القرآن الكريم ثلاث حالات ..

إذا ارتبطت بمسألة حسيّة ماديّة للتعبير عن (١٠٠٠) وحدة من هذه المسألة ، فإنّها تأخذ الجانب الرقمي المعروف ..

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة : ٩٦]

إذا ارتبطت بمسألة حسيّة ماديّة للتعبير عن جمعٍ كبيرٍ متآلف من المسألة التي ترتبط بها ، فإنّها تأخذ معنى الجمع الكبير المتآلف من هذه المسالة ، بغض النظر عن الجانب الرقمي لهذا الجمع الكبير ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٥ – ٦٦]

.. إنَّ حصر الكلمات [[﴿ أَلْفًا ﴾ ، ﴿ أَلْفٌ ﴾ ، ﴿ أَلْفَيْنِ ﴾]] في هذه الصورة القرآنيّة ، ضمن إطار الجانب الرقمي فقط ، وإنكار أيّ عمق آخر لها غير الدليل الرقمي ، هو إساءة للنصّ القرآني ، واتّهامٌ له بالتكرار عديم الفائدة ، سواء علم الذي يُنكر ذلك ، أم لم يعلم ..

فعندما يقول تعالى ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ ﴾ ، يبيّن لنا أنَّ الواحد يغلب عشرة ، وبالتالي فإنَّ حصر الصورة القرآنيّة ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ

يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفًا ﴾ بالجانب الرقمي فقط ، فهذا يعني أنَّ الواحد يغلب عشرة ، وهذا المعنى – من المنظار الرقمي – هو ذاته ما تحمله الصورة القرآنيّة الأولى ..

وعندما يقول تعالى **﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾** ، يبيّن لنا أنَّ الواحد يغلب اثنين ، وبالتالي فإنَّ حصر الصورة القرآنيّة **﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ ﴾** بالجانب الرقمي فقط ، فهذا يعني أنَّ الواحد يغلب اثنين ، وهذا المعنى – من المنظار الرقمي – هو ذاته ما تحمله الصورة القرآنيّة الأولى ..

فحينما يقول أحدنا للآخر إنَّ ثمن العشرين وحدة من مسألة ما هو مائتا ليرة مثلاً ، فهذا يعني أنَّ ثمن الوحدة هو عشر ليرات .. ولذلك لا داعي لأن يقول له إنَّ ثمن المائة وحدة هو ألف ليرة ، لأنَّ ذلك صار معلوماً من قوله الأوّل ، وبالتالي فالقول الثاني هو تكرار لا داعي له ، إلاَّ إن كان يعني بالألف مسألة غير رقميّة ..

وهكذا فكلمة ألف في الصورة القرآنيّة **﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾** تعني جمعاً كبيراً متآلفاً من الكفّار ، ولا يمكن حصرها بمجرّد الجانب الرقمي ، وهذا المعنى المجرّد عن الجانب الرقمي يُعطي إطلاقاً للنصّ قد تتجاوز فيه النسبةُ النسبةَ السابقة التي هي واحد لعشرة ..

وكذلك فإنَّ كلمتي ألف وألفين في الصورة القرآنيّة **﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ ﴾** تعنيان جمعاً كبيراً متآلفاً ، وجمعين كبيرين متآلفين ، ولا يمكن حصرها بمجرّد الجانب الرقمي ، وهذا المعنى المجرّد عن الجانب الرقمي يُعطي إطلاقاً للنصّ قد تتجاوز فيه – بالنسبة للأفراد – النسبة السابقة التي هي واحد إلى اثنين ..

❁ إذا ارتبطت بمسألة معنويّة مجرّدة عن المادّة والحس **﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾** ، فإنّها تعني جمعاً وتآلفاً معنويّين لدرجة واحدة في قلوب جميع الذين يقعون تحت ساحة تأليف هذه الألف .. أي تأليفاً لدرجة واحدة باتّجاه العزيمة والثقة بالنصر من قلب كلِّ مؤمن ، مع قلوب باقي المؤمنين في المعركة .. أي تآلفت

قلوب جميع المؤمنين المقاتلين درجة معنويّة باتّجاه التثبيت والثقة بالنصر .. وكلمة آلاف التي هي جمع كلمة ألف ، تعني – من منظار هذا العمق المعنوي – تآلف قلوب جميع المؤمنين المقاتلين درجات باتّجاه التثبيت والثقة بالنصر ..

.. إذاً الصورة القرآنيّة ﴿ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ تعني – من المنظار المعنوي المجرّد عن الجانب الرقمي – حصول مدد إلهي معنوي من طريق الملائكة ، صفته الإنزال ، يؤلّف بين قلوب المؤمنين المقاتلين ، ويرفع عزيمتهم ثلاث درجات لكلٍّ منهم باتّجاه التثبيت والثقة بالنصر .. وكذلك الصورة القرآنيّة ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ تعني – من المنظار المعنوي المجرّد عن الجانب الرقمي – حصول مدد إلهي معنوي من طريق الملائكة ، صفته السوم ، يؤلّف بين قلوب المؤمنين المقاتلين ، ويرفع عزيمتهم خمس درجات لكلٍّ منهم باتّجاه التثبيت والثقة بالنصر ..

وكلّ ألف (درجة) يُمدّها الله تعالى لقلب كلّ مؤمن مقاتل ، ترفع من عزيمته وقوّته وثقته بالنصر ، بحيث يواجه كافراً إضافيّاً ويتغلّب عليه ، أي باستطاعته – بعد هذا المدد – أن يواجه كافرَين ، يواجه كافراً مواجهة رجلٍ لرجل ، ويواجه كافراً نتيجة هذه الدرجة (الألف) من المدد الإلهي ..

ولمّا كان الحدّ الأدنى من المدد الإلهي من طريق الملائكة هو – كما رأينا – بالألف المردفين ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ، أي بدرجة واحدة ، وبالتالي يستطيع كلّ مؤمن التغلّب – كحدٍّ أدنى – على كافرين ، نتيجة إمداد الله تعالى له بهذه الدرجة .. ولمّا كان هذا الإمداد حاصلاً دائماً للمؤمنين ، حيث تشير إلى ذلك – كما رأينا – كلمة ﴿ مُمِدُّكُم ﴾ ، التي ترد بالصيغة الاسميّة المجرّدة عن الحدث ماضيه وحاضره ومستقبله ، فإنَّ المؤمن مهما كان ضعيفاً – بإيمانه – يجب عليه كحدٍّ أدنى أن يغلب كافرَين ، ويجب على الجمع من المؤمنين أن يغلب جمعَين من الكفّار .. هذه الحقيقة تصوّرها لنا الصورة القرآنيّة التالية التي تبيّن الحدّ الأدنى من مواجهة المؤمنين للكفّار ..

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٦]

ولّما كان مجموع مدد الله تعالى للمؤمنين المُقاتلين من طريق الملائكة هو تسعة آلاف (مجموع المدد الإلهي بأنواعه الثلاثة الإرداف والإنزال والسوم) ، ومجموع هذا المدد يعني رفع العزيمة والقوّة والثقة في نفوس المؤمنين المقاتلين ، بحيث يواجه كلّ واحد منهم تسعة كفّار ويتغلّب عليهم ، إضافة للكافر الذي يواجهه مواجهة رجل لرجل ، فإنَّ على المؤمن المؤيَّد بمدد الله تعالى أن يُواجه عشرة كفّار ويتغلّب عليهم .. هذه الحقيقة تصوّرها الصورة القرآنيّة التالية التي تبيّن الحدّ المطلوب في مواجهة المؤمنين للكفّار ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٥]

ولّما كان المدد – بأنواعه الثلاثة – معنويّاً ليس حسيّاً ، وتأثيره في أنفس المؤمنين المقاتلين ، ويصبح قوّةً فاعلة في ذات المؤمن المقاتل ، فإنَّ صفات هذا المدد تصبح صفاتٍ للمؤمنين المقاتلين ذاتهم .. أي أنَّ هذا المدد هو صفات إضافيّة للمؤمن من الله تعالى عن طريق الملائكة .. لذلك نرى أنَّ صفات المدد في الحالات الثلاث [[**﴿ مُرْدِفِينَ ﴾** ، **﴿ مُنزَلِينَ ﴾** ، **﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾**]] تُجمع جمع مذكر سالم ، لأنَّ هذا المدد هو صفات لذوات عاقلة هي ذوات المؤمنين المقاتلين ..

فبورود الصفات [[**﴿ مُرْدِفِينَ ﴾** ، **﴿ مُنزَلِينَ ﴾** ، **﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾**]] جمع مذكّر سالم ، في حين أنَّ الموصوف [[**﴿ بِأَلْفٍ ﴾** ، **﴿ بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ ﴾** ، **﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ ﴾**]] جمع تكسير .. في ذلك ما يؤكّد صحّة ما نذهب إليه ، وهو أنَّ المدد معنوي ، ويتمثّل صفات إضافيّة للمؤمنين ..

وهنا سؤال .. لماذا قُدّمت الكلمتان ﴿ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ على صفات المدد الإلهي الثلاث ؟ ... كما رأينا في تقديم الكلمتين ﴿ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ في الآية الأولى من النصّ ، أنَّ هذا التقديم يُفيد إظهار المُقَدَّم وحصر المسألة من جهته ، نرى هنا أنَّ تقديم كلمتي ﴿ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ على صفات المدد الإلهي في الحالات الثلاث (توسّط هاتين الكلمتين بين الموصوف وصفته) ، يُفيد حصر المدد في الحالات الثلاث من جهة الملائكة .. ولو أُخِّرت الكلمتان ﴿ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ لتكونا خلف صفات المدد ، لكان من الممكن حصول هذا المدد بطرقٍ أُخرى غير طريق الملائكة ، ولكان طريق الملائكة الذي يمرّ عبره المدد طريقاً من عدّة طرق ، هو ليس أكثر من واحدٍ منها ..

ونستشفّ من تقديم الكلمتين ﴿ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ عمقاً إضافيّاً من المعنى متكاملاً متعاضداً مع الأعماق الأُخرى ، ودون أن يُلغيها .. فالملائكة – كما رأينا في النظريّة الثالثة (الحق المطلق) – تكون اسم ذات للكائنات النورانيّة المعروفة ، وتكون اسم صفة لما يكون في ذوات الكائنات المكلّفة من اتّجاهٍ إلى الله تعالى وابتعادٍ عن معصيته ، فإبليس الذي ينتمي لعالم الجن وهو كائن مكلّف ، رأينا أنّه كان يتّصف بصفة الملائكيّة قبل معصيته ، وأنّه اتّصف بصفة الشيطان بعد هذه المعصية ، التي أدّت إلى طرده من رحمة الله تعالى ..

.. وهكذا .. فالمدد الإلهي المعنوي للمؤمنين أثناء المعركة ، هو صفات إضافيّة لهم ، تدفعهم أثناء القتال درجات باتّجاه الملائكيّة .. وبالتالي تحمل الصورة القرآنيّة ﴿ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ عمقاً إضافيّاً هو حصول مدد بثلاث درجات ملائكيّة في قلوب المؤمنين ، وتحمل الصورة القرآنيّة ﴿ يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ ، عمقاً إضافيّاً هو حصول مدد بخمس درجات ملائكيّة في قلوب المؤمنين .. وبالتالي فإنَّ كون الكلمتين [[﴿ مُنزَلِينَ ﴾ ، ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾]] حالاً أم صفة ، لا يلغي هذا العمق الإضافي من المعنى ، بل يزيده وضوحاً ..

وهكذا نرى أنَّ آيات النصّ متكاملة متعاضدة في إطلاقها .. فالآية الأولى ترسم – من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة – الدرجات التي يتبوّؤها المؤمنون على هذا المحور في قتالهم مع الكفّار .. وترسم الآية الثانية – من منظار دون قمّة محور الرسالة والنبوّة – تحرّك أيّ خاطرين مختلفين في نفوس المؤمنين أثناء القتال ، من شأنهما تشتيت قوّتهم إلى جهتين مختلفتين ، وبالتالي من شأنهما أن يُؤدِّيا إلى الفشل ، وكيف أنَّ الخلاص يكون بالتوكّل على الله تعالى .. وترسم الآية الثالثة – من المنظار ذاته – مبادرة نصر الله تعالى وإسراعه على الرغم من كونهم لا يملكون مقوّمات النصر الماديّة مقارنة مع الكفّار .. وترسم الآية الرابعة – من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة – إمداد الله تعالى الحاضر للمؤمنين بالتثبيت وذلك عن طريق الملائكة ، عبر اكتساب المؤمنين صفات إضافيّة نحو التثبيت والثقة والنصر .. وترسم الآية الخامسة إمداد الله تعالى المشروط بالشروط الثلاثة التي تبيّنها الآية كما رأينا ..

ورؤيتنا لهذا النص – وأيّ نص – من منظارٍ مجرّدٍ عن التاريخ والمكان والزمان ، لا تعني – كما سيزعم بعضهم – إلغاء ما تحمله الآيات الكريمة من إسقاطات تاريخيّة زمانيّة مكانيّة .. إنّنا من خلال منظارنا المجرّد عن التاريخ والزمان والمكان ، نُحطّم ما فُرض على القرآن الكريم من قيود تاريخيّة زمانيّة مكانيّة ، فرضاً يختفي فيه الوجه المجرّد للنصّ القرآني .. ومن خلال هذا المنظار ننظر إلى النصّ القرآني نظرةً تتناسب مع كون القرآن الكريم بأحكامه وأدلّته وبراهينه ومعاني كلماته ، هو فوق التاريخ والزمان والمكان ..

لننظر إلى الآية الأولى من سورة المجادلة ، حيث ذهب المفسّرون إلى تأطير دلالاتها في إطار التاريخ والزمان والمكان ، وإلى عدم النظر إليها إلاّ من خلال هذا المنظار ..

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ

شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ١ – ٤]

وبالتجرّد عمّا نحمله من خصوصيّة قصصيّة في الجيل الأوّل صادفت نزول الآية الأولى من هذه السورة ، نرى – عبر هذا المنظار – الدلائل التالية ..

(**١**) – مسألتا المجادلة والشكوى تردان في الآية الكريمة بصيغة المضارع ﴿ **تُجَٰدِلُكَ** ﴾ ، ﴿ **وَتَشْتَكِىٓ** ﴾ .. وفي هذا دليل على أنَّ الآية الكريمة تصوّر هاتين المسألتين ضمن إطار استمراريّة حدوثهما في كلّ زمان ومكان .. فالله تعالى لم يقل (قد سمع الله قول التي جادلتك في زوجها واشتكت إلى الله) .. بل نرى هاتين المسألتين تردان بصيغة الاستمراريّة .. ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى اللَّهِ** ﴾ ..

(**٢**) – سمْع الله تعالى في هذه الآية الكريمة يأتي وفق صيغتين ..

- صيغة الماضي وتأتي لمسألتي المجادلة والشكوى ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى اللَّهِ** ﴾ .. وهذه الصيغة تدلّ على وقوع سمْع الله تعالى لمسألتي المجادلة والشكوى (المستمرّتين في كلّ زمان ومكان كما رأينا في الفقرة السابقة) قبل وقوعهما .. أي تدلّ على علم الله تعالى الكاشف للأحداث قبل وقوعها في عالم المادّة والمكان والزمان ..

- صيغة المضارع وتأتي لمسألة التحاور ﴿ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ** ۚ ﴾ .. وهذه الصيغة تدلّ على استمراريّة سمع الله تعالى لمسألة التحاور أثناء حدوثها في عالم المادّة والمكان والزمان .. وبالتالي تدلّ على علْم الله تعالى المُشاهِد أثناء تجلّيها في عالمها المكاني والزماني ..

فبورود سمْع الله تعالى وفق هاتين الصيغتين إشارة إلى وجهي علْم الله تعالى الكاشف والمُشاهِد اللذين رأيناهما في النظريّة الثانية (القدر) ..

(**٣**) – المجادلة هي البحث عن حجج وبراهين ، وتقديمها لإثبات المُراد ، وللدفاع عمّا يريده المُجادِل .. والمجادلة في هذه الآية الكريمة تقوم بها الزوجة مع قمّة محور الرسالة

والنبوّة ﴿ تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ .. والشكوى هي إرجاع الأمر إلى المشكو إليه وطلب الفرج منه ، والشكوى في هذه الآية الكريمة تقوم بها هذه الزوجة إلى الله تعالى ﴿ وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ..

ولمّا كانت هاتان المسألتان (المجادلة والشكوى) واقعتين تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف لهما قبل وقوعهما ، فإنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ تعني أنَّ الله تعالى علِمَ بعلمه الكاشف ما سيكون – في كلّ زمانٍ ومكان – من حجج وبراهين تقدّمها الزوجة أثناء تفاعلها مع الأحكام المصوّرة من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ، وما سيكون من فرجٍ تطلبه الزوجة أثناء تفاعلها مع هذه المسألة ..

(**٤**) – في الانتقال من علم الله تعالى الكاشف (في مسألتي المجادلة والشكوى) إلى علْم الله تعالى المُشاهِد (في مسألة التحاور) .. وفي تكرار كلمة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ تعالى ما بين السمع الأوّل الكاشف ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ وبين السمع الثاني المُشاهِد ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ ﴾ .. وفي اقتران مسألة التحاور بطرفي التحاور ﴿ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ ، في الوقت الذي يأتي فيه الفاعل في مسألتي المجادلة والشكوى مرتبطاً بالزوجة فقط .. في كلّ ذلك دليلٌ على أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ هي استئنافٌ جديد ، وخطابٌ قرآنيٌّ من منظار جديد ، هو دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ..

(**٥**) – التحاور هو المراجعة في الكلام ، مراجعة مشاهدة حسيّاً ، ولا يكون إلاّ بين اثنين ..

﴿ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف : ٣٤]

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف : ٣٤]

لذلك نرى أنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ ﴾ التي تصوّر علم الله تعالى المُشاهِد ، تشمل طرفي الحوار ، ولا تستثني أحداً منهما ، كما هو الحال في مسألتي المجادلة والشكوى ، حيث يرتبط الفاعل بالزوجة التي تجادل وتشتكي ..

(٦) – ورود مسألة التحاور بصيغة المثنى ﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ ﴾ ، وفي صورة استئنافيّة ، وفي ساحة علم الله تعالى المُشاهِد .. هذا الورود يرسم الجانب الحسّي لتحاور طرفي الحوار في هذه المسألة ، التي علم الله تعالى بعلمه الكاشف ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ عمقَ المجادلة والشكوى فيها بالنسبة للزوجة ..

(٧) – إنَّ ورود نهاية الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ بالصيغة الاسميّة المستقلّة عن الحدث ، عن ماضيه ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ وعن حاضره ﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ ﴾ .. دليلٌ على اقتران علمي الله تعالى الكاشف والمُشاهِد بالنسبة للمسألة .. فورود مسألتي المجادلة والشكوى تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف ، لا يُلغي إحاطة علم الله تعالى المُشاهِد لهما .. وورود مسألة التحاور تحت ساحة علم الله تعالى المُشاهِد ، لا يُلغي إحاطة علم الله تعالى الكاشف لهما .. فالصورة القرآنيّة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ تعني إحاطة علمي الله تعالى الكاشف والمشاهِد لمسائل المجادلة والشكوى والتحاور في كلّ زمانٍ ومكان ..

(٨) – ما دامت الصورة القرآنيّة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ تدلّ على إحاطة علمي الله تعالى الكاشف والمشاهِد لمسائل المجادلة والشكوى والتحاور ، فلماذا تأتي مسألتا المجادلة والشكوى تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف ، ومسألة التحاور تحت ساحة علم الله تعالى المُشاهِد ؟ ..

إنَّ مسألة مجادلة ما جاء عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة أثناء التفاعل معه بالنسبة لهذه المسألة ، ومسألة الشكوى إلى الله تعالى ، هما مسألتان أقرب إلى الساحة المعنويّة منهما إلى الساحة الحسيّة ، فالطرف الآخر في هاتين المسألتين هو المنهج عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة ، والله تعالى .. وهما فوق المادّة والحس ، لذلك نرى وقوع هاتين المسألتين تحت ساحة علم الله تعالى الكاشف ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ ، فهذا العلم هو فوق المادّة والمكان والزمان ..

أمَّا مسألة التحاور بين الطرفين ، حيث المراجعة في الكلام بينهما ، هي مسألة أقرب إلى الساحة الحسيّة منها إلى الساحة المعنويّة ، لذلك نرى وقوع هاتين المسألتين تحت ساحة علم الله تعالى المُشاهِد ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ ﴾ ، فهذا العلم هو علم مشاهدة مكانيّة زمانيّة في إطار مكان وزمان تجلّي الحادثة ..

(٩) – لمّا كانت الصورة القرآنيّة ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ تصوّر – من منظار علم الله تعالى الكاشف – ما سيكون من مجادلة للزوجة – في كلّ زمان ومكان – مع ما جاء عبر قمّة محور الرسالة والنبوّة .. ولّما كانت الزوجات – في كلّ زمان ومكان – على محور الرسالة والنبوّة ، في درجات دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ، وبالتالي لن يتجاوز تفاعلهن صورة الخطاب القرآني .. لذلك نرى أنَّ صورة خطاب هذه الصورة القرآنيّة تأتي من منظار قمّة محور الرسالة والنبوّة ..

(١٠) – ولّما كانت العبارات القرآنيّة ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ .... ﴾ تصوّر حقيقة التحاور بين كلّ اثنين – في كلّ زمان ومكان – بالنسبة لهذه المسألة ، وترسم أحكاماً بالنسبة لمسألة الظهار .. ولّما كانت إسقاطات هذه الأحكام – سواء في خشية الله تعالى أثناء التحاور أم أثناء تطبيق هذه الأحكام – في نفوس البشر ، منها ما هو أعلى من صورة الخطاب القرآني (دون القمّة) ، ومنها ما هو أدنى ، وذلك حسب التزام المؤمنين بمحتويات هذا الخطاب .. لذلك نرى الخطاب القرآني – بالنسبة لهذه العبارات – يأتي من منظارٍ هو دون قمّة محور الرسالة والنبوّة ..

وهكذا نرى – عبر الدلائل التي رأيناها – أنَّ ما يربط الآية الأولى بما يليها من آيات ، هو ذاته ما يربط علمي الله تعالى الكاشف والمشاهِد لما سيكون من أحداث ، بحكمة الأحكام التي يترلها الله تعالى وعدلها وصلاحيّتها ، والتي تخصّ هذه الأحداث .. فالآية الأولى تقول : إنَّ أحكام مسألة الظهار التي أنزلها الله تعالى في الآيات التالية ، هي عادلة

وحكيمة وصالحة لكلِّ زمانٍ ومكان ، لأنَّ علمي الله تعالى الكاشف والمشاهِد يحيطان إحاطة مطلقة بما سيكون من مجادلة وشكوى وتحاور في هذه المسألة (مسألة الظهار) ..

فالله تعالى يقول – عبر هذه الآية الكريمة – إنّني أُحيط إحاطة مطلقة بما سيكون من مجادلة وشكوى وتحاور في هذه المسألة (مسألة الظهار) ، وأحكامي التي أُنزلها إليكم في الآيات التالية مبنيّة على إحاطتي هذه ، وبالتالي فعدلي وحكمتي يحيطان بها ، ويجعلان منها صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكان ..

ولو عدنا إلى الآية الأولى من سورة المجادلة ، وقرأناها من جديد هي والآيات التي تليها ، وذلك من منظار مجرّد عمّا نحمله من قيود تاريخيّة زمانيّة تُقيّد هذه الآية ، لرأينا أنَّ الآية الكريمة تحمل وجهاً مطلقاً مجرّداً عن التاريخ والزمان والمكان ، وأنَّ الإسقاط القصصي التاريخي الذي ذهب إليه جميع المفسّرين بالنسبة لهذه الآية ، هو إسقاط واحد من إسقاطات هذه الآية التي لا تنتهي ، وأنَّ المنظار الأولى في النظر إلى هذه الآية الكريمة – وكلّ آية في كتاب الله تعالى – هو المنظار المجرّد عن التاريخ والزمان والمكان ، وذلك دون أن يُلغي المناظير الأُخرى التي يمكن النظر من خلالها – بشكل مبرهن – إلى هذه الآية ..

وهذه النظريّة هي نداء لكلِّ من يتفاعل مع القرآن الكريم ككتاب ينتمي لعالم الأمر ، ويتعلّق بصفات الله تعالى العظيمة ، وغير خاضع للزمان والمكان والتاريخ ، بأن يقفز بفكره وتصوّراته – بالنسبة لما يحمله القرآن الكريم من معانٍ ودلالات – فوق قيود التاريخ ، وخارج إطار الزمان والمكان ..

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

نقطة من
بحر دلالات النصّ القرآني

.. أبحرنا عبر الفصول السابقة في أعماق القصّة القرآنيّة ، وفي دلالات الأسماء القرآنيّة كونها تمثِّل جوانب الحكمة المطلقة ، سواء بالاتّجاه الموجب أو السالب ، وفي إطلاق النصوص القرآنيّة التي نرى ظاهرها متعلّقاً بالتاريخ ..

.. وسنبحر – إن شاء الله تعالى – في هذا الفصل في أعماق القصّة القرآنيّة بمركب مُجرَّدٍ عن الموروث التفسيري ، لنستخرج نقطةً من بحر الدلالات الباطنة في أعماق النصِّ القرآني ، ولنبيِّن كيف أنَّه لا بدَّ من تفعيل العقل المجرَّد لإدراك دلالات أعماق العبارات القرآنيّة ..

.. وكمثال على هذا الإبحار المجرّد في كتاب الله تعالى ، لنقف عند النصِّ التالي الذي يصوِّرُ جانباً من قصّة سليمان عليه السلام ..

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٠ – ٣٥]

.. وقبل الإبحار في أعماق هذا النصِّ الكريم نقول لمتّبعي المنهج التراثي الجمعي الصنمي : نحن نُبحرٍ بمركب العقل المُجرَّد معتقدين أنَّ دلالات النصِّ القرآني أكبر من أن يُحيط بها مخلوق ، وأكبر من الموروث الذي بين أيدينا ، ونحن نعلم التفسير الموروث ومطّلعون عليه ، ولكنّنا نبتغي من هذا الإبحار استخراج درر من أعماق كتاب الله تعالى لم يتعرَّض لها الموروث ، ويحملها النصُّ القرآني ، وذلك كنموذج لتبيان سبيل من سبل

الإبحار في أعماق كتاب الله تعالى ، ونحن نعلم أنّكم لا تستطيعون رؤية الحقِّ في كتاب الله تعالى ، ما دام ليس موجوداً في رواياتكم وموروثاتكم التي جعلتموها أصناماً تحول بينكم وبين كتاب الله تعالى .. وبالتالي لا يهمّنا ما ستقومون به من ذرٍّ للرماد في أعين الناس ، لإبعادهم عن سبل التفعيل العقلي المجرَّد خارج موروثاتكم .. فنحن ننطلق من مقدِّمات قرآنيّة مبحرين بمركب العقل واللغة والمنطق والعلم باتّجاه نتائج يقرُّها كتاب الله تعالى ..

.. إذاً .. نحن بصدد تفسير هذا النصِّ الكريم ، بعيداً عن تأثير أيِّ موروث لا وجود لإشارةٍ له في ظاهر الصياغة اللغويّة لهذا النصِّ الكريم ... وهذا يتطلّب منّا الوقوف عند الحقائق التالية :

- صحيحٌ أنَّ المخصوص بالمدح في ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ ﴾ محذوف ، ولكنَّه يتعلَّق بسليمان وليس بداود عليهما السلام ، فالأقرب لهذه العبارة هو سليمان ، ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ بعد هذه العبارة مباشرة ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، يؤكِّد ذلك ، فلا يجوز أن يكون المراد هو داود ، لأنَّ وصْفَ داود عليه السلام بهذا المعنى قد تقدَّم في الآية المتقدّمة حيث قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] ..

- نستشفّ من هذا النص أنَّ سليمان عليه السلام إنّما كان ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ ﴾ لأنّه كان أوَّاباً ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، وقد وُصف بذلك أيوب عليه السلام ، وفي السورة ذاتها ..

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص : ٤١ – ٤٤]

فاشتراك سليمان وأيوب عليهما السلام بهذا الوصف هو نتيجة تشابهٌ بين سيرتيهما ..

العبارة القرآنيّة ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ ﴾ تتعلّق بما قبلها ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، وليس من العبث ورودها في هذا السياق ، فممّا يتعلّق بكون سليمان عليه السلام أوّاباً هو القصّة التالية التي تبدأ بالعبارة ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ ﴾ ..

ذهاب معظم المفسِّرين بأنَّ كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ تصف وقتاً من الزمن هو الوقت الذي تمَّ فيه العرض ، تنقضه صياغة هذه الكلمة عبر اقترانها بالباء ، فالله تعالى لم يقل (في العشاء) أو (في العشي) ، إنّما يقول جلَّ وعلا : ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ ، فاقتران هذه الكلمة بحرف الباء يصوِّرُ لنا دلالةً مفادها أنَّه بواسطة العشي تمَّ هذا العرض ..

ومّما يقوِّي ما نذهب إليه هو تقديم كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ على كلمتي ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ .. فالدلالة المحمولة بكلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ تحمل من الأهميّة – في هذه المسألة – ما يجعلها متقدّمة على المعني بالكلمتين ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ .. فلو كانت كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ لا تعني إلاّ في وقت العشاء لكان من الأولى تأخيرها ..

ومثال ذلك هو قوله تعالى :

﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨]

وكنّا قد بيّنا في النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) كيف أنَّ كلمة ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ لا تعني وقتاً محدّداً من اليوم ، إنّما تعني بواسطة الإعراض عن الذنوب والخطايا وعدم الالتفات إليها وعدم العودة إليها ، بهذه الآليّة ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ يطلبون المغفرة من الله سبحانه وتعالى ﴿ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ ، ولا مجال في هذا السياق لإعادة ما بيّناه في النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) ..

.. وإن قال قائل .. إنَّ كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ ترد في كتاب الله تعالى مقترنةً بهذه الباء ، أو معطوفة على كلمة مقترنة بهذه الباء ، فهل هي مجرّدة عن التعلّق بالزمن في هذه النصوص ؟ ..

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١]

﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢]

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكهف : ٢٨]

﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾ [ص : ١٨]

﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١]

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [غافر : ٥٥]

.. نقول : إنَّ دلالات هذه الكلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ في كتاب الله تعالى تحمل وجهاً مجرَّداً عن الزمن ، ودلالاتها لا تخرج عن دلالات الجذر الذي تفرّعت عنه ، ولذلك نراها في هذه النصوص تُوضع مُقابل الإبكار ومتقدّمة عليه ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ ، وتُوضع أيضاً مُقابل الغَدَاةِ ولكن متأخره عنها ﴿ بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ ، وتُوضع مقابل الإشراق ومتقدّمة عليه ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾ ، وتأتي – في الآية التي نحن بصدد تفسيرها –

لوحدها دون مقابلة مع غيرها ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ .. وهذه المسائل المقابلة لها (الإبكار ، الغداة ، الإشراق) هي مسائل لكلٍّ منها دلالاته ، والتي لا يمكن حصرها بفترة زمنيّة من اليوم ..

وهذه الكلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ ، يختلف تعلّقها الدلالي عن كلمة ﴿ ٱلۡعِشَآء ﴾ ..

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦]

﴿ .... مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ .... ﴾ [النور : ٥٨]

وحصر دلالات كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ في إطار وقت محـدَّد في اليوم ، هو فرضٌ لتصوّرات مسبقة الصنع على دلالاتها في سياقاتها القرآنيّة ..

في قوله تعالى ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ نرى أنَّ الفعل ﴿ عُرِضَ ﴾ هو بصيغة المبني للمجهول ، وبصيغة المذكَّر ، وتمَّ تقديمه على كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ وعلى الكلمتين ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ ، ونرى كلمة ﴿ عَلَيۡهِ ﴾ ، وليس كلمة (له) ..

نستنتج أنَّ العرض لم يقم به سليمان عليه السلام ، ولم يطلبه .. وهذا العرض الذي هو ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ عُرض عليه نتيجة حالة كان بها ، هي ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ ، فالحالة التي كان بها ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ هي التي بواسطتها ومن خلالها قام العارضون بعرض ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ على سليمان عليه السلام ..

كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ لا تخرج دلالاتها عن المعنى الذي يحمله جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ، ودلالات هذا الجذر اللغوي تدلُّ على ظلامٍ وقلّةِ وضوحٍ في الشيء الذي تتعلّق به .. وهذه الكلمة شأنها شأن الكثير من كلمات كتاب الله تعالى ، تتعلّق دلالاتها

في سياقها النصّي من الساحة التي ترتسم فيها دلالاتُها .. فإن كانت الساحة ماديّة ارتسمت الدلالات في ساحة عالم المادّة ، وإن كانت الساحة معنويّة (غير ماديّة) ارتسمت دلالاتها في ساحة النفس والفكر ..

ومن الأمثلة على الارتسام غير المادّي لمشتقٍّ من مشتقّات الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه هذه الكلمة ، هو كلمة ﴿ يَعۡشُ ﴾ في قوله تعالى ..

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ [الزخرف: ٣٦]

فكلمة ﴿ يَعۡشُ ﴾ في هذه الآية الكريمة تعني قلّةَ وضوحٍ وظلاماً فكريّاً وابتعاداً عن نور الهداية وسبل الحق ..

إذاً .. لا يمكن الجزم بأنَّ دلالات كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ لا تخرج عن ساحة عالم المادّة وعن ساحة فترة محدّدة من اليوم كما ذهبت تفاسيرنا الموروثة ..

وكنّا قد بيّنا كيف أنَّ تقديم كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ على كلمتي ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ يشير إلى أنَّ الدلالة المحمولة بكلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ تحمل من الأهميّة – في هذه المسألة – ما يجعلها متقدّمة – بالنسبة لسليمان – على الدلالة التي تحملها الكلمتان ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ ، فلو كانت كلمة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ لا تعني إلاّ وقتاً محدّداً لكان من الأولى تأخيرها .. وبيّنا مثالاً على ذلك هو كلمة ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨]

كلمة ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾ هي المشتقّ الوحيد في كتاب الله تعالى للجذر (ص ، ف ، ن) ... وفي تفسير هذه الآية الكريمة ، ورد في تفسير : الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (مصوّرة عن دار الكتب) ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م .. ورد النصّ التالي الذي أنقله بحرفيّته :

[[قال القتبي والفراء : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها . ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنَّه قال : من سرّه أن يقوم له الرجال صفوناً فليتبوّأ مقعده من النار ، أي يديمون له القيام]] ..

كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ أعادها بعضهم إلى الجذر (ج ، و ، د) الذي تفرّعت منه كلمة ﴿ ٱلْجُودِيِّ ﴾ ..

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤]

وهي بذلك تحمل دلالات العطاء والحسن والتمسّح بالخير ..

وأعادها بعضهم إلى الجذر (ج ، ي ، د) الذي تفرّعت منه كلمة ﴿ جِيدِهَا ﴾ ..

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد : ٤ – ٥]

وهي بذلك تتعلّق بالأعناق ..

وفضلاً عن كون هذين الجذرين اللغويّين متقاربين كثيراً حيث يشتركان بحرفين ، فضلاً عن ذلك وبالتدبّر السليم لكتاب الله تعالى بعيداً عن أيِّ موروثٍ لا دليل عليه في كتاب الله تعالى ، نرى أنَّ كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ أقرب إلى كونها متفرّعة من الجذر (ج ، ي ، د) ، وذلك لأكثر من سبب ..

❁ كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ تأتي خلف كلمة ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾ وليس قبلها ، وهذا يجعل من كون كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ تتعلّق بالخيل كما قيل بعيد الاحتمال .. فالله تعالى لم يقل (الجياد الصافنات) ، إنّما يقول جلّ وعلا ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ..

❁ هناك علاقة وثيقة – كما سنرى إن شاء الله تعالى – بين العبارة ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ وبين العبارة ﴿ بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .. وبالتالي فربط كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ بكلمة ﴿ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ هو ربط منطقي ..

.. إذاً .. ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ التي تمَّ عرضها على سليمان عليه السلام ، ترسم صورةً مرَّت بهدوء تحت نظره ممّا يتعلّق بالأعناق الدائمة الجمال ، ممّا يتعلّق بالشهوات التي تتوق لها أنفس الرجال .. وورود كلمة ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾ بصيغة جمع المؤنّث السالم (فاعلات) وورود كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ بصيغة (فِعال) ، مع كونِ مروره بهذه الحالة هو نتيجة مروره بالحالة التي تصفها كلمة ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ ، كلٌّ ذلك يقوّي ما نذهب إليه في تفسيرنا لهذا النص ..

فسليمان عليه السلام نبيٌّ من أنبياء الله تعالى ، ولا شكَّ أنَّ النقاء والصفاء والخلاص لله تعالى ملأ نفسه مائة بالمائة ، ولكن هذا لا يعني إغفال الجانب البشري في نفسه عليه السلام .. ألم يقل سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢]

إذاً سليمان عليه السلام كونه نبيّاً يتمنّى ، وهذا التمنّي هو نافذة بسيطة في جدار النبوّة ، يُلقي من خلالها الشيطان في أُمنية النبيّ الذي تمنّى ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ .. بمعنى أنَّ هذا التمنّي هو هبوطٌ نسبيٌّ بسيطٌ في الصورة المثلى (مائة بالمائة) للنبوّة ، وبالتالي هو عشيٌّ نسبيٌّ تهبطُ فيه النفس هبوطاً نسبيّاً بسيطاً عن الصورة المُثلى (مائة بالمائة) للنبوّة .. هذه هي الدلالة المحمولة بكلمة ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ ، حيث استطاع العارضون (الذين هم من الجنّ كما سنرى) عَرضَ الصافنات الجياد على سليمان عليه السلام ..

كما قلنا .. العبارة القرآنيّة ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ تتعلّق بما قبلها ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، تعلّق النتيجة بمقدّمتها .. فالدلالة المحمولة بالعبارة القرآنيّة ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ بمعنى أنَّه يعود فوراً إلى الصور المُثلى (مائة بالمائة) لمستوى النبوّة بعد الهبوط النسبي عن هذا المستوى ، نتيجةَ حالة عشيٍّ نسبي ، هذه الدلالة تحقَّقت واقعاً بالقصّة المحمولة بالنصِّ الذي يبدأ بالعبارة ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ .. وبالتالي فقوله تعالى ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ هو الصورة المتحقّقة لحالة الهبوط النسبي عن الصورة المُثلى (مائة بالمائة) لمستوى النبوّة ، وهذا هو بسبب مرور نفس سليمان عليه السلام بحالة ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ ..

قوله تعالى الذي يصف كلام سليمان عليه السلام ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ نرى أنَّه يبدأ بحرف الفاء في كلمة ﴿ فَقَالَ ﴾ ، وبالتالي فقول سليمان ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ هو نتيجة عرض الصافنات الجياد عليه بعد أن أصابته حالة العشي .. وهو قولٌ بدأ مع العرض مباشرة ، واستمرَّ حتّى نهايته ، وهذا يدلُّ على أمرين في الوقت ذاته ..

- وقوع سليمان بحالة العشي ..
- ابتداء الرجوع إلى الصورة المثلى (مائة بالمائة) لسويّة النبوّة منذ بداية حالة العشي ..

... وبالتالي فترتيب الأحداث هو :

- وقوع سليمان بحالة العشي ..
- استثمار العارضين لذلك ، فقاموا بعرض الصافنات الجياد عليه ..
- قال : ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ..

قوله تعالى الذي يصف كلام سليمان عليه السلام ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ نرى فيه تعلّق الذكر بصفة الربوبيّة ﴿ ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ .. ونرى كلمة ﴿ عَن ﴾ في العبارة ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ ، فقول الله تعالى الذي يصف ما قاله سليمان لم يرد بالشكل (إنّي أحببت حبَّ الخير **على** ذكر ربّي) ، ولم يرد بالشكل (إنّي أحببت حبَّ الخير **من** ذكر ربّي) ..

فالعبارة القرآنيّة ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ تعني : إنّي أحبّبت حبَّ هذا الذي رأيته في هذه الحالة ، عن حالةٍ كُنت فيها بعيداً عن هذا الهبوط النسبيّ ، بمعنى عن حالةٍ كنت فيها بمستوى النبوّة مائة بالمائة .. وورود صفة الربوبيّة ﴿ رَبِّي ﴾ يبيّن لنا أنَّ المسألة التي تمَّ الهبوط النسبي خلالها تتعلّق بمسألة دنيويّة ممّا يُسخّره الربّ جلّ وعلا بين أيدي الناس لامتحانهم .. فكلمة ﴿ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة تعني الشهوة الدنيويّة ، وقد وردت في كتاب الله تعالى بمعنى إيثار الدنيا ممّا تهواه النفس وتتوق إليه ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : ١٩ – ٢٣]

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦ – ٨]

في الآية الكريمة ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ نرى أنَّ العبارة الأخيرة فيها ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ تدلّ على أنَّ سليمان عليه السلام كان يعيد هذه الكلمات : ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ منذ أن وقع بصره على الصافنات الجياد إلى أن توارت بالحجاب .. وهذا يجعلنا نستبعد رواية الخيل وعرضها ، فما توارى بالحجاب هو الصافنات الجياد ، وهذا يقتضي تواريها

كلّها بالحجاب ، بمعنى اختفاء آخر عنصر من عناصر العرض بالحجاب ، وهذا يتنافى مع مفهوم عرض الخيل من نقطتين :

❁ ما الفائدة من العرض بابتعاده عن البصر إلى نقطة الاختفاء بالحجاب ، فمفهوم العرض هو أن يرى الإنسان المعروض ، وابتعاد المعروض عن النظر إلى التواري بالحجاب يتناقض مع مفهوم العرض من أساسه .. بمعنى : ما الفائدة من مرور آخر معروض فيها من الخيل ما بين نقطة الرؤية وبين نقطة التواري بالحجاب ؟ ..

❁ لا يُعقَل أنَّ سليمان عليه السلام بقي يعيد الكلمات ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ منذ أن وقع بصره على عرض الخيول (كما زُعم) إلى نهايته ، بل إلى تواري آخر ما فيها بالحجاب ..

في العبارة القرآنيّة ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ نرى أنَّ كلمة ﴿ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ مجرورة بالباء ، ومعرَّفة بأل التعريف ، وأنَّ كلمة ﴿ تَوَارَتۡ ﴾ ليست بصيغة المبني للمجهول .. فالصافنات الجياد توارت هي دون مؤثِّرٍ خارجيٍّ ، بواسطة الحجاب الذي هو واحد لا ثاني له ، ومعروف في سياق هذه القصّة ..

.. إذاً .. الحجاب هو الحدّ الذي تبدأُ عنده نقطة اللا رؤية بالنسبة للصافنات الجياد .. وهو الحدّ الذي لم يستطع به العارضون الاستمرار بعرضهم .. فالصافنات الجياد توارت بهذا الحدِّ الذي عنده تبدأ مرحلة اللا رؤية .. بمعنى أنَّها مرَّت أمامه إلى نقطة اللا رؤية ..

كلمة ﴿ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ تصوِّرُ لنا نقطة اللا رؤية ، ليس نتيجة حاجز مستقلٍّ بعيداً عن نفس سليمان عليه السلام .. إنّما تصوِّر لنا النقطة التي وصل فيها سليمان إلى حالة الصورة المثلى للنبوّة مائة بالمائة ، بمعنى انتهاء حالة العشي التي مرّ بها .. ولذلك نراها معرّفة بأل التعريف وتلتصق بها باء الواسطة والوسيلة .. فبوصول سليمان عليه السلام إلى مرحلة الحجاب الذي يمنعه من الهبوط النسبي إلى حالة العشي ، أي بعودته إلى الصورة المثلى للنبوّة مائة بالمائة ، بهذه الآلية انتهت الصورة التي عُرِضَت عليه ..

الضمير في العبارة القرآنيّة ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ لا يعود إلاَّ إلى ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ، وإعادته إلى الشمس كما زعم بعضهم هو مسألة لا دليل عليها على الإطلاق ، فالشمس لم تُذكر في السياق السابق ولا اللاحق لهذه العبارة القرآنيّة ، والمنطق أن تتمّ إعادة الضمير إلى أقرب المذكورين ، وأقرب المذكورين هو ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ، وحتى الذين ذهبوا إلى عودة الضمير إلى الشمس محتجّين بأنَّه ورد ما له تعلّق بها وهو ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ ، حتّى لو أخذنا بعين الاعتبار هذه الأوهام فإنَّ كلمة ﴿ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ أبعد من العبارة ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ وذلك عن العبارة ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ .. فلا شكَّ أنَّ ما توارى بالحجاب هو الصافنات الجياد ..

العبارة القرآنيّة الحاملة لقول سليمان عليه السلام ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ تبيّن لنا بهذه الحيثيّة من الصياغة أنَّ الذي أحبَّه سليمان عليه السلام هو ﴿ حُبَّ ٱلْخَيْرِ ﴾ ، فما حبَّه هو ليس الخير لذاته إنّما هو حبّ هذا الخير ..

وفي هذه الحيثيّة من الصياغة ما يؤكِّد أنَّ المسألة – بالنسبة لسليمان عليه السلام – أقرب إلى الجانب المعنوي المجرَّد منها إلى الجانب المادّي الحسّي ، فالله تعالى لم يصف بقوله العظيم هذه الصورة بعبارة من مثل (إنّي أحببت حبّي للصافنات الجياد) ، أو (إنّي أحببت حبّي للخير) ، أو (إنّي أحببت حُبّ الصافنات الجياد) ، إنّما يقول تعالى ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ..

.. وهناك صورة قرآنيّة تُقارب – من هذه الزاوية – هذه الصورة القرآنيّة ، وهي قوله تعالى ..

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران : ١٤]

.. كلمة ﴿ لِلنَّاس ﴾ في هذه الآية الكريمة تعني الناس ، رجـالاً ونـساءً ، وليـست محصورة بالرجال ، كما ذهب الكثيرون ، وتخصيصها بالرجال دون النساء هـو خـروجٌ على حقيقة الصياغة اللغويّة لهذه الآية الكريمة ..

ولإدراك هذه الحقيقة لا بدَّ من الوقوف عند العبارة ﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ .. فالذي زُيّن هو ﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، وليس شهوة النـساء كمـا يتخيّلون .. بمعنى أنَّ حُبَّ شهوة النساء زُيّنت للرجال ، وزُيّنت للنساء أيضاً .. بمعنى أنَّـه زُيّن للرجل أن يشتهي المرأة ، وزُيّن للمرأةِ أن يشتهيها الرجل .. إذاً .. الذي زُيّـن – في هذه الصورة القرآنيّة – ليس النساء ، وليس شهوة النساء ، إنّما هـو ﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ..

وفي المسألة التي بين أيدينا وقيد الدراسة ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ ، نرى أنَّ الذي أحبّه سليمان عليه السلام ليس ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ ، وليس حبّه هو لها ، إنّما هو حبّ الخير بإطاره العام ، الناتج عن عرضها أمامه وعن غير ذلك .. وهذا يؤكّد صحّةَ ما ذهبنا إليه من أنَّ عرض ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ إنّما كان نتيجة هبوط نفسه عليه السلام – في ذلك الموقف – هبوطاً نسبيّاً عن الصورة المُثلى (مائة بالمائة) لمستوى النبوّة ، وهو – كما بيّنا – بسبب مرور نفس سليمان عليه السلام بحالة ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ ..

بيّنا أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ تعني أنَّ هذه المحبّة الشديدة إنّما حصلت عن ذكر الربَّ جلّ وعلى ، بمعنى عن حالة كان فيها عليه الـسلام (بالنـسبة للمـسألة الدنيويّة التي عُرضت عليه بما تحمله من شهوة) في مستوى الصورة المُثلى (مائة بالمائـة) لمستوى النبوّة من النقاء والخلاص بدرجة مائة بالمائة ، لا عن حالة أقل من ذلك .. وهذا يتعلّق بمسألة ما يسخّره عطاء الربوبيّة بين أيدي الناس ..

العبارة القرآنيّة ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ تصوِّرُ خطاباً يوجِّهه سليمان عليه السلام للعارضين ، بأن يردّوا عليه ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ .. والردُّ يعني الرجوع بالشيء إلى الحالة التي كان عليه المردود ..

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القصص : ١٣]

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ – ٢٨]

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]

وهذا ينفي مفهوم عرض الخيل من أساسه ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ تعني إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه قبل التواري بالحجاب ، بمعنى إرجاع الصورة التي عُرِضَت عليه قبل تواريها بالحجاب .. ولو كان الأمر هو إعادة الخيول إليه لناسب ذلك الإتيان بها ، وليس الرد ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ ..

العبارة القرآنيّة ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ نراها تبدأ بالفاء ، فبمجرّد ردِّها عليه بدأ مسحاً بالسوق والأعناق ، وظلَّ يفعل ذلك ..

حمْلُ قوله تعالى ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ بأنَّ سليمان عليه السلام مسح السيف بسوقها وأعناقها ، أي قطعها هو قولٌ لا دليل عليه ، فلو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] قطعها ، وهذا ممّا لا يقوله عاقل .. ومن جهةٍ أُخرى فهذا الزعم لا يحمل لسليمان عليه السلام إلاّ الإساءة ، فقطع سوق الخيل وأعناقها هو محرّم لا يليق بإنسان ..

ما نراه في هذه العبارة القرآنيّة أنَّ كلمة ﴿ مَسْحًا ﴾ ليست مضافة ، فالله تعالى لم يضف هذه الكلمة إلى الصافنات الجياد ، مع أنَّ المسح متعلّق بها .. وهذا يؤكّد حقيقة ما نذهب إليه في تفسير هذا النص الكريم ، فالمسح ساحته نفسُ سليمان عليه السلام ، بمعنى إفراغ ما دخل نفسَه من الصورة المعروضة عليه وهي الصافنات الجياد ... ولإدراك هذا المعنى لا بدَّ من الوقوف عند دلالات الجذر (م ، س ، ح) في كتاب الله تعالى ..

مشتقّات الجذر (م ، س ، ح) في القرآن الكريم تحمل دلالاتٍ تختلف كثيراً عمّا تمَّ تأطيره في معاجم اللغة الموروثة .. فمشتقّات هذا الجذر اللغوي هي الكلمات [﴿ فَٱمْسَحُواْ ﴾ ، ﴿ وَٱمْسَحُواْ ﴾ ، ﴿ مَسْحًا ﴾ ، ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾] .. ولنقف عند هذه الكلمات كلمة كلمة لنرى دلالاتها كما يحملها كتاب الله تعالى ..

.. لننظر في الآيتين الكريمتين التاليتين ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٤٣]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦]

ما نراه في مسألة المسح في هاتين الآيتين الكريمتين هو التعلّق بباء الواسطة والوسيلة : [﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۗ ﴾ ،، ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾ ،، ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ ﴾] .. فلماذا لا يرد أمر المسح في هذه الأحكام إلاَّ مقترناً بالباء ..

إنَّ تقسيم دلالات حرف الباء في كتاب الله تعالى والتي قام بها العلماء خلال التاريخ ، ناتجٌ عن إسقاط المفاهيم المختلفة على العبارات القرآنيّة ، فحسب الفهم المُسبَق للعبارة القرآنيّة يُفصَّل معنى لحرف الباء ، كما تمَّ في تفسير معنى حرف الباء في هذه العبارات القرآنيّة ..

... المسح بالرأس ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾ هو إفراغ شحنة الجسم بواسطة الرأس ، فمرور اليد فوق الرأس في الوضوء ينتج عنه إفراغ الشحنة المتركّزة في هذا الرأس ، وبالتالي فالمسح هو إفراغ شحنة الجسم بواسطة الرأس .. وهذا مِمَّا تحمله العبارات : [﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۗ ﴾ ،، ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾ ،، ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ ﴾] في الآيتين الكريمتين السابقتين ..... هذا الفهم لدلالات هذه العبارات القرآنيّة ينطلق – كما نرى – من صياغتها اللغويّة ومن عدم تفصيل دلالات لحرف الباء لا يجمع بينها رابط ولا دليل عليها على الإطلاق ..

ويتجلّى هذا المعنى للجذر (م ، س ، ح) في كتاب الله تعالى في كلمة ﴿ ٱلۡمَسِيحُ ﴾ وهي الكلمة الأكثر وروداً لمشتقّ من مشتقّات هذا الجذر في كتاب الله تعالى .. فالمسيح عليه السلام وَصفه الله تعالى بهذا الاسم لأنَّه مُفرغٌ تماماً من الخطيئة ومن الذنوب ، وهذا الاسم ﴿ ٱلۡمَسِيحُ ﴾ يصف الجانب المتعلّق بالمنهج والرسالة من شخص عيسى عليه السلام .. ولذلك فأهل الكتاب حينما زعموا ابناً لله تعالى إنّما كان زعمهم عبر وصف اسم ﴿ ٱلۡمَسِيحُ ﴾ دون غيره .. فهذه الكلمة تعني الجانب الروحي في نفس عيسى عليه السلام ، ، أي جانبَ الرسالةِ التي يحملُها عيسى عليه السلام ..

.. فالقرآن الكريم يبيّن لنا أنَّ نفس عيسى عليه السلام مليئة بالروح مائة بالمائة ..

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١]

ولما كان الروح يعني الصلة والمدد والقربى من الله سبحانه وتعالى [[كما بيّنا في النظريّة الثانية (القَدَر)]] فإنَّه لا مساحة باقية للذنوب والخطايا في نفس عيسى عليه السلام .. وبالتالي فإنَّ صفة ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ التي تعني فراغ النفس تماماً من الذنوب والخطايا ، تصفه عليه السلام وصفاً مطلقاً .. من هنا كان اختيار اسم ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ في الزعم بأنَّه عليه السلام إلهٌ أو ابنٌ لله تعالى عن ذلك علوّاً كبيرا ..

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٢]

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١]

ما يؤكّد صحّةَ ما نذهب إليه في رسم دلالات كلمة ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ هو أنَّها على وزن (فعيل) ومعرَّفة بأل التعريف .. فبهذه الصيغة على وزن (فعيل) دلالة على أنَّ المسح هو صفة في كينونته عليه السلام ، لا تتعدّى غيره من البشر (ماسح) وليست مكتسبة من غيره (ممسوح) ..

وهذه الكلمة ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ بهذه الصيغة وبأل التعريف تصف وصفاً مطلقاً حقيقته عليه السلام كنفسٍ مليئةٍ بالروح ، وبالتالي كنفسٍ فارغةٍ تماماً من الذنوب والخطايا ،

وهذه الصفة بهذه الصياغة وبأل التعريف وبهذا المعنى المستمدّ من مشتقّات الجذر (م ، س ، ح) في كتاب الله تعالى ، لا يتّصف بها من البشر إلاّ هو عليه السلام ..

.. إذاً .. كلمة ﴿ مَسْحًا ﴾ في العبارة القرآنيّة في النصّ الذي نحن قيد دراسته ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ لا تخرج دلالاتها عن دلالات جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ، فسليمان عليه السلام فور ردِّ الصورة التي عُرضت عليه وهي الصافنات الجياد طفق إفراغاً لما علق في نفسه نتيجة عرض تلك الصورة عليه .. واستمرَّ هذا الإفراغ إلى أن عاد إلى الصورة المثلى التي كان عليها قبل وقوعه بحالة العشيِّ ، وعند تمام الإفراغ لم يبق للعارضين بابٌ يدخلون من خلاله لإلقاء عرضهم ، وهذه الحالة (الصورة المثلى للنبوّة مائة بالمائة) هي الحجاب المعرَّف بأل التعريف المذكور في هذا النصّ الكريم ..

كلمة ﴿ تَوَارَتۡ ﴾ بهذه الصياغة من الجذر (و ، ر ، ي) تؤكّد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرنا لهذا النصِّ الكريم ، وتنفي مسألة الخيل من أساسها .. فمشتقّات هذا الجذر اللغوي أكثر تجريداً عن الجهات المكانيّة ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩٦]

﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٩]

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج : ١٩ – ٢٠]

فقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ الذي نرى فيه تعلّقاً لكلمة ﴿ وَرَآئِهِم ﴾ بالذات الإلهيّة ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ ، يحمل بياناً على تجرّد مشتقّات هذا الجذر اللغوي (و ، ر ، ي) عن الجهات المكانيّة ..

إذاً .. في ورود كلمة ﴿ تَوَارَتۡ ﴾ بالتاء ، وبصيغة المبني للمعلوم ، وبكونها من مشتقّات الجذر (و ، ر ، ي) ، في ذلك بيانٌ أنَّ الصافنات الجياد توارت هي بكينونتها عن مجال الرؤية الذي عُرِضَت به لسليمان عليه السلام ، بمعنى أنَّها خرجت خروجاً نهائيّاً من المجال الذي كانت فيه أثناء عرضها أمام سليمان عليه السلام ..

بعد أن توارت الصافنات الجيادُ بالحجاب فخرجت خروجاً نهائيّاً من الساحة التي عُرِضَت بها أمام سليمان عليه السلام ، نتيجة عودة الصورة المثلى للنبوّة إلى نفسه ، بعد ذلك طلب عليه السلام ردَّ ما تمَّ عرضه ، وفور ردِّ ما تمَّ عرضه بدأ إفراغاً لما في نفسه بواسطة السوق والأعناق ، محافظاً على الصورة المثلى لمستوى النبوّة (مائة بالمائة) .. فالعرض الآخر الذي طلبه عليه السلام ليس فقط ليثبت أنَّه أقوى من التأثّر بما عُرِضَ عليه ، وإنّما أيضاً ليفرغ عبر جزئيّات ما عُرِض عليه إمكانيّة التأثّر الدنيوي بها .. ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ ..

كلمة ﴿ بِٱلسُّوقِ ﴾ نراها مجرورة بباء الواسطة والوسيلة ، ومشتقّة من الجذر اللغوي (س ، و ، ق) والذي تدور دلالاته في إطار حَدْوِ الشيء ، فسَوق الشيء هو دفعه في مسارٍ محدَّد ..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾ [الأعراف : ٥٧]

﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ [مريم : ٨٦]

والسّاق هو واسطة السبيل الذي يتمُّ السير خلاله .. لننظر إلى قولِه تعالى ..

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ [القيامة : ٢٦ – ٣٠]

فالإنسان المعنيّ في هذه الآيات الكريمة مدفوعٌ في ساق حياته الدنيا ، وهو في نهاية هذا السبيل فيفارقه ليبدأ حياةً أُخرى في ساقٍ آخر هو مرحلة ما بعد الموت .. إذاً هو في مرحلة اجتماع ما بين هذين الساقين .. هذا ما نقرؤه في قوله تعالى ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ ..

وهذا المعنى لكلمة ساق نراه أيضاً في قوله تعالى ..

﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم : ٤٢ – ٤٣]

فقوله تعالى ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ هو يوم يُكشف عن سبيلٍ ومسارٍ ليسجد لله تعالى المعنيّون بهذا النص ، ولكنّهم لا يستطيعون ذلك لأنّهم في موقفٍ ذليلٍ لا يملكون فيه إمكانيّة العبادة ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ ﴾ ، فهم في موقفٍ ليسوا سالمين فيه ، فوقت العبادة في الحياة الدنيا لم يعملوا به ، وحينما كانوا يُدعون إلى السجود لله تعالى في حياتهم الدنيا كانوا يرفضون ذلك ﴿ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴾ ، لذلك حينما يُكشف عن سبيلٍ ومسارٍ ليسجد هؤلاء لله تعالى ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ لا يستطيعون ذلك .. إذاً كلمة ﴿ سَاقٖ ﴾ تعني السبيل والمسار والآلية التي وفقها يتمّ السير ..

والسُّوق هو حامل المسار والسبيل الذي وفقه يتمّ السير ..

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح : ٢٩]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ تعني فاستوى على حامله ..

وما نراه في قوله تعالى ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ أنَّ كلمة ﴿ بِٱلسُّوقِ ﴾ بهذه الصياغة اللغوية تحمل دلالة جليّة بأنَّ المسح كان بآليّة هي الحامل والمسار الذي وفقه تمَّ العرض ، وهذا المسار ليس مستقلاً عن مسألة الأعناق ﴿ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .. فالله تعالى لم يقل (بالسوق وبالأعناق) إنّما يقول جلّ وعلا ﴿ بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .. وكنّا قد قلنا بأنّه هناك تقابل ما بين كلمة ﴿ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ وبين كلمة ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴾ .. وهناك تقابلٌ بين كلمة ﴿ بِٱلسُّوقِ ﴾ وبين كلمة ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾ .. فالصافنات الجياد التي تمَّ عرضها ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ، تمّ إفراغ آثارها من نفس سليمان عليه السلام عبر آليّة هي ﴿ بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .. وكلُّ ذلك يؤكّد صحّة ما نذهب إليه في تفسير هذا النصِّ الكريم ..

كنا قد بيّنا أنَّ عدمَ إضافة العبارة القرآنيّة ﴿ مَسْحًۢا ﴾ للصافنات الجياد ، يؤكّد أنَّ المسحَ ساحته نفس سليمان عليه السلام .. وما نراه أيضاً أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ ليست مضافة للصافنات الجياد مع أنّها تتعلّق بها ، فالله تعالى لم يقل (بسوقها وأعناقها) إنّما يقول ﴿ بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .. فالمسح ليست ساحته الصافنات الجياد إنّما هو إفراغٌ لما علق بنفس سليمان عليه السلام بواسطة السوق والأعناق ﴿ بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ ..

قوله تعالى التالي لهذه العبارة القرآنيّة مباشرةً يحمل دليلاً يؤكّد صحّة ما نذهب إليه .. ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ..

العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ يتعلّق بما قبله ، على سبيل التبيان ، فالفتنة هي الابتلاء ، وما عُرض على سليمان عليه السلام هو ابتلاء ، ولا يُوجَد في النصِّ دليلٌ على أنَّ العبارة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ بداية قصّةٍ أُخرى مستقلّة عن السابقة .. وحتّى لو كانت هذه العبارة القرآنيّة بداية قصّة جديدة فلا بدَّ أن تتعلّق بالقصّة السابقة لها ..

حرف الواو في قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ هو حرف عطف لهذه المسألة على المسألة المحمولة بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ .. فالله تعالى لم يقل (ولقد فتنا سليمان فألقينا على كرسيّه جسداً) ، إنّما يقول جلَّ وعلا ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ..

.. إذاً .. هناك ابتلاء لسليمان عليه السلام ، وهناك إلقاءُ جسدٍ على كرسيّة ، ونتيجة ذلك ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ..

ورود كلمة ﴿ جَسَدًا ﴾ بهذه الصيغة من الجذر (ج ، س ، د) له دلالته ، فمشتقّات هذا الجذر تحمل دلالاتٍ واسعة تشمل كلَّ صورة مادّيّة تتمثّل بجسدٍ ، سواءٌ كانت حيّةً تأكل الطعام ، أم كانت لا تأكل الطعام .. فالجسد اسم لكل صورة ماديّة كثيفة ، سواء كانت من اللحم والدم ، أو لم تكن كذلك .. وهذا على خلاف الجسم كما سنرى بأنّه من الدم واللحم حصراً ..

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧ – ٨]

إنَّنا نرى أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ هي صفة جسد ، والمعنى وما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين ، أي لم يجعلهم جسداً لا يأكلون بل جسداً يأكلون الطعام ..

وبإمكاننا أن نقرأ قول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ بأنَّها تعني : وما جعلناهم جسداً ليس فيه حياة لا يأكلون الطعام ، ولكن جعلناهم جسداً فيه حياة يأكلون الطعام ..

وبإمكاننا أن نقرأ قول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ بأنَّه يعني أنَّ الجسدَ ليس صورة ماديّة تأكل الطعام كالجسم ، إنّما الجسد هو صورة ماديّة لا تأكل الطعام ، بمعنى وما جعلنهم جسداً أبداً ، كون الجسد في ماهيّته لا يأكل الطعام ، وبالتالي ما جعلناهم لا يأكلون الطعام ..

وهذا المعنى نستطيع قراءته في قوله تعالى ..

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٨]

﴿ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ [طه : ٨٨]

فقوله تعالى ﴿ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ هو صورة جسم ، ولكن ليس جسماً ، فالحلي أُخرجت لهم جسداً له خوار .. ولذلك فالآية التالية للآية (١٤٨) في سورة الأعراف تؤكِّد أنَّهم عادوا فعرفوا أنَّهم قد خُدعوا وضلّوا ..

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٩]

بينما الجذر (ج ، س ، م) ورد له في القرآن الكريم مشتقّان ، دلالاتهما واضحة جليّة بأنّها تعني الجسم الحي المكوّن من لحم ودم ..

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧]

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤]

.. إذاً .. قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ نرى فيه أنَّ كلمة ﴿ جَسَدًا ﴾ تصوِّر دلالة التجسيد (من غير دم ولحم) ..

.. قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ لا نرى فيه أحداثاً مستقلَّة كما رأينا في الآيات السابقة ، وهذا ما يدفعنا لربط دلالات هذه النصّ بالقصّة المحمولة في الآيات السابقة ..

..... ولا أُريد الإطالة .. فما أردته من هذا العرض في تفسير بعض جوانب هذا النصِّ ، هو إعطاء نموذج عن كيفيّة البحث المُجرَّد في دلالات النصِّ القرآني ، وكيف أنَّ الانطلاق من ظاهر الصياغة اللغويّة للنصِّ القرآني بشكلٍ مُجرَّدٍ عن التاريخ والموروث يُوصلنا إلى أعماقٍ جديدة في النصِّ القرآني ، ما كان لنا أن نصل إليها إلاَّ بهذا التجرّد ، وبالنظر إلى كتاب الله تعالى بعيون قرآنيّة ، بعيداً عن أيِّ تأثير آخر ..

.. ونعود فنقول : بالتأكيد لن يُسرّ من إبحارنا هذا أصحابُ المنهج التراثي الجمعي الصنمي ، فهذه الدرر الكامنة في أعماق النصِّ القرآني ، والتي استخرجناها – بفضل الله تعالى – عبر إبحارنا المجرَّد هذا ، ليست موجودة في الموروث ، ولا يطيب لهم أيُّ خروج عن أقوال السابقين .. ولكنَّ ما لا يستطيعون ردَّه هو الحجج والبراهين والأدلّة المقدّمة ما بين النتائج والمقدِّمات في إبحارنا هذا .. فنحن نؤمن إيماناً حقيقيّاً صادقاً بقوله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

❁ ❁ ❁

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

من منظار
الحكمة المطلقة

أخي القارئ ..

التعريفات والأحكام المُجرَّدة عن التاريخ والزمان والمكان لمسائل العبيد وملك اليمين في هذا الفصل ، مبرهنة قرآنيّاً ، وليست من الخيال ... وتخيّل بعضهم بمعارضتها لدلالات النصّ القرآني ن ناتجٌ عن جعل التاريخ (برواياته ورجالاته وأحداثه المنقولة بآليّة تاريخيّة مليئة بالأخطاء والأهواء والعصبيّات) إطاراً للمعاني والدلالات التي تحملها كلمات الله تعالى ..

وهذا لا يعني – كما سيفتري بعضهم – محاكمةً للتاريخ ، ولا إساءةً لأحد .. إنّ ما نعنيه وما نريده هو فهم النصّ القرآني من منظارٍ مجرّدٍ عن التاريخ والزمان والمكان ، انطلاقاً من الإيمان الكامل – لا مجرّد القول – أنَّ القرآن الكريم فوق التاريخ والزمان والمكان ..

.. سننظر في هذا الفصل – إن شاء الله تعالى – من منظار الحكمة المطلقة التي يحملها القرآن الكريم ، والمجرّدة عن الزمان والمكان والتاريخ ، إلى مسائل أُثير حولها الجدل قديماً وحديثاً ، لنرى كيف أنَّ القرآن الكريم يحمل لهذه المسائل أحكاماً عادلةً حكيمة ، وصوراً مجرّدة عن التاريخ والزمان والمكان ، وكيف أنَّ القرآن الكريم بريء مِمّا أُلصق به من تشريعات وضعيّة حُسبَت على الإسلام ، مع أنَّها تشريعات وُضِعَت تحت الضغط التاريخي والسياسي والاجتماعي الذي خضعَ له مشرّعوها ، بعد قرون من نزول رسالة الإسلام ..

إنّها مسائل العبيد وملك اليمين ، وما يرتبط بها من أحكام حاول مشرّعوها (تحت الضغط التاريخي) والسياسي فصلَ العبيد والإماء عن باقي البشر ن واعتبارهم مخلوقات من درجة قريبة من درجة الحيوانات ..

قالوا تُسبى النساء في الحروب ، ويتحوّلن إلى ملك يمين يتمّ وطؤهنّ دون عقد نكاح على الرغم من أنوفهن ، حتى المتزوّجات منهنّ ، ويتمّ بيعهنّ وشراؤهنّ كالحيوانات ، وباستطاعة مالكهنّ أن يبيع وطأهنَّ لغيره ، مع بقاء خدْمَتَهُنَّ للمالك ، وما يلدن من غير المالك هم عبيدٌ للمالك ، ذكوراً كانوا أم إناثاً .. ووضعوا تشريعات خاصّةً بهذه المسألة ، بحيث يستطيع الرجل أن يطأ العدد الذي يريد من النساء تحت مظلة ملك اليمين ، وبحيث يخرج من يزني بملك يمين عن أحكام الزنا التي شرعها الله تعالى في كتابه الكريم ، وبحيث يُستثنى مُلك اليمين من الأحكام التي يحملها القرآن الكريم ..

وقالوا – أيضاً – يُؤسَر الرجال ويتحوّلون إلى عبيد لا يحقّ لهم تملّك أيّ شيء ، ويباعوا كالحيوانات ، ووضعوا تشريعات خاصّة بهذه المسألة تُخرج العبيد من إطار الكرامة الإنسانيّة ..

والمسألة التي تضع العقل في الكف ، هي أنَّ دخول هؤلاء المملوكين (ذكوراً كانوا أم إناثاً) في الدين الإسلامي بعد سبيهم ، لا يُخرجهم من إطار الانصياع للأحكام الظالمة ، التي تمّ تلبيسها وافتراؤها على منهج الله تعالى .. فحتّى الدين الإسلامي ذاته – حسب التشريعات الوضعيّة الخاصّة بالعبيد وملك اليمين – لا يحمي أعراضهم ، ولا يصون كرامتهم ، ولا يحفظ أموالهم ..

باختصارٍ شديد .. العبيد وملك اليمين (من منظار التشريعات الوضعيّة التي لُبّست ظلماً على الإسلام) هم خارج إطار الإنسانيّة ، وخارج إطار أحكام كتاب الله تعالى ..

والأحكام الواردة في القرآن الكريم لمسائل العبيد وملك اليمين ، من منظار التشريعات الوضعيّة التي لُبّسَت على الإسلام وحُسِبَت عليه ظلماً ، لا يُوجَد لها الآن أيُّ إسقاط ، لأنّه – من منظار تلك التشريعات – لم يبق هناك عبيد وملك يمين ، وبالتالي هي أحكام نسخها الزمن ، والآيات الكريمة التي تحمل هذه الأحكام هي من أجل التلاوة والتبريك ،

ولا تختلف – من حيث التطبيق – عن الآيات الكريمة التي زعموا نسخها ، عبر مسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة ، كما بيّنا في النظريّ الثالثة (الحقّ المطلق) ..

وسيقول بعضهم : ما فائدة البحث في مسائل العبيد وملك اليمين ، في زمنٍ تلاشت فيه ؟ .. وما هي فائدة هذا البحث بعد قرون عديدة من التأطير الفقهي لهذه المسائل ؟ .. وما هو العمق الذي من الممكن أن نُضيفه لفكرنا الإسلامي عبر إعادة بحث هذه المسائل ؟ ..

نقول لهؤلاء : إنَّ القرآن الكريم بكلِّ عبارة فيه ليس مُؤطَّراً في سجن التاريخ والزمان والمكان ، وإنَّنا نرى في أيِّ عبارة قرآنيّة إسقاطات تمتدّ في كلِّ زمانٍ ومكان ، وإنَّ منظاركم التاريخي الخاضع للزمان والمكان الذي تجعلونه محيطاً بالعبارات القرآنيّة ، وسِجْنَكم لهذه العبارات في حدود تصوّراتكم ، هو ما يجعلكم تتوهّمون انصياع بعض العبارات القرآنيّة لتاريخيّة الأحكام ن وكأنَّ هذه العبارات تحمل أحكاماً لأزمنة ماضية ، ولا فائدة منها الآن ، كما هو الحال حينما توهّمتم وجود أحكامٍ منسوخة في كتاب الله تعالى ، مع العلم أنَّ القرآن الكريم بريء من كلِّ هذه الأوهام ..

وحتّى لو سلّمنا- جدلاً – لمنظاركم التاريخي هذا ، فنحن تعنينا تبرئة القرآن الكريم ممّا أُلصق به من تفاسير لا يحملها ، لا من قريب ولا من بعيد ، لأنَّنا نؤمن أنَّ قدسيّة القرآن الكريم وصلاحيّةَ أحكامه وعدلَ منزله ، فوق التاريخ ، وأنَّ القرآن الكريم (قدسيّةً وحكماً وعدلاً) لا يختلف ماضيه عن حاضره عن مستقبله .. فهذه النصوص القرآنيّة التي توهّموها ضمن إطار أحداث منتهية ، نقرؤها في كلِّ زمان ومكان ، وتدبّرنا لها في كلِّ زمانٍ ومكان ، هو عبادةٌ يأمرنا الله تعالى بها .. ونحن نؤمن أنَّ أحكام هذه النصوص القرآنيّة لها إسقاطاتها في كلِّ زمانٍ ومكان ..

وإنّنا ببحثنا هذا (وأيِّ بحثٍ علمي منهجي في كتاب الله تعالى) نُبحر باتّجاه أعماق جديدة في فكرنا الإسلامي ، ونقترب أكثر من فهم حقيقة المسائل القرآنيّة ن وبالتالي نقترب أكثر من فهم حقيقة مُراد الله تعالى في كتابه الكريم ، ويتّسع أُفقنا باتّجاه فهم

علاقاتنا مع أحكام الله تعالى ، ومع الآخرين ، وبالتالي نضيف أعماقاً جديدة لإيماننا وفكرنا .. وكلّ ذلك من متطلّبات العبادة الصادقة لله تعالى ..

إنَّ من يعتقد أنَّ الله تعالى يأمر باستعباد بعض البشر – مهما كان هؤلاء البشر – وبوطء نسائهم قهراً وذلاً ، أو أنَّ الله تعالى لا يُحرّم ذلك ، إنّما يفرض سلفاً – سواء علم بذلك أم لم يعلم – أنَّ ربّه لوحده وليس ربّاً لهؤلاء البشر ، وأنَّ القرآن الكريم ورسالة محمّد ﷺ ليست للبشريّة كافّة ، وأنَّ هؤلاء البشر خارج حدود الكرامة التي اعطاها الله تعالى لبني آدم في الحياة الدنيا دون استثناء ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ..

فمن يعتقد ذلك يرتسم أفق تصوّره الفكري ومفهومه الإسلامي داخل إطار عصبيّة جاهلة ، تُخرج مفهومَه للإسلام من إطار العالميّة (الذي يشمله الإسلام) إلى إطارٍ ضيّق ، يضيق حتّى بالمذاهب الإسلاميّة الأخرى المخالفة لمذهبه .. بل يضع تلك المذاهب في خندق عداء ، أشدّ عداوة حتى من الكافرين برسالة الإسلام ذاته ..

وإنَّ إلصاقَ تشريعات بشريّة وضعيّة بمنهج الله تعالى ، وإيهامَ الآخرين أنَّها من عند الله تعالى ، وتفسيرَ الآيات القرآنيّة تفسيراً موافقاً لهذه التصوّرات الوضعيّة ، يُعطي صورةً مشوَّهةً عن حقيقة الإسلام الذي يريده الله تعالى ، ويُنفّر عن منهج الله تعالى غيرَ المسلمين ، وحتّى بعض المسلمين ...

أنا أعلم تماماً أنّني سأتّهم (لأنّني قمت ببحث هذه المسائل) بمحاربة الفقهاء والعلماء ، وبمخالفة السنّة الشريفة (الروايات) ، وربّما بالكفر ، وسأُتّهم باتّهامات باطلة لا يُدرك قائلوها حتّى معانيها .. وكلّ ذلك لا يمنعني أبداً من الجهر بالحقيقة التي أحمل لها برهاناً مُضيئاً كالشمس من كتاب الله تعالى ، بل يدفعني بهمّة أكبر نحو الجهر بهذه الحقيقة ن لأنّني اعلم أنَّ قمّة الظلم والكفر هو الجحود بالحقيقة وإخفاؤها لإرضاء الآخرين ، مهما كان هؤلاء الآخرون ..

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٠]

من قال إنَّ العلماء والفقهاء في العصور الأولى ، حيث تمّ تأطير الفقه الإسلامي فقهاً أعطي قوّة الإلزام الذي لا يجوز تجاوزه .. من قال إنّهم ادّعوا الإحاطة بالقرآن الكريم من كلِّ جوانبه ، إحاطةً لا يمكن أن يُرى فيه إلاّ ما رأوا ؟ !!! .. ومن قال إنَّ هؤلاء العلماء والفقهاء قد ادّعوا أنَّهم أنجزوا الفكر الإسلامي ، ويحرم على غيرهم أيّ اجتهاد أو تدبّر يخرج عن قولهم ؟!!! ..

إن من يدّعي توقّف التدبّر الاجتهادي لكتاب الله تعالى ، وأنّه لا معاني ولا دلائل ولا أعماق يحملها كتاب الله تعالى إلاّ تلك التي قالها أولئك العلماء والفقهاء ، لا يُحارب هؤلاء العلماء والفقهاء فحسب ، إنّما يحارب الله تعالى ، لأنّه بادّعائه هذا يصف كتاب الله تعالى بأنّه خاضع للزمان والمكان ولتصوّرات هؤلاء العلماء والفقهاء .. ولو خرج هؤلاء العلماء والفقهاء من قبورهم لأشهروا سيوفهم في وجوه أولئك الذين يجمّدون القرآن الكريم في أُطر تصوّرات البشر الوضعيّة ، ولقطعوا ألسنتهم على ادّعائهم هذا ..

المصيبة الأولى للفكر المحسوب على الإسلام تكمن في أولئك الذين لا يفقهون ما قيل ، ولا حتى ما يقولون ، ويحسبون أنفسهم قوّامين على مُراد الله تعالى ، وأنّهم أحاطوا علماً وتصوّراً بكتاب الله تعالى ، وأنَّ الله تعالى أوجدهم في هذه الدنيا لمحاربة من يُخالف تصوّراتهم ، وللإعراض عن البراهين والأدلّة التي تُخالف أهواءهم ، حتّى وإن كانت هذه الأدلّة من كتاب الله تعالى ، وواضحةً وضوح الشمس وسط النهار ..

وكلامنا هذا لا يعني – كما سيفتري بعضهم – اتّهاماً لأحد ، ولا يعني القفز فوق الفقه الحقّ المستنبط من كتاب الله تعالى ، ولا يعني أن يفهم كلٌّ كتابَ الله تعالى حسب ما تهوى نفسه وما يريد ... إنَّ ما نعنيه هو عدم هجر كتاب الله تعالى هجران تدبّر ، واعتبارُ كتاب الله تعالى ميزاناً لفكرنا وفقهنا ، يُعاير فيه في كلِّ زمانٍ ومكان كلامُ جميع البشر قديماً وحديثاً ، سواءٌ كان هؤلاء البشر علماء أو فقهاء أو عامّة ..... وما نعنيه هو النظر إلى الروايات التي وصلتنا عن الرسول ﷺ من منظار القرآن الكريم ، ومعايرتها على ميزان دلالات القرآن الكريم ، لمعرفة الصحيح والموضوع منها ، من أجل خدمة السنّة الشريفة ،

بفرز الروايات الموضوعة التي تمّ وضعها في الصحاح ، تلك الروايات التي تمّ تلفيقها بعد قرون من موت النبيّ ﷺ ..

إنَّ هؤلاء الذين يدّعون توقّف التدبّر الاجتهادي لكتاب الله تعالى عند عصرٍ وأشخاصٍ محدّدين ن والذين يخافون من كلّ تدبّرٍ يخرج عمّا يقوله مشايخهم ، ويحسبون نهاية التدبّر عند تعلّم أحكام التجويد .. يسحبون الأمّة إلى الوراء ، في الوقت الذي يقع فيه على عاتق ناطقي اللغة العربيّة خاصّة أعلى مسؤوليّات البحث والتدبّر في كتاب الله تعالى ، وإيصال ذلك إلى العالم أجمع ..

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤]

... بالنتيجة .. نحن – بهذا الفكر المجمّد – قومٌ هاجرون لكتاب الله تعالى .. والآية الكريمة التالية بعمقها المجرّد عن التاريخ والزمان والمكان ، تصوّر هذه الحقيقة ..

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان : ٣٠]

فمن يعلم الحقيقة ن ويجاهد في سبيل الله تعالى للجهر بها ، لا يخاف لومة لائم ، ولا يخشى – غير خشيته لله تعالى – إلاَّ التقصير في جهره بهذه الحقيقة ..

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤]

إنَّنا نقول لمن يدّعي أنَّ القرآن الكريم لم يُحرّم السبي ، أو أنَّ القرآن الكريم عالج هذه المسائل على مراحل ، أو نكاية بالآخرين كردةٍ فعل على أعمالهم .. نقول لهؤلاء إنَّ القرآن الكريم لم ينزل لجيلٍ دون الآخر ، وهو فوق المرحليّة والتاريخ ، وإنَّ أحكامه مجرّدة عن تصرّفات الآخرين وأعمالهم ، لأنّها حقٌّ مطلق ، تحيط بها الحكمة المطلقة من جميع جوانبها ..

وسنبحث – إن شاء الله تعالى – هذه المسألة ن ومسألة تعدّد الزوجات ن عبر منهج البحث القرآني ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ ﴾ الذي رأيناه في النظريّة الثالثة (الحق المطلق) ، فلا

نطرح أيّ مقدّمة إلاّ بدليلٍ قرآني ، ولا نستنتج أيّ نتيجة إلاّ ويقرّها القرآن الكريم ، وبحيث توافق هذه النتيجة جميع الآيات الأخرى المتعلّقة بها ..

لنبدأ ببحث حقيقة هذه المسألة (العبيد وملك اليمين) ، لبنة لبنة من كتاب الله تعالى ، فلا نضع لبنةً في هذا البناء إلاّ بدليلٍ قرآنيٍّ يؤكّد الحقيقة التي تحملها هذه اللبنة بشكلٍ واضحٍ صريح ..

(١) – القرآن الكريم لا يحرم العبيد من حقّهم في التملّك كباقي البشر ، كما ذهب معظمهم إلى ذلك .. واحتجاجهم بالآية الكريمة التالية على حرمان العبيد من حقّ التملّك ، ليس صحيحاً ولا بأيّ وجهٍ من الأوجه ..

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٥]

.. إنَّ كلمة **﴿ عَبْد ﴾** في القرآن الكريم تُطلق على كلِّ إنسان ..

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سـبأ : ٩]

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠]

وكلمتا العباد والعبيد وكلمةُ العبيد في القرآن الكريم تشملان جميع البشر دون استثناء ..

﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣١]

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦]

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩]

فكلمة ﴿ عَبْدًا ﴾ في الآية التي احتجّوا بها ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ، ليست مرتبطةً بجنسٍ محدَّدٍ من البشر دون غيره ، وترتبط بكلِّ إنسانٍ يتّصف بصفة ﴿ مَّمْلُوكًا ﴾ وبصفة ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ .. وهذا الإنسان الذي يتّصف بهاتين الصفتين ، ويضربه الله تعالى مثلاً ، يُقابله الله تعالى في المثل ذاته بأيِّ إنسان يحمل الصفة التي تبيّنها – في الآية ذاتها – الصورة ﴿ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ ﴾ ، وبالتالي يكون تقدير المعنى هو : ضرب الله تعالى مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ن وعبداً رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً ..

فصفتا : [﴿ مَّمْلُوكًا ﴾ ، ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾] هما صفتان مرتبطتان بالعبد (الإنسان) الذي يضربه الله تعالى مثلاً ، ولا ترتبطان بجنسٍ محدَّدٍ من البشر .. فالذي ضُرب به هذا المثل هو عبدٌ (إنسان) له صفتان تميّزانه عن غيره من العبيد (الناس) ، ومن الممكن أن يكون أيَّ إنسان من البشر .. فحين يقول أحدنا للآخر : أضرب لك مثلاً رجلاً طويلاً أعمى ، فهل قولنا هذا يعني أنَّ صفتي الطول والعمى يتّصف بهما جنس الرجال ؟ !!! ..

.. ونقول لمن يجزم بأنَّ الصورة القرآنيّة ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ هي دليلٌ على صفات جميع العبيد ، كيف نفهم من منظار دليلك هذا الآيةَ الكريمة التالية مباشرةً للآية التي تجعلها دليلاً على صحّة ما تجزم به ..

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ٧٦]

إن كانت حُجَّتهم صحيحةً لا بدَّ أن يكون معنى الصورة القرآنيّة ﴿ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ ﴾ أنَّ كلَّ أبكم لا يقدر

على شيء ، وكلّ أبكم له مولى ، وهذا الأبكم كَلٌّ على مولاه ، وانَّ كلَّ أبكم لا يأتي بخير أينما يوجهه مولاه .. فهل يُعقل ذلك ؟ !!! ..

إن كانت حجّتهم صحيحة فكيف نفهم – من منظارها – الآية التالية ..

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلاًۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩]

.. فهل كلّ رجلٍ فيه شركاء متشاكسون ؟ !!! .. وهل كلُّ رجل هو سَلَمٌ لرجل ؟ !!! ... هذه أمثلة يضربها الله تعالى ، وليست خاصّةً بأجناسٍ محدَّدين من البشر ..

وهكذا نرى أنَّ القرآن الكريم بريءٌ من كلِّ حكمٍ يُحرّم حقّ التملّك على نوعٍ من البشر دون غيره ..

(**٢**) – في القرآن الكريم لم ترد كلمة **﴿ ٱلۡعَبۡد ﴾** بصيغة تصف الفرد من جنسٍ مسالة العبيد المعروفة تاريخيّاً .. وكذلك كلمة **﴿ ٱلۡحُرُّ ﴾** لم ترد بصيغة تصف الفرد من باقي البشر ..

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠]

﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِراًۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤]

إنّ كلمتي **﴿ ٱلۡعَبۡد ﴾** كما نرى لا تعنيان أبداً المملوك الذي لا يقدر على شيء حسب تعريفهم لمسألة العبيد ، فسليمان وأيوب عليهما السلام الموصوفان بصفة العبد ليسا مملوكين لأحدٍ من البشر ، وليسا من الذين لا يقدرون على شيء .. وقد وُصفا بهذه الصفة لأنّهما لا يملكان – بالنسبة لمسألة العبادة والالتزام بأحكام الله تعالى – قراراً حُرّاً مخالفاً لأوامر من هما عبدان له وهو الله تعالى ، مع أنَّهما يملكان أنفسهما ، ويملكان حريّة التصرّف والاختيار في باقي المسائل ، ويقدران على كلّ ما يقع تحت أيديهما ، بل إنَّ سليمان عليه السلام كان يملك من الملك ما لم يملكه غيره .. فكلمة **﴿ ٱلۡعَبۡد ﴾** التي تصف هذين النبيّين عليهما السلام ، لا تصفهما كفردين من جنسٍ محدَّدٍ من البشر

المملوكين الذين لا يقدرون على شيء ، إنّما تصفهما على أنّهما – بالنسبة لمسألة محدَّدة هي مسألة العبادة – منصاعان تماماً لأحكام الله تعالى ، ولا يملكان قراراً حرّاً مخالفاً لمن هما عبدان له ، فقط بالنسبة لهذه المسألة ..

.. وهذا المعنى نراه أيضاً في قوله تعالى ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ ﴾ [البقرة : ١٧٨]

إنَّ كلمتي الحرّ والعبد في هذه الصورة القرآنيّة ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ لا تعنيان جنسين مختلفين من البشر أحدهما مملوك للآخر ولا يقدر على شيء ، ومُتقابلين في حقّ التملّكِ وفي امتلاكِ الكرامةِ وحرمة العِرضِ والمال .. أبداً .. إنّما تعنيان مركزين وظيفيّين متناقضين تماماً في اتّخاذ القرار بالنسبة لمسألة محدّدة في أيِّ مجتمع ..

فكلمةُ الحرّ تصفُ فرداً مسؤولاً وصاحبَ قرارٍ حُرٍّ ، وبيده رسمُ القرارِ المُحيطِ بالنسبةِ لمسألةٍ ما .. وكلمةُ العبد تصفُ فرداً واقعاً تحت إمرةِ ذلك الحرّ ، بحيث لا يملكُ إلاّ تنفيذَ قراراتِ ذلك الحرّ ، بالنسبة لتلك المسألةِ فقط ، ولا تعني أبداً أنّ ذلك العبدَ مملوكٌ ولا يملكُ شيئاً في كُلِّ مناحي حياتِه وأنّه منصاعٌ في باقي مسائل الحياة لأوامر ذلك الحرّ ..

فالصورة القرآنيّة ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ تُصوِّرُ لنا حالتين وظيفيّتين مُتقابلتين بالنسبةِ لامتلاكِ القرار والمرتبةِ القياديّةِ في المجتمع ، بالنسبةِ لحالةٍ وظيفيّةٍ مُحدّدةٍ يُجْمَعُ فيها الحرُّ مع العبد .. فالله تعالى يقولُ لنا من خلال هذه الصياغة : إنّ القِصاص ينالُ الفاعلَ ذاتَه ، ولا تُلغي هذا القِصاصَ المراتبُ الوظيفيّةُ بين البشرِ مهما كانت ..

.. فالمراتبُ المعيشيّةُ والوظيفيّةُ والقياديّة بين البشر ، وَجعْلُ بعضِهم فوق بعضٍ درجاتٍ وظيفيّة يتّخذُ من خلالِها بعضُهُم بعضاً سُخْرِيّاً ، ما بين رئيسٍ ومرؤوس ، هو في حقيقته تقابلٌ بين مالكٍ للقرارِ الحرِّ ومنفّذٍ له دون امتلاك الحريّة بعدمِ تنفيذه ..

.. فهذه الصورة القرآنيّة تقول : إنَّ اختلافَ المناصبِ الوظيفيّةِ بين البشر ، لا يُلغي حُرمةَ الدمِ في القِصاص ، فإن قتلَ رئيسٌ مرؤوسَه يُقتلُ به ، كما أنّه لو قتل مرؤوسٌ رئيسَه يُقتلُ به ، ولا تعني هذه العبارة القرآنيّة جنسين من البشر كما فُسِّرَ تاريخيّاً ..

.. وممّا يُؤكّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه ، هو العبارةُ التاليةُ مباشرةً لعبارة ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ ، وهي عبارة : ﴿ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ .. فالأنوثة هنا مُجرّدة عن أيِّ مفهومٍ طبقيٍّ ، لتصفَ أيّ أُنثى مهما كانت ... فلو أنَّ العبارةَ القرآنيّةَ ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ تعني جنسين مُختلفين من البشر ، أحدُهما مملوكٌ للآخر ، وتصفُ الذكور من هذين الجنسين ، لاقتضى ذلك ورودَ العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ بصيغة أُخرى يتمُّ فيها التمييزُ بين الإناثِ من هذين الجنسين .. ولكنّ ورودَها بهذه الصيغة ﴿ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ يُؤكّدُ أنّهُ لا وجودَ لجنسين مُختلفين أحدهما مملوكٌ للآخر .. فورود العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ تعني كما قُلنا مرتبتين وظيفيّتين مُتقابلتين ، لكلٍّ من الجنسين الذكور والإناث ، وليست خاصّةً بالذكور دون الإناث ..

.. وكنّا قد بيّنا في الفقرة (١) أنّه لا يُوجَدُ نصٌّ قُرآنيٌّ يَحْرِمُ إنساناً من حقِّ التملّك ، أو يجعلُهُ رقماً لا قيمة إنسانيّة له ، وأنّ القرآنَ الكريم بريءٌ من كلِّ هذه الأحكامِ الوضعيّة التي حُسِبَتْ عليه ، وهو منها براء .. فالأَوْلى بنا أنْ نُدرِكَ دلالاتِ العبارةِ القرآنيّة ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ ﴾ من منظار هذه الثوابتِ القرآنيّة ..

.. ووجودُ طبقةٍ منَ العبيدِ خلالَ التاريخ ، بعدَ نزولِ القرآنِ الكريم ، هُو وجودٌ غيرُ شرعيٍّ ، ولا يُريدُهُ اللهُ تعالى .. ولا يُمكنُ الاحتجاجُ بالتاريخ وأفعالِ رجالاته لإثباتِ شرعيّة أحكامٍ لا وجودَ لها في كتاب الله تعالى ..

(٣) – مسألة سبي البشر في الحروب وتحويلهم إلى رقٍّ ، ووطء نسائهم دون عقد نكاح ، لا وجود لها – على الإطلاق – في القرآن الكريم .. والآية التالية تؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٤]

إذا كان الرجال المقاتلون من الكفّار ، الذين قاتلونا بسيوفهم ووقعوا أسرى بين أيدينا ، يضع الله تعالى أمامنا خيارين في التعامل معهما ن هما : ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ ، ونرى أنَّ الله تعالى يُقدِّم خيار المنّ عليهم وتركهم على خيار الفداء .. فكيف – إذاً – يكون سبي الأبرياء واسترقاقهم ووطأ نسائهم قهراً وذلاً دون عقد نكاح ، من تشريع الله تعالى ؟ !!! .. وكيف يكون حكم اعتناقهم للإسلام بعد أسرهم لا يحمي كرامتهم وأعراضهم ، كيف يكون ذلك حكماً من أحكام الإسلام ؟ !!! .. نترك الإجابة لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

وفي هذا السياق لا بدّ من الوقوف عند ذهاب الكثير من التفاسير إلى إسقاط روايةٍ تاريخيّة على دلالاتِ قولِهِ تعالى .. ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] .. حيث قيل بناءً على هذه الرِّواية : إنَّ كلمةَ ﴿ حَتَّىٰ ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ هي لانتهاءِ الغاية ، وفسَّرُوا العِبارةَ القرآنيّةَ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ، أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَحِقُّ له أخذُ الأسرى ، إلاّ بعدَ أنْ يُبالِغَ في قتلِ أعدائِهِ وقهرِهِم والإغلاظِ عليهِم ..

.. إنّنا نرى أنَّ اللهَ تعالى يقول ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ، وأنّهُ لمْ يَقُلْ (حتى يُثخِنَ في القتل) ، أو (حتى يُثخِنَ في الكافرين) ..... ثُمَّ في قولِهِ تعالى .. ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، بيانٌ أنَّ المُشكلةَ ليستْ في أخذِ الأسرى ، وليستْ في عدمِ قتلِهِم ، إنّما المشكلةُ تكمُنُ في أخذِ هؤلاء الأسرى من أجـــلِ

الإثخانِ في الأرض ..... فهل إرادةُ اللهِ تعالى في قولِه في هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ ﴾ تتحقَّقُ بقتلِ هؤلاءِ الأسرى وخروجِهِم من الدنيا كافرين ؟! ..

.. والآيتان التاليتان مُباشرةً لهذه الآياتِ من سورةِ الأنفالِ ، تؤكّدان فساد التفـــسير التاريخي ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠ – ٧١]

.. فلو كان ما ذهبوا إليه صَحيحاً ، ويُؤمَرُ الرسولُ ﷺ بقتلِ الأسير ، فما الفائدةُ مِنْ قولِهِ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ؟!! ..

.. إذاً .. لا يُوجدُ نصٌّ في القرآنِ الكريم يُبيحُ السّبيَ أو الاسترقاق ، أو السطوَ على أموالِ الناس أو على أعراضِهِم أو على دمائِهِم .. فاللهُ تعالى الرحمنُ الذي يمنعُ قتلَ الأسيرِ أو استرقاقَه ، حيث يحصرُ التعاملَ معه في خيارين نهايتُهما إطلاقُ سراحِه حُراً كما رأينا ، والذي يبيّن أنَّه لا يحقّ للنبيِّ أخذ الأسرى من أجل الإثخان في الأرض ، هذا الإله الرحيم لا يُمكن أن يُبيحَ الاعتداءَ على أعراض الآخرين ولا على أموالهم ولا على كراماتهم ولا على دمائهم ..

(٤) – في القرآن الكريم (منهج الله تعالى) يدلُّ النكاح على العقد الشرعي بين الرجل والمرأة ، ويسبق الدخول ، ولا يعني مجرّد الوطء كما يتخيّل الكثيرون .. فمن الممكن وقوع نكاح دون وطء ن والصورة القرآنيّة التالية تبيّن هذه الحقيقة بشكلٍ جليٍّ لمن يملك ذرّة من إرادة في سبيل معرفة الحقيقة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٩]

نرى في هذه الآية الكريمة حالةً هي وقوع النكاح دون وقوع المس .. وفي هذا أكبر دليلٍ على أنَّ النكاح هو العقد ، فبمجرّد انتهاء عقد النكاح يكون النكاح قد تمّ ، أمّا المسّ فهو مسألة أخرى تكون بعد إتمام عقد النكاح ..

ونقول للذين يذهبون إلى أنَّ النكاح يعني الوطء : كيف تقولون ذلك ، في الوقت الذي يُحلّون فيه للرجل أن يطأ أمة أبيه ، وأنتم تعلمون أنَّ الله تعالى يقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ ﴾ [النساء : ٢٢]

فحسب تعريفكم (غير السليم) للنكاح بأنّه الوطء ، هذه الآية الكريمة تقول : ولا تطؤوا ما وطأ آباؤكم من النساء ، فكيف إذاً تخالفون قولَ الله تعالى فتبيحون للرجل أن يطأ أمة أبيه ؟!!! .. وكيف يمكنكم استثناء الأمة من جملة النساء المعنيّات في هذه الآية الكريمة ، في الوقت الذي لا نرى فيها أيَّ استثناء ؟!!! ..

أليس العقلاء من متدبّري القرآن الكريم يحرّمون على الرجل كلَّ امرأة عقد عليها أبوه ، سواء دخل بها أم لم يدخل ، بناء على هذه الآية الكريمة ؟ .. فكيف إذاً بعد كلّ ذلك يذهب بعضهم إلى أنَّ النكاح في القرآن الكريم هو الوطء ؟!!! ..

(**٥**) – عقد النكاح هو الوسيلة الشرعيّة الوحيدة لوقوع مسألة الوطء ، وأيُّ وطء دون عقد نكاح شرعي هو زنا وخروج من ساحة الإيمان بحدود الله تعالى إلى ساحة الشرك .. ولذلك نرى أنَّ الله تعالى يضع الزاني والزانية في إطارٍ واحدٍ مع المشركين ، لأنّهما مارسا وطأً دون عقد نكاحٍ شرعي ..

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النور : ٣]

فالزاني والزانية حينما مارسا عمليّة الوطء دون عقد نكاحٍ شرعيٍّ ، خرجا – بالنسبة لهذه المسألة – من ساحة الإيمان بحدود الله تعالى إلى ساحة الشرك ، ووضعا أنفسهما في إطارٍ واحدٍ مع المشركين ..... ولذلك نرى أنّ الله تعالى يعدّ النّكاح باطلاً إذا كان الطرف الآخر مشركاً أو مشركة ..

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٢١]

فالقول بإمكان وقوع وطء دون عقد نكاح – كما قيل بالنسبة لمسألة ملك اليمين – هو قول باطل ، لأنّه يناقض أحكام الله تعالى في كتابه الكريم ..

(**٦**) **–** مسائل ملك اليمين والعبيد والإماء لا تخرج عن قانون النكاح الشرعي أبداً ، فلا يحقّ الوطء لأحدٍ إلاّ بعقد نكاحٍ شرعي .. والصورتان القرآنيّتان التاليتان تؤكّدان هذه الحقيقة بشكلٍ لا لبس فيه ..

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٢٥]

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾ [النور : ٣٢]

.. فقولُه تعالى ﴿ **فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ** ﴾ الذي يعني به ﴿ **فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ** ﴾ لأكبرُ دليلٍ على أنّ المعنياتِ بقولِه تعالى ﴿ **فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم** ﴾ لا يجوزُ وطؤهنّ إلاّ عبرَ عقدِ نكاحٍ شرعي ..

وتعلّق العباد والإماء بقوله تعالى ﴿ وَأَنكِحُواْ ﴾ حيث يتمّ العطف على الأيامى في مسألة النكاح ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾ لأكبر برهان لأولي الألباب ، على أنّ هؤلاء لا يختلفون عن باقي البشر بالنسبة لمسألة النكاح ..

(٧) – ملك اليمين ليس مستثنى من العدل بين الزوجات ، ففي العبارة القرآنيّة التي تُصوّرُ الشرطَ الثاني في تعدّد الزوجات ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [النساء : ٣] ، نرى أنّ عقدَ النكاح يشملُ مُلكَ اليمين أيضاً ، فقوله تعالى ﴿ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾ ، يعني : فنكْحُ واحدة أو نكْحُ واحدة ممّا ملكت أيمانُكم ..

.. ولو كان مُلك اليمين مُستثنى من العدل بين الزوجات ، لتمّ العطفُ بالحرف (وَ) بدلَ كلمة ﴿ أو ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة ﴿ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾ ، أي لكانت العبارة القرآنيّة على الشكل (فَوَاحِدَةً وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) ، بمعنى : إن لم يتحقّق العدل فواحدة تُجمَع مع مُلك اليمين ، ولكن ما نراه أنّ الله تعالى يقول ﴿ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾ ..

فالصورة القرآنيّة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾ لا تحمل أبداً أيّ إشارة لعدم مساواة ملك اليمين مع الزوجة .. إنّما هي دليلٌ على أمر الله تعالى بالعدل التام ومساواة المملوكة ملك يمين بالعدل مع الزوجة ..

(٨) – مُلكُ اليمين في كتابِ الله تعالى ، لا يعني أبداً مُلكَ الوطء دون عقدِ نكاحٍ شرعي ، فالوطءُ – بعد عقد النكاح الشرعيّ – مسألةٌ تستمرّ عادةً ، ولو كان مُلك اليمين يعني مُلكَ الوطء ، لاقتضى ذلك ورودَ صِيَغِ مُلكِ اليمين بصيغةِ المضارع ، ولكنْ ما نراه أنّ كُلَّ تلك الصيغ تأتي بصيغةِ الماضي حصراً [[﴿ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ ﴾]] .. لقد وردت

هذه الصيغ في كتاب الله تعالى (١٥) مرّة ، أتت فيها جميعها – كما نرى – بصيغة الماضي ..

.. ودليلٌ آخر على أنَّ ملك اليمين لا يقتضي بالضرورة ملك حقّ الوطء ، هو أنَّ النساء حقّ ملك اليمين ﴿ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُنَّ ﴾ دون أن يعني ذلك أنَّ هؤلاء المملوكين يطأوهن ..

(٩) – ملك اليمين ليس مسألةً مستقلّةً مرتبطةً بنوع من الناس دون غيره ، ودليل ذلك أنَّ عبارة (ملك اليمين) لم ترد ولا مرّة في كتاب الله تعالى ، فما يرد – كما رأينا – هو كلمة ﴿ مَلَكَتۡ ﴾ ملكت مقترنةً بإضافات كلمة اليمين [[﴿ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ﴾ ، ﴿ أَيۡمَـٰنُهُمۡ ﴾ ، ﴿ أَيۡمَـٰنُهُنَّ ﴾ ، ﴿ يَمِينُكَ ﴾]] .. فالمسألة ترد في كتاب الله تعالى عبر اقتران فعل ماضي بإضافات كلمة اليمين ، وهذا الورود ليس دليلاً على اسم ذاتٍ لنوعٍ محدَّدٍ من البشر دون غيره ..

(١٠) – بما أنّ عبارات ملك اليمين في كتاب الله تعالى ترد بصيغ فعليّة وبالفعل الماضي حصراً [[﴿ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُنَّ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾]] ، فإنَّ دلالاتها تتعلّق بالسياق القرآني المحيط بها .. فعندما يقول أحدنا : أكلت ، فهذا لا يعطينا أيَّ دلالة عن ماهيّة المأكول ، ولا ترتسم في ذهننا أيّة صورة عن المأكول ، ولا بدّ أن يقرن كلمته هذه بسياقٍ محيط يبيّن ماهيّة المأكول ، كأن يقول أكلت خبزاً ، أو لحماً ، أو ..... بينما لو قال كلمة كأس أو بيت أو أيّ اسم ، عندها سترتسم في ذهننا صورة الشيء الذي تصفه هذه الكلمة ..

وفي هذا دليلٌ على أنّ هذه المسألةَ (مسألة ملك اليمين) لا تصفُ جنساً مُحدَّداً من البشر ، إنّما تصفُ حالاتٍ اجتماعيّةً طارئةً قد يقعُ في ساحتِها أيُّ إنسان ، ويخرجُ من ساحتِها أيُّ إنسان ، فلو كانت مسألةً تصفُ جنساً من الناس يتصفون بها بشكلٍ مُستمرٍّ ، لأتت عباراتُ ملكِ اليمينِ في القرآن الكريم بالصيغةِ الاسميّة ، أو على الأقل بصيغةِ الفعل المضارع ..

.. إذاً .. في كلِّ نصٍّ قرآنيٍّ ترد فيه إحدى صيغ عبارات ملك اليمين ، لا بدَّ أن ننظر في السياق القرآني المحيط بهذه الصيغة ، لاستنباط المعنى الذي تتعلّق به هذه الصيغة من عبارات ملك اليمين .. حين ذلك نكون قد سرنا في الطريق السليم الذي لا بدّ من سلوكه لفهم حقيقة دلالات كتاب الله تعالى ..

(١١) – العبارات القرآنيّة لملك اليمين [[﴿ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾]] ، مكوّنة كما نرى من كلمة ﴿ مَلَكَتْ ﴾ التي تعني وقوع المملوك تحت ولاية المالك ، ومكوّنة أيضاً من مشتقّات كلمة اليمين [[﴿ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ، ﴿ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ ، ﴿ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ، ﴿ يَمِينُكَ ﴾]] ، ولكلمة اليمين عمقان :

- عمق مادّي حسّي ، بمعنى القوّة الخيّرة ، وترمز له اليدُ اليمنى ..

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طـه : ١٧ – ١٨]

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨]

- عمق معنوي ، يعني العهد والميثاق الذي يُلزِمُ الإنسانُ به نفسَه ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَٰخِرَةِ ﴾ [آل عمران : ٧٧]

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٨٩]

.. وبالتالي فملك اليمين له عمقان أيضاً :

- عمق ماديّ حسّي ، يكونُ فيه الإنسانُ فقيراً عاجزاً ماديّاً ولا يملك المؤهلات الماديّة والاجتماعيّة لإدارةِ شؤونه وشقِّ طريقه في الحياةِ ، فيقعُ تحتَ ولايةِ إنسان ، وتحت رعايته وتربيتهِ وإشرافه ، بحيث يُساعده في ذلك ، ريثما يتمكّن من إدارةِ شؤونه الماديّة ومن الاستقلالِ بذاتهِ ..

- عُمق معنوي ، يكون فيه الإنسانُ واقعاً تحت الولاية الإرشاديّة والتربويّة والدينيّة ، بحيث لا يملك منَ الوعي والرشد ما يُؤهِّلُهُ لقيادةِ نفسهِ في المجتمع ، أو يكونُ منتمياً إلى دينٍ آخر ، ولكنّه تحت العلم النظر والرعايةِ والإشراف ، بحيث نملكُ تقييمَه ونملأ أيدينا منه ومن معرفةِ أخلاقِه وسلوكِه ..

.. فملك اليمين .. يعني الوقوعَ تحتَ الولايةِ والإشرافِ والرعايةِ والإدارة ، وتحتَ العلم بالوقوفِ على حقيقةِ المملوك ، وذلك حينما يفتقدُ الإنسانُ بعضَ هذه الأمور ، ولا يعني أبداً الرقَّ وما تمّ الذهابُ إليه تاريخيّاً ..

(**١٢**) – من عبارات ملك اليمين ما يأتي ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصف بعض البشر الذين ينقصهم تعلّم حرفة ، وتنقصهم قدرة على الكسب ، وينقصهم الخير من صلاحٍ ورشدٍ ووعي .. ومهمّة مالكه هي الأخذ بيده ومساعدته حتى يعلم فيه خيراً ، ومتى علم فيه خيراً وأراد المملوك الخروج من تحت هذه الولاية ، وجب على المالك تركه ومساعدته ماديّاً لكي يشقَّ طريقه في الحياة كباقي البشر الخيّرين .. والصورة القرآنيّة التالية تبيّن هذه الحقيقة بشكلٍ واضح جليٍّ لا لبس فيه ..

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ [النور : ٣٣]

لقد ذهب المفسّرون إلى أنَّ الكتاب الذي يبتغيه مملوك ملك اليمين في هذه الآية الكريمة هو التحرير ، حسب تعريفهم هم لمسألة العبيد وملك اليمين ، بمعنى : علمتم لهم قدرةً وقوّةً على الكسب من أجل دفعِ ما تمّتْ المُكاتبةُ عليه .. ولو نظرنا نظرة تدبّر في هذه الصورة القرآنيّة لرأينا أنَّ الله تعالى بخروجِ المملوكِ بالولايةِ والوصايةِ من تلك الولاية ،

بعد بلوغه مرحلة إدارة شؤونه بنفسه ، واعتماده على ذاته ، وأن يأتيه من مال الله تعالى الذي آتاه للمالك ، شريطةَ أن يعلمَ المالك في المملوك خيراً ..

والخير الذي يعلمه المالك في مملوكه ليس المالَ المطلوب من المملوك أن يعطيه للمالك بغية التحرير من الرق كما ذهبوا ، إنّما هو الصلاح والرشد والوعي والقدرة على إدارة شؤونه بنفسه من كسبٍ وغير ذلك .. فلو كان المقصود هو المال الذي ينبغي للملوك أن يكتسبه بعمله عند الآخرين ليد للمالك ثمن نفسه كما زُعم ، لناسب ذلك ورود العبارة (إن علمتم لهم خيراً) ، فقوله تعالى ﴿ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ ينفي نفياً قاطعاً كون الخير هو المال المطلوب من المملوك للمالك كما زعموا ، فالمال المُعطى هو من مال الله تعالى الذي آتاه للمالك بعيداً عن قضيّة المملوك ، هكذا تنطق كلمات الله تعالى ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ ، وبالتالي لا منّة للمالك على المملوك .. فمسألة ملك اليمين ليست مسألة استرقاق جبري قهري ، إنّما هي مسألة عملٍ إنساني يُجر فاعله (المالك) لأنّه يبذل جهداً معنويّاً تربويّاً وقدراً ماليّاً ، في سبيل زرع الخير للملوك .....

إذاً .. الخيرُ الذي يُريدُ اللهُ تعالى منّا أنْ نعلمَه في هؤلاء ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ هو الرشدُ والصلاح والاعتمادُ على الذات ، وليس الاعتداءَ على حريّاتِهم وجهدِهم ومستقبلِهم ، وهذا ممّا كرّمَ اللهُ تعالى به بني آدم ، فأيُّ كرامةٍ لبني آدم يُمكُنُنا أنْ نتصوَّرَها حينما يكونُ جهدُهُ ومستقبلُهُ وكرامتُهُ وحريّتُهُ بيدِ الآخرين ؟!! ..

[[وفي سياق هذه الفقرة أودّ أن أُشير إلى عمقٍ آخر يتعلّق بالصورة القرآنيّة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ .. فلماذا لا يكون الكتاب في هذه الصورة القرآنيّة هو كتاب النكاح ،

ولماذا لا يكون الخطابُ موجّهاً إلى أولياء أمور النساء ، بأن يزوّجوا ملك اليمين إن علموهم صالحين راشدين ، وخصوصاً أنَّ ما يحيط بهذه الصورة القرآنيّة ، قبلها وبعدها ، يصوّر مسألة النكاح ...

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٢ – ٣٣]

.. وخصوصاً أنَّ كلمة ﴿ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ تأتي في موضعٍ آخر من كتاب الله تعالى ، ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصوّر مسألة النكاح ..

﴿ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥]]] ..

(**١٣**) – كُلُّ حُكْمٍ يحملُهُ القرآنُ الكريم له ساحاتُ تطبيقٍ واتّباعٍ في كُلِّ زمانٍ ومكان ، فالنصُّ القرآنيُّ حاملٌ للتاريخ ، وليس محمولاً به .. والتوهّمُ بتاريخيّةِ أحكام العبيد وملك اليمين ، ناتجٌ عن تلفيقِ الكثيرِ من الرواياتِ ونسبها ظلماً إلى الرسولِ ﷺ ، وعن التفسيرِ التاريخيِّ المغلوطِ للآياتِ القرآنيّةِ الخاصّة بهذه المسألة .. وهذا يُشبه التفسيرَ التاريخيَّ المغلوطَ في مسألةِ الناسخِ والمنسوخِ المزعومةِ كما بيّنا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) ..

إنَّ علاقة المالك – ملك يمين – بالمملوك في الحالة الماديّة ، هي – كما قلنا – علاقة ولاية ماديّة خيّرة هدفها مساعدة المملوك والأخذ بيده لإخراجه من حالته ، حتّى يصبح قادراً على الكسب الحلال ، وقادراً على مواجهة أعباء الحياة بشكلٍ حرٍّ سليم .. والآية

الكريمة التالية تبيّن هذا الفارق في الرزق ، وكيف أنَّ المملوك ملك يمين (في هذه الحالة المادّية) هو مملوك لسبب ماديٍّ يتعلّق بالرزق ..

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [النحل : ٧١]

وأولوا الألباب يرون في هذه الآية الكريمة دعوة من الله تعالى للذين فضَّلهم الله تعالى بالرزق ، ليردّوا جزءاً من رزقهم على الذين وقعوا تحت إشرافهم وإدارتهم وعلمهم بأنّهم مستحقّون للمساعدة ، فيكونون بذلك هم وغيرهم سواءً في رزق الله تعالى الذي أعطاهم إياه لامتحانهم في هذه الدنيا ، فعدم قيامهم بذلك ﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ ﴾ هو جحودٌ بنعمة الله تعالى وبفضله عليهم ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ ..

ولو كانت هذه الآية الكريمة مجرّد مثل يضربه الله تعالى ، مخاطباً به الجاحدين عقيدة بألوهيّة الله تعالى – كما ذهب معظم المفسّرين – لكان من الأولى أن تكون نهاية الآية الكريمة (أفبنعمة الله تجحدون) بصيغة المخاطب ، لأنَّ الخطاب – في هذه الحالة المفترضة – موجّهٌ لأولئك الذين يقول الله تعالى لهم ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ ، فهؤلاء يخاطبهم الله تعالى – كما نرى – بصيغة المخاطَب ، وبالتالي لكان من الأولى أن تكون نهاية الآية – أيضاً – بصيغة المخاطب ..

بينما ورود نهاية الآية الكريمة بصيغة الغائب والتعلُّقَ بالنعمةِ ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ هو دليلٌ على أنّ المسألةَ ليستْ مُجَرَّدَ مثلٍ يضربُهُ اللهُ تعالى للجاحدينَ عقيدةً بألوهيّةِ اللهِ تعالى ، مُؤكِّداً فيه أنَّ الرزقَ لا يُرَدُّ على مُلك اليمين ، كما ذهب المفسّرون .. أبداً ..

.. فليس من العبث أنَّ بدايةَ الآيةِ الكريمة تبدأ بصيغةِ المُخاطَب ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ ، وبعد ذلك ينتقلُ الخطابُ إلى صيغةِ الغائب ﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ ﴾ ، وتأتي نهايةُ الآيةِ الكريمةِ أيضاً بصيغةِ الغائب ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ ، لتكون متعلّقةً بالعبارةِ التي تسبقُها ، وليس بالعبارة التي بصيغة المخاطب في بدايةِ الآيةِ الكريمة ..

.. فالجحودُ إذاً هو بنعمة الله تعالى ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ ، وهو خطابٌ موجّهٌ لأولئك الذين تصفهم العبارةُ القرآنيّة ﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ ﴾ ، أي أنَّ الجحودَ هو عدمُ ردّ الذين فُضّلوا بالرزق ، بجزءٍ من رزقِهِم على الذين يقعون تحت وصايتِهم ورعايتِهم وإشرافِهم ليكونوا سواء .. وهذا نقيضُ التفسير التاريخي .. فاللهُ تعالى يُريدُ ردَّ جزءٍ من الرزق على مُلك اليمين ، وليس العكس ..

.. هذا إضافة إلى أنّ ورودَ الجحودِ متعلّقاً بالنعمة ، وليس بالله تعالى وألوهيّته ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ ، ينفي توجّه التفسيرِ التاريخيِّ الذي يحتجّون به .. فكيف يصيرُ عابدو الأصنام جاحدينَ بنعمةِ اللهِ تعالى نتيجةَ هذه العبادة .. إنّهم بعبادتِهِم للأصنام يجحدونَ اللهَ تعالى وإلوهيّتَه ، وليس نِعَمَه ..

.. وبذات المنهج التفسيري نفهمُ الآيةَ الكريمة ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] .. فليس كُلُّ رجلٍ فيه شُركاء متشاكسون ، وليس كُلُّ رجلٍ سَلَماً لرجلٍ ، إنّما هذه أمثلةٌ لا تخصّ جنساً من البشر دونَ غيره ، ويضربُها اللهُ تعالى ليبيّن لنا أنّه تعالى واحدٌ ، وأنّه لو تعدّدت الآلهةُ لفسدت السماوات والأرض ..

.. وبالمنهج ذاتِه نستطيعُ قراءةَ النصّ التالي ..

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الروم : ٢٨ – ٢٩]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ لا تعني جنساً مُحدّداً من البشر لا يملكون شيئاً ، إنّما تعني : مِنْ مَا وقعَ تحت رعايتِكم وإشرافِكم ومسؤوليّتكم .. وهذا المثلُ الذي يضربُه اللهُ تعالى هو تفصيلٌ لآياتٍ يُريدُ اللهُ تعالى منّا أن نتعقّلَها ، لا أن نقعَ في الضلال مُتّبعين أهواءَ أنفسِنا بغيرِ عِلم ، للاعتداءِ على حريّاتِ بعضِ البشرِ وأموالِهِم وأعراضِهِم وكرامتِهِم ..

.. إذاً .. ما احتجّوا به من أنّ العبيدَ والمملوكين مُلكَ يمين لا يملكون شيئاً ، بناءً على هذه الآياتِ الكريمة ، هو احتجاجٌ باطلٌ ، تنقضُه – كما نرى – الصياغةُ اللغويّةُ لهذه الآيات ..

.. وهكذا نرى كيف أنّ الزعمَ بحرمانِ العبيدِ ومُلكِ اليمين من حقِّ التملّك ، هو ظُلمٌ وضلالٌ واتّباعٌ للأهواءِ بِغيرِ علم ، وبالتالي هو زعمٌ باطلٌ لا وجودَ له في كتابِ الله تعالى ..

(**١٤**) – علاقة المالك – ملك يمين – بالمملوك ، في الحالة المعنويّة ، هي علاقة ولاية إرشاديّة تربويّة خيّرة لمساعدة المملوك الذي لا يملك – في هذه الحالة – الرشد الذي يؤهّله للاستقلال بقيادة نفسه في المجتمع .. والمملوك – في هذه الحالة المعنويّة – إمّا أنّه – عاطفةً ووعياً وغريزة – كالطفل الذي لم يبلغ الحلم ، مهما كان عمره ، وإمَّا أنّه ليس مسلماً ، ويقع على عاتق المالك تربيته وولايته ، وسنرى هذا الجانب من ملك اليمين في بعض الفقرات التالية ..

.. ففي بعضِ الحالات تعني عبارةُ مُلكِ اليمين أولئك الذين نملكُ العلمَ فيهم والطمأنينةَ ، من أنّهم كشهوةٍ وغريزةٍ وميلٍ للنساء ، لا يختلفون عن الأطفال الذين لم يظهروا على عوراتِ النساء ، ولا عن التابعين غير أولي الإرْبَةَ من النساء ..

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ ﴾ [النور : ٣١]

.. ودليلٌ أكبرُ على هذا الجانب من مسألةِ مُلكِ اليمين ، نراه في النصّ التالي ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ٥٨ – ٥٩]

.. فهذا الجانب ممّا تعنيه عبارةُ مُلكِ اليمين في كتابِ الله تعالى ، تتمّ فيه مساواةُ المتّصفين به ، مع الأطفال الذين لم يبلغوا الحُلم ، ونرى أنّ الأطفالَ الذين لم يبلغوا الحُلمَ حينما يتجاوزون مرحلةَ بلوغِ الحُلم ، يخرجون من إطار عدم الاستئذان (طبعاً ما عدا المرّات الثلاث الواردة في هذه المسألة الكاملة) ، في حين أنّ المتّصفين بهذا الجانب من مسألةِ مُلكِ اليمين لا يخرجونَ من هذا الإطار ، وهذا يدلّ على أنّهم ليس لديهم شهوةٌ وغريزةٌ وميلٌ للنساء ..

وهذا ما نراه أيضاً في الآية الكريمة ..

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٥]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ ، تعني الذين تمّ العِلْمُ والتأكّدُ والطمأنينةُ بأنّهم لا يأتي منهم أذىً تجاه أحكامِ هذه المسألة ، كونَهم لا مَيْلَ عندهم للنساءِ ولا شهوة تجاههن ، فشرط طهارةِ القلوب وعدمِ الإيذاء الذي تحملُهُ هذه المسألةُ الكاملة مُتحقِّقٌ فيهم ..

(**١٥**) **–** الإحصان هو منع الآخرين من الاعتداء على ساحة المحصن بالنسبة للمسألة التي يتحصّن بها ..

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٨٠]

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ [الحشر : ١٤]

فالمُحصن – في مسألة الشهوة والغريزة – حصّن نفسَه بارتباطٍ إمّا مادّي وإمّا معنوي .. والجانب المادّي للإحصان يتمثّل بعقد النكاح بين الذكر والأنثى ، حيث يُحصِّن كلٌّ منهما الآخر ، فيمنعه من الاتّجاه نحو الفاحشة عبر ملكه منه حقّ الكفاية الفطريّة .. فكلّ من يرتبط بعقد نكاح مهما كان (مملوك ملك يمين أو غير مملوك) هو محصَن ..

أمَّا الجانب المعنوي للإحصان فيتمثّل بتحصين النفس عبر الاتّجاه نحو العفّة والطهارة والامتناع عن الفاحشة ..

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [التحريم : ١٢]

ويتمثّل هذا الجانب أيضاً بتحصين النفس عبر الإسلام والانصياع لأحكامه ، والعمل بها ، وسنرى هذا النوع من الإحصان في الفقرة التالية ..

(**١٦**) **–** رأينا في فقرة سابقة أنَّ هناك وجهاً من العمق المعنوي لملك اليمين ، وذلك حينما يكون المملوك (ملك يمين) غير مسلم ، ويقع على عاتق مالكه (ملك يمين

) تربيته وولايته ماديّاً .. ورأينا في الفقرة السابقة أنَّ هناك وجهاً من العمق المعنوي للإحصان ، وذلك بأن يتمّ تحصين النفس باعتناق الإسلام والانصياع لأحكامه والعمل بها ... هذان الوجهان نراهما بوضوح في الآية التالية ..

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٥]

إنّنا نرى في هذه الآية الكريمة الدلائل التالية ..

– نكح الفتيات المؤمنات من هذا النوع من ملك اليمين لا يكون إلاَّ بتحقيق الشرط ، وهو عدم الاستطاعة طولاً من نكح المحصنات المؤمنات **﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ ﴾** .. فتطبيقُ أحكامِ العبارة القرآنيّة **﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ ﴾** لا يكونُ إلاّ بتحقّق الشرط **﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾** ..

إنّ ورود هذا الحكم عبر هذا الشرط ليس عبثاً ، وهو لحكمة مرادة من الله تعالى ، تتعلّق بماهيّة الحكم المحمول في هذه الآية الكريمة ..

– هناك شرطٌ آخر هو الخوف من الضرر الشديد ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ ﴾ ، فهذه العبارة القرآنيّة تبيّن لنا أنَّ نكح هذا النوع من النساء لا يكون إلاّ بتحقق هذا الشرط ..

– وحتّى لو تحقّق هذان الشرطان ، فالصبر خيرٌ من نكح هذا النوع من النساء ، والعبارة القرآنيّة ﴿ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ تبيّن ذلك بشكلٍ جليٍّ ..

– في الدلائل السابقة من هذه الفقرة بيانٌ أنَّ نوع ملك اليمين المقصود في هذه الآية الكريمة مختلفٌ عن الأنواع التي تحدّثنا عنها .. فالله تعالى لا ينهى عن نكح نوع من النساء عبر الشروط السابقة إلاَّ لسبب يتعلّق بالعقيدة .. وفي ورود العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ ﴾ بعد العبارة ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ ﴾ وقبل العبارة ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ﴾ لأكبر دليل على أنَّ المسألة تتعلّق بالعقيدة ، ولا علاقة لها بالرقّ التاريخي ..

– كلمة ﴿ طَوۡلًا ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ يُراد بها وجهٌ غير مادّي ، وليست محصورةً بالجانب المادّي كما ذهب معظم المفسّرين .. فقوله تعالى ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ الذي يبيّن امتلاك ناكح هذا النوع من ملك اليمين للمال ، وعدم وجود عبارة تدلّ على فقره ، وجعْل الله تعالى الصبر أولى من نكح هذا النوع من ملك اليمين ، وعدم السماح بنكح هذا النوع من ملك اليمين إلاّ بشرطين ، هما عدم الاستطاعة طولاً من نكح المحصنات المؤمنات ، والخوف من الضرر الشديد ، وقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ ﴾ .. كلُّ ذلك يدلّ على أنَّ المسألة تتعلّق بالعقيدة لا بامتلاك المال ، ولذلك فما

يُراد بعدم الاستطاعة طَوْلاً هو عدم القدرة على تناول المراد (المحصنات المؤمنات) ليس بسبب الفقر ، وإنّما لعدم توفّر هذا المُراد ..

– إنَّ كلمة ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ في العبارة القرآنيّة داخل هذه الآية ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ﴾ ، تصف ذات النوع من الإحصان الذي تصفه كلمة ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ في العبارة القرآنيّة داخل هذه الآية الكريمة ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ .. فهي ترد معرّفة بال التعريف ، وبذات الآية الكريمة ..

ولمّا كانت كلمة ﴿ أُحْصِنَّ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ﴾ تعني : تزوجن ، بمعنى دخلن ساحة الإحصان بالزواج ، فإنَّ كلمة ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ في مرّتي ورودها في هذه الآية الكريمة تعني إحصان الإسلام ..

إنَّ أحكام كتاب الله تعالى تُطبّق على جميع المسلمين بذات الدرجة ، وبالتالي وبناء على كلِّ ما سبق فإنّ هذا النوع من ملك اليمين يعني الكتابيّات اللاتي يرتبطن مع بعض المسلمين بعقد نكاح ..

.. إذاً الشرط ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ هُوَ عدمُ الاستطاعةِ في تناولِ المُراد من نكح المُحصنات المؤمنات ، حيث الإحصانُ المعنيُّ في هذه المسألةِ الكاملةِ هو إحصانُ إسلام .. بمعنى : من لم يستطعْ منكم القدرةَ على نكحِ المسلماتِ المؤمنات لسببٍ من الأسباب .. من لا يستطيعُ ذلك ، فلا بأس أن ينكحَ مِمّا وقعَ تحت استطاعته وإشرافِه وعلمِه من الفتيات المؤمنات .. ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ ﴾ ..

.. إذاً .. المعنيّاتُ في جوابِ الشرطِ هُنّ الكتابيّاتُ حصراً ، كخيارٍ في حالِ عدمِ الاستطاعةِ من القدرة على تناولِ نكحِ المسلماتِ المُحصناتِ إحصان إسلام ..

– العبارةُ القرآنيّة ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ﴾ تعني : من اللاتي يتحرّكن ويسعينَ تحت عِلْمِكُم ورؤيتِكم وإشرافِكم ، بحيث تَقِفُون على حقيقتِهن .. فكلمةُ ﴿ فَتًى ﴾ – في القرآن الكريم – تعني الساعي والمتحرّكَ في مسألةٍ ما ..

﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٠]

.. فإبراهيم عليه السلام ، ليس عبداً لأحد من البشر ، إنّما هو متحرّكٌ وساعٍ في سبيلِ البحثِ عن الحقيقة ..

.. والفتيةُ المذكورون في سورةِ الكهف ، إنّما وُصفوا بهذه الكلمة ، لأنّهم سَعَوا وتحرّكوا في سبيلِ البحثِ عن الحقيقة ..

﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣]

.. وحينما تُضافُ كلمةُ فتى التي تصف إنساناً ما ، إلى إنسانٍ آخر ، فإنّها تعني الساعي والمتحرّكَ تحت عِلْمِ هذا الآخر وإشرافِه ..

﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٌ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٠]

﴿ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٦٢]

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢]

.. وعلى هذا .. فالعبارةُ القرآنيّة ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ﴾ ، في المسألةِ التي نحن بصدد دراستها تعني : من اللاتي يتحرّكن في المجتمعِ تحت عِلمِكُم ومشاهدتِكُم ، وبحيث تعرفون

أخلاقَهُنّ وحقيقتَهُنّ من خلالِ عِلْمِكُم بسعيهنّ تحت إشرافِكُم ورؤيتِكُم لهنّ .. وهنّ المحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، اللاتي أباحَ اللهُ تعالى الارتباطَ معهنّ بعقد نكاحٍ شرعي ، فما أباحه الله تعالى للمسلمين – إضافة للمسلمات – هو فقط نساء الذين أوتوا الكتاب ..

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥]

– إذاً العبارة القرآنيّة ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ﴾ فيها دليلٌ على صحّة ما نذهب إليه ، فهي تقول : فإذا تزوجن (الواقعات تحت إشراف المسلمين وعلمهم ومراقبتهم من نساء أهل الكتاب) من المسلمين ، فعليهن نصف ما على المسلمات من العذاب في حال ارتكابهن لذات الفاحشة .. فهنّ ينتمين لدينٍ آخر ، وفي الوقت ذاته يتعلّقن مع مسلمين بعقد نكاح ، وبالتالي يكون حدّ الفاحشة هو وسطٌ بين هذين الحدّين ، بمعنى نصف ما يطبق على المسلمة للفاحشة ذاتها ..

فلو كان المعنيّات بهذا النوع من ملك اليمين مسلمات ، لما كان العذاب المطبّق عليهن هو نصف ما يطبّق على المسلمات ، فأحكام كتاب الله تعالى تُطبّق على جميع المسلمين دون استثناء .. ومن جهةٍ أُخرى لو كان المعنيّات بهذا النوع من ملك اليمين غير كتابيّات وبالتالي مشركات ، لما جاز نكحهنّ أصلاً ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٢١] .. إذاً هنّ كتابيّات يرتبطن مع مسلمين بعقد نكاحٍ شرعي ..

– نرى في هذا الوجه من النكاح ، حينما تكون المُراد نكحها كتابيّة واقعة تحت إشراف المسلمين وعلمهم ومراقبتهم ، أنّه لا يجوز جمعها مع المسلمة .. فالآية تقول : يجوز نكح ما وقع تحت إشرافكم ومراقبتكم وعلمكم من الكتابيّات المؤمنات ، في حال تعذّر نكح المسلة المؤمنة لسبب من الأسباب ، وبالتالي لا يجوز نكح هذا النوع من ملك

اليمين حينما يستطيع المسلم تناول نكح المسلمة المؤمنة .. فالله تعالى عندما يضع كلّ هذه الشروط القاسية لنكح نوعٍ من النساء ، لا بدّ أن يكون ذلك لسببٍ يتعلّق بالعقيدة ، لا لسببٍ طبقي مادّي ..

– الصورة القرآنيّة ﴿ **فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ** ﴾ ، تبيّن لنا أنَّ الدخول بملك اليمين لا يكون إلاّ بعقد نكاحٍ شرعي ، وبإذن أهل المملوكة ،وبإعطائها مهرها ، وأنّه لا فارق في ذلك بينها وبين أيٍّ مسلمة .. وكلّ ذلك يؤكّد صون الإسلام لكرامتهن ، وعدم تميزهن عن غيرهن ..

(**١٧**) **–** ممّا سبق نرى أنَّ ما بين مسألتي ملك اليمين والإحصان خيوطاً تربط أوجه كلّ مسألة منهما مع الأوجه المقابلة لها في المسألة الأُخرى .. فحالة ملك اليمين المرتبطة بالولاية الماديّة يقابلها من مسألة الإحصان إحصانُ الوجه المادّي وهو إحصان الارتباط بعقد نكاح .. وحالة ملك اليمين المرتبطة بالولاية والرعاية الإرشاديّة يقابلها من مسألة الإحصان إحصانُ العفّة والطهارة .. وحالة ملك اليمين المرتبطة بالولاية الدينيّة يقابلها من مسالة الإحصان إحصانُ الإسلام ..

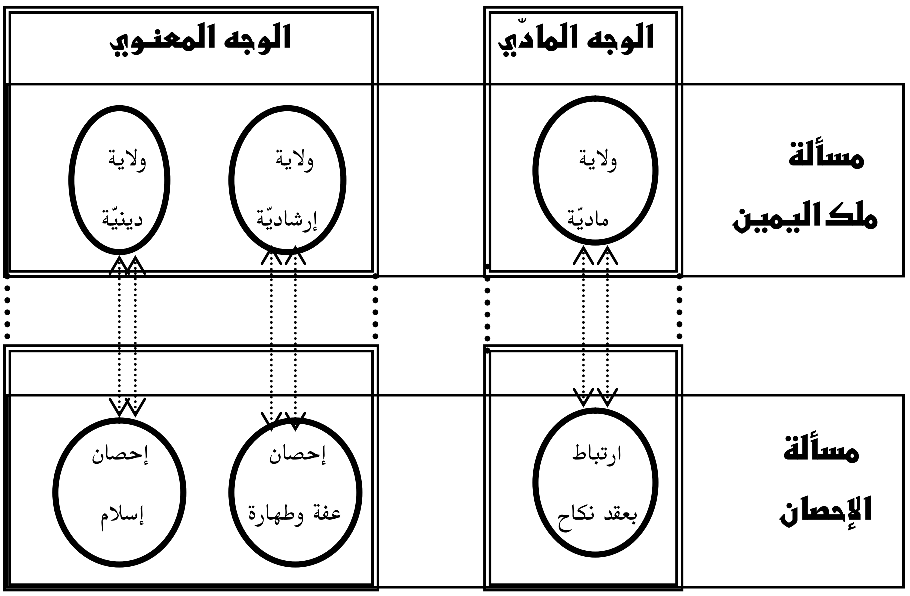

ولذلك فالإحصان بالزواج هو بمثابة ملك يمين متبادل بين الطرفين ، كلٌّ منهما يملك حقّ الكفاية الجنسيّة من الآخر ..

.. لقد بيّنا أنَّ صِيَغَ ورود مسألةِ مُلكِ اليمين في القرآنِ الكريم ، هي صِيَغٌ فعليّة ، وبالفعلِ الماضي حصراً ، عبر اقتران مشتقّات الفعل الماضي مَلَكَ بإضافاتِ مسألةِ اليمين : [[﴿ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ ، ﴿ مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾]] ، ولو كانت مسألةُ تصفُ جنساً من الناسِ يتصفون بها بشكلٍ مُستمرٍّ ، لأتتْ عباراتُ ملك اليمين في القرآن الكريم بالصيغةِ الاسميّة ، أو على الأقل بصيغةِ الفعلِ المضارع ..

.. وبيّنا أنَّ ملكَ اليمين يعني الوقوعَ تحتَ الولايةِ والإشرافِ والرعايةِ والإدارة ، والعلم بالوقوف على حقيقةِ المملوك ، ولا يعني أبداً الرقَّ وما تمّ الذهابُ إليه تاريخيّاً ..

.. ففي بعضِ الحالات تعني عبارةُ ملك اليمين امرأةَ الإنسان التي يرتبط معها بعقد نكاحٍ شرعي .. وفي الآية التالية بيانٌ لذلك ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ ﴾

.. فالعبارة القرآنيّة **﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾** تعني اللاتي ملكتَ وطأهُنّ – طبعاً بعقد نكاحٍ شرعي – ولكن دون أن تدفعَ مهراً ، أي بفيءٍ من الله تعالى .. والفارقُ بين المعنيات في هذه العبارةِ القرآنيّةِ والمعنيّاتِ بالعبارةِ السابقة لها مُباشرةً **﴿ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾** ، أنّ المعنيات بالعبارةِ القرآنيّة **﴿ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾** هنّ اللاتي تمّ دفعُ مهرٍ لهنّ ..

.. أي أنّ الفارقَ بين هذين النوعين هو ذاتُهُ الفارق بين العبارةِ القرآنيّة ﴿ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ والعبارةِ القرآنيّة ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ .. فالفارقُ – إذاً – هُو في حيثيّاتِ المهر ، وليس في جنسِ النساء ..

.. فالمعنياتُ بالعبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ ، لا ينتمين إلى مرتبةٍ أقل من غيرِهنّ ، فهنّ حالةٌ كاملةٌ من حالاتِ ما أحلّهُ اللهُ تعالى لنبيّه ..

.. والاستثناء ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ ﴾ من الآية الكريمة : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] ، لا يعني جنساً من النساءِ اللاتي سيتمّ سبيُهنّ .. فهذه العبارة ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ ﴾ هي بصيغة الماضي وليس المُضارع ، وتعني نساءَه ﷺ ..

إنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ تعني جميعَ النساءِ على وجه الأرض ، ودون استثناء ، ومنهنّ نساؤه ﷺ .. ولذلك تأتي العبارةُ القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ ﴾ لتستثني نساءَه ﷺ اللاتي مَلك وطأهنّ بِعقدِ نكاحٍ شرعي ، من بين مجموعةِ النساءِ على وجهِ الأرض .. فلولا هذا الاستثناءُ لُحرّمتْ على النبيّ ﷺ عليه نساؤه ..

.. وهذه الجانبُ من دلالاتِ مُلْكِ اليمين نراه في الصورة القرآنيّة ..

﴿ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ ﴾ [النساء : ٢٤]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ هي ضمن سياقٍ قُرآنيٍّ يُحرّمُ العقدَ على المتزوّجات ، وهذه العبارةُ مُطْلَقةٌ تشملُ كُلَّ المتزوّجات على وجهِ الأرض ، ومن ضمنهنّ أزواجُ المُخاطبين بهذه العبارةِ القرآنيّة ، كونهنّ مُتزوّجات منهم ..

.. وتأتي العبارةُ التاليةُ لها مُباشرةً ﴿ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ لاستثناءِ زوجاتِ المُخاطبين بهذه العبارة القرآنيّة ، من بين مجموعة المتزوّجات على وجه الأرض .. بمعنى أنّه يُحرَّم عليكم جميعُ النساءِ المُحصناتِ إحصانَ زواج بعقد نكاح شرعي ، إلاّ ما ملكتم وطأهنّ بعقد نكاحٍ شرعي ، وهنّ أزواجُكم المحلّلاتُ لكم ، فلولا هذه العبارةُ القرآنيّة ﴿ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ لحُرّم على المُتزوّج زوجتُه ..

ولو تمَّ سحب الإحصان المقصود في العبارة القرآنيّة ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ على الوجه المعنوي للإحصان ، وهو إحصان العفّة والطهارة ، وإحصان الإسلام ، لكان تقدير العبارة القرآنيّة ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ في سياقها القرآني هو : حُرّمت عليكم كلّ نساء الأرض (اللاتي من الممكن وطؤهنّ بعقد نكاح شرعي) أن تطؤوهنّ ، إلاّ ما ملكتم وطأهنّ بعقد نكاحٍ شرعي حين عقد النكاح ، وضمن ما حدَّده الله تعالى لكم ، وهو ما لم يتجاوز الأربع نساء .. بمعنى أنَّ نساء الأرض محرّمات على أيِّ رجلٍ أن يطأهنّ ، إلاّ أربعاً منهنّ بعد ملك وطئهنّ بعد عقد نكاحٍ شرعي ..

فكلّ عبارة قرآنيّة ترد فيها إحدى هاتين المسألتين (ملك اليمين والإحصان) تصف نوعاً محدَّداً – وربّما أكثر – من أنواع كلّ مسألة .. ومعرفة النوع الذي تصوّره العبارة القرآنيّة ، وعدم الخلط بينه وبين الأنواع الأُخرى ، يقودنا إلى الفهم السليم لحقيقة الأحكام التي تحملها هذه العبارة ..

.. أمّا ما تمّ الذهابُ إليه من أنّ العبارةَ القرآنيّة ﴿ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ تعني إلاّ المتزوجات اللاتي يتمّ سبيُهُنّ بالحروب ، فهذا تفسيرٌ فاسد ، اعتقد أنّنا بتنا نرى فسادَه بأمِّ أعيننا ..

.. وللأسف تمَّ تلفيق روايات – تسيء للقرآن الكريم وللنبيِّ ﷺ – تحمل ما أرادوا ، وتمَّ نسبها للمنهج ظلماً وعدواناً ، لذر الرماد في الأعين ، ولقطع الطريق على كلِّ باحثٍ في كتاب الله تعالى ، مثل الرواية التالية ..

مسلم (٢٦٤٤) :

و حَدَّثَنِيهِ يَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ الْحَارِثِيُّ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ **أَصَابُوا سَبْيًا يَوْمَ أَوْطَاسَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فَتَخَوَّفُوا فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** و حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ حَدَّثَنَا خَالِدٌ يَعْنِي ابْنَ الْحَارِثِ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ

أحمد (١١٢٦٦) :

حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عُثْمَانَ الْبَتِّيِّ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ **أَصَبْنَا نِسَاءً مِنْ سَبْيِ أَوْطَاسٍ وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ فَكَرِهْنَا أَنْ نَقَعَ عَلَيْهِنَّ وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ قَالَ فَاسْتَحْلَلْنَا بِهَا فُرُوجَهُنَّ**

فما تحمله هذه الرواية يتناقض – كما نرى – مع دلالات كتاب الله تعالى ، ومع مجمل القيم والأخلاق النبيلة التي يحملها منهج الله تعالى ، ومع الفطرة النقيّة الطاهرة التي فطر الله تعالى الناس عليها ..

(١٨) – في كتاب الله تعالى هناك حقيقة تمّ تغيبها خلال التاريخ ، وهي **أنّ عقدَ النكاحِ في القرآنِ الكريمِ يتكوّنُ من نوعين اثنين :**

- **النوع الأوّل** .. يتّصف بالزوجيّة ، أي بالتماثل في العقيدة بين طرفيِّ عقدِ النكاح ، أي أنّ الرجلَ زوجٌ للمرأةِ (بمعنى أنّه مُماثلٌ لها في العقيدة) ، وأنّ المرأةَ زوجٌ للرجل (بمعنى أنّها مُماثلةٌ له في العقيدة) .. وحين ذلك تُسمّى المرأةُ زوجَ الرجل ، وتُسمّى امرأتَهُ في الوقت ذاته ، كامرأة إبراهيم وامرأة زكريّا عليهما السلام .. فصفةُ الزوجيّةِ لا تُلغي كونَ الزوجةِ امرأةً لزوجها .. وكلُّ ذلك من منظار الاقتران بعقد نكاح

، فكلمةُ زوج – في القرآن الكريم – دلالاتُها واسعةٌ تتجاوزُ الساحةَ التي نُلقي الضوءَ عليها ..

- **النوع الثاني** .. لا يتّصفُ بالزوجيّة ، وبالتالي يتّصف بعدمِ التماثلِ في العقيدة بين طرفي عقد النكاح ، وحين ذلك لا تُسمّى المرأةُ زوجَ الرجل ، إنّما تُسمّى امرأته فقط .. وذلك – أيضاً – من منظارِ الاقترانِ بعقدِ نكاحٍ .. وحين ذلك يُسمّى هذا العقدُ – من هذا المنظار – عقْدَ نكاحِ مُلكِ يمين ، بمعنى أنّهُ عَقْدُ نكاحٍ لِمُلْكِ الوطء ، دونَ تحقّقِ الزوجيّةِ من تناظرٍ وتماثلٍ في العقيدة ..

.. ومثال ذلك ، امرأةُ نوحٍ وامرأةُ لوطٍ عليهما السلام ، وامرأةُ فرعون ..

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم : ١٠ – ١١]

.. اللهُ تعالى يقول ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ ويقـــول جـــلّ وعـــلا ﴿ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، ولم يقل (زوجةَ نُوحٍ وزوجةَ لُوطٍ) ، ولم يقل (زوجة فِرْعَـــوْنَ) .. إذاً .. ورودُ كلمةِ زوجة يُشيرُ إلى التماثل في العقيدة ، بينما ورودُ كلمةِ امرأة ليس دليلاً على عدم التماثل في العقيدة ، أو على التماثل ..

وتتجلّى هذه الحقيقة أمامَ أعيننا ، حينما ننظرُ بعمقٍ إلى النصوصِ القرآنيّة التالية ..

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٣]

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ [يـــس : ٥٦]

﴿ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٢٢ – ٢٣]

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٠]

.. وهذان النوعان لعقدِ النكاح ، نراهما بشكلٍ جليٍّ في النصِّ القرآنيِّ التالي ..

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ – ٧]

.. فعطفُ مُلكِ اليمين على الأزواجِ في هذا النصِّ ، هو عَطْفٌ لِنوعيِّ عَقْدِ النكاح ، من منظارِ التماثلِ في العقيدةِ وعدمِهِ بين طرفي هذا العقد ..

.. وَعَقْدُ مُلْكِ الوطءِ الذي يُسمّى عقدَ مُلْكِ يمينٍ كما قُلنا ، رأيناه يتجلّى الآية التالية ، حيث يأمرُ اللهُ تعالى بالابتعادِ عنه ، إلاّ عندَ الضرورة ، وضمنَ شروط ..

﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

.. إذاً .. النصُّ القرآني ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ ، يُلقي الضوء على نوعي عقد النكاح الشرعي الذي على المؤمن ألاَّ يبتغي وراءهما .. وهما – كما قُلنا – عقدُ زوجيّة ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ ، حين وجودِ التناظرِ في العقيدة ، وعقد مُلكِ يمين ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ ، حين عدم وجودِ هذا التناظر ..

.. وممّا يُؤكّدُ حقيقةَ ما نذهبُ إليه في بيانِنا لهذا النوعِ من مسألةِ مُلكِ اليمين ، وبأنّ خيارَ نَكْحِ الكتابيةِ مشروطٌ بشروطٍ أهمُّها عدمُ الاستطاعةِ من تناولِ نكحِ المُسلمة ، ممّا يُؤكّدُ ذلك ، هو العطف بكلمة ﴿ أَو ﴾ دون العطف بالحرف (وَ) في العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ ..

.. ولو كان الأمرُ كما فُسِّرَ تاريخيّاً ، وبأنّه تُنكَحُ العبدةُ دونَ أيِّ شرطٍ وذلك بجمعِها مع الحرّةِ كما زُعم ، لو كان الأمرُ كذلك لتمَّ العطفُ بين الأزواجِ وهذا النوعِ من مُلك اليمين بالحرف (وَ) وليس بالكلمة ﴿ أَو ﴾ .. أي لأتتْ هذه العبارة القرآنيّة على الشكل : (إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) ..

.. ولذلك نرى أنّه حين عطفِ مُلكِ اليمين على الأزواجِ من زاويةِ التعلّقِ بعلمِ اللهِ تعالى ، وليس من زاويةِ تحديدِ نوعي عقدِ النكاح ، نرى أنّ العطفَ يكونُ بالحرف ﴿ وَ ﴾ الذي يُفيدُ الجمع ، وليس بالكلمة (أو) التي تُفيد التخيير .. فعلمُ الله تعالى يُحيطُ إحاطةً مُطلقة بكلِّ شيء .. ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ..

(**١٩**) – أحكام كتاب الله تعالى تُطبّق على جميع المسلمين دون استثناء (ملك يمين وغير ملك يمين) ، والصورة القرآنيّة ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾ [النساء : ٢٥] ليست معادلة قياسيّة لتخفيض أحكام كتاب الله تعالى (كالعدّة مثلاً) المطبّقة على ملك اليمين إلى النصف .. إنّما هي – كما رأينا – تخصّ نوعاً خاصّاً هو الكتابيّات المرتبطات مع مسلمين بعقد نكاح وبحالة خاصّة هي إتيانهنّ بالفاحشة .. وقوله تعالى ﴿ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾ يبيّن هذه الخصوصيّة التي تتعلّق بالعذاب المستحقّ نتيجة إتيان الفاحشة من قِبَل هذه الحالة من حالات ملك اليمين ، ولا علاقة للأحكام الأُخرى – كالعدّة مثلاً – بهذا الاستثناء القرآني ..

(**٢٠**) – نكاح الأربع مشروع لجميع البشر دون استثناء (ضمن الشروط التي يحدِّدها الله تعالى كما سنرى لاحقاً) ، وهؤلاء الأربع هنَّ أيّ نساء دون أيّ تمييز .. وقولهم إنَّ الأربع نساء تعني الحرائر دون ملك اليمين ، وأنَّه يتمّ وطء أيّ عددٍ من ملك اليمين فوق الأربع ، هو قولٌ يردّه القرآن الكريم ، فكلمة ﴿ **ٱلنِّسَآءِ** ﴾ في الصورة القرآنيّة التالية ، تعني جميع النساء ، ولا تخصّ نوعاً محدَّداً من النساء دون غيرهن ، والكلام موجّهٌ لجميع الرجال دون استثناء ، ولا يخصّ نوعاً محدَّداً منهم ..

﴿ **وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ** ﴾ [النساء : ٣]

... وكيف يقولون إنَّ كلمة ﴿ **ٱلنِّسَآءِ** ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة خاصّة بالحرائر دون ملك اليمين ، في الوقت الذي نرى فيه أنَّ الله تعالى يستثني ملك اليمين من النساء في الصورة القرآنيّة التالية ، حيث المستثنى جزء من المستثنى منه ، وفي الوقت الذي ترد فيه كلمة ﴿ **ٱلنِّسَآءِ** ﴾ بأل التعريف في الصورتين القرآنيّتين ، السابقة والتالية ..

﴿ **حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ** .... ﴿٢٣﴾ **۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ** .... ﴾ [النساء : ٢٣ – ٢٤]

(**٢١**) – مسألة الرقاب في القرآن الكريم مسألة مستقلّة تماماً عن مسألة العبيد وملك اليمين ، وربطها بمسألة العبيد وملك اليمين ناتجٌ عن إسقاط التصوّرات التاريخيّة على النصوص القرآنيّة ، وعن سجن المعاني التي تحملها هذه النصوص ضمن إطار تصوّرات البشر ..

لقد وردتْ هذه المسألة (مسألة الرقاب) في القرآن الكريم في جميع مرّات ورودِها دون أيّ تعلّقٍ بعباراتِ العبيدِ ومُلْكِ اليمين ، فالله تعالى يقول ﴿ **تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ** ﴾ ، حيث

وردت هذه الصيغةُ في القرآن الكريم خمسَ مرّات ككفّارةٍ يُكفِّرُ بها الإنسانُ عن ذنبِه .. ووردت العبارةُ القرآنيّة ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ مرّةً واحدة دون تعلّقٍ بكفّارة ، لتشملَ مساحةً أكبرَ وأوسعَ من المساحةِ المعنيّةِ في الصِّيغة الأخرى ، فهي ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يُصوِّرُ جوهرَ الإنفاق المادّيِّ من زاويةِ كونه برّاً وصدقةً ، يقتحمُ بها الإنسانُ الموانعَ والحواجزَ ، مترقيّاً من عالمِ المادّةِ الهابطِ إلى عالمِ الروحِ والخلاصِ للهِ تعالى ..

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : ١١ – ١٦]

.. إنّ مُشتقّات الجذر اللغوي (ر ، ق ، ب) تدورُ في إطارِ دلالاتِ الانتظار والترقّب ..

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ [طـه : ٩٤]

.. والتحرير هو بمعنى الخلاص والاستقلال ..

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥]

.. والانفكاك بمعنى الترك والانفصال ..

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة : ١]

.. وكلمة ﴿ رَقَبَة ﴾ لم تردْ في القرآن الكريم إلاّ نكرة ، مُؤنّثة ، لتشملَ حالاتٍ واسعةً ليست مُحدَّدةً بحيثيّةٍ تاريخيّةٍ مُحدّدة ، ولا بجنسٍ مُحدَّد من البشرِ دون غيره .. ولكنَّ القاسمَ المُشترك بين جميع هذه الحالات هو عدمُ الانفكاكِ وعدمُ التحرّر من هذه الحالة ، وعدمُ الاستطاعة لفعل ذلك ، كأن يقعَ إنسانٌ ما تحت ضائقة ماديّة تُحيطُ به ، فتجعلُهُ مأسوراً لمراقبةِ إنسانٍ آخر وانتظارِه ، فتجعلُه مسجوناً ، أو يُحجَزُ أجرُهُ وكسبُهُ

لحينِ سدادِ ما عليه لغيرِه ، في الوقت الذي لا يستطيعُ فيه السداد ، فيكونُ تحريرُ هذا الإنسان من الحالةِ التي هو فيها وفكُّهُ منها ، كفّارةً وصدقةً وقُربةً من الله تعالى ..

.. فكلمةُ ﴿ رَقَبَة ﴾ تعني حالةً يقع فيها الإنسانُ تحت الانتظار والمراقبة بشكلٍ كاملٍ ، وبحيث تُسَدُّ أمامه كُلُّ آفاقِ الخروج من هذه الضائقة ، وبحيث لا يستطيعُ الخروجَ من هذه الحالةِ التي هو فيها ...

.. وممّا يُؤكّدُ أنّ كلمةَ رقبة هي حالةٌ وضائقةٌ ما ، هو أنّها لم تُجمَع جمعَ المؤنّث السالم ، (رَقَبَات) ، لأنّها لا تعني فرداً من جنسٍ مُحدَّدٍ من البشر ، إنّما تعني — كما قُلنا — حالةً وضائقةً مُجرّدةً عن أيِّ جنسٍ بشريٍّ ، ومن الممكن لأيِّ إنسانٍ مهما كان جنسُه أن يقعَ في مثلِ هذه الحالة ، ولذلك نراها تُجمَعُ جمعَ تكسير : ﴿ ٱلرِّقَابِ ﴾ ..

.. وفي الصورتين القرآنيّتين اللتين تردُ في سياقِهما كلمةُ الرقاب لتصوِّرَ جوهرَ الإنفاق المادّيِّ من زاويةِ كونه برّاً وصدقةً :

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٧]

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠]

.. في هاتين الصورتين .. نرى أنّ الصدقةَ وإتيانَ المال هو : في الرقاب ، أي في سبيل فكّ حالة الرقاب وتحريرِها ممّا هي فيه ، وليس للرقاب .. فالذي يُدْفَعُ هُو لمن ينتظرُ السدادَ من صاحبِ الحالةِ الذي لا يستطيعُ سدادَه ، وليس للغارِق في هذه الحالة ..

.. ودون الاقتران بكفّارة ، رأينا أنّ العبارة القرآنيّة ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ مع سياقِها القرآنيِّ المُحيطِ والمُصوِّرِ لجوهر الإنفاق المادّيّ كَبِرٍّ وَصَدَقَة وعطاءٍ غيرِ مقترنٍ بكفّارة ، هي فقط التي تُصوِّرُ ذلك ، فالصيغ القرآنيّة ﴿ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ رأينا أنّها خاصّةٌ بالكفّارات ..

.. وفي هذه المسألةِ نرى أنّ كلمةَ ﴿ وَفِي ﴾ تتكرّرُ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، وفي هذا دليلٌ على أنّ مسألتي الإنفاق في الرقاب والغارمين ، لها إطارُها الخاصّ والذي يُميّزهما عن إطار مسألتي الإنفاق في سبيل الله تعالى وابن السبيل ..

وما نُريدُ إلقاءَ الضوءِ عليه هو الفارق بين الإنفاقِ في مسألةِ الرقاب ، وبينه في مسألةِ الغارمين ، وذلك في العبارةِ القرآنيّة ﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ ﴾ .. ففي هذا التفريق ، تتضحُ حقيقةُ دلالاتِ النصِّ القرآنيِّ أمامَنا بشكلٍ أكبر ..

في الجذر اللغوي (غ ، ر ، م) ، علينا أنْ نُميِّزَ بين دلالات الفعل اللازم (غَرِمَ) ، حيثُ اسمُ الفاعل من هذا الفعل هو كلمةُ (غارِم) واسم المفعول هو كلمةُ (مغروم) ، فالغُرْمُ في هذه الحالة – من الفعل اللازم (غَرِمَ) – لا يتعدّى الإنسانَ المغروم ، فالمغرومُ هو ذاتُهُ الغارِم ، فلا علاقةَ لغيرِ الإنسان الغارِم بهذا الغرم ، أي أنّ الغرامةَ المُستحقّةَ على الإنسان الغارِم ، والتي لا يستطيعُ دفعَها ، ليست لصالحِ إنسانٍ آخر ، وإنّما هي لمصيبةٍ لا علاقةَ للآخرين بها .. وأكثرُ ما يُجسِّدُ هذه الحالةَ هو المرضى الذين فيهم مرضٌ علاجُهُ باهضٌ ، ويشكّلُ بالنسبةِ للإنسان الفقير الغارمِ غُرْماً فوق طاقتِه ولا قدرةَ له على دَفْعِه ..

وهذا ما تُعبّر عنه كلمةُ ﴿ وَٱلْغَٰرِمِين ﴾ في النصّ القرآنيّ ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ..

.. وكلمةُ ﴿ وَٱلْغَٰرِمِين ﴾ وهي من الفعل اللازم (غَرِمَ) – كما قلنا – لم ترد في كتاب الله تعالى إلاّ في هذا الموقع ، وكلمة ﴿ ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ بأل التعريف لم ترد في كتاب الله تعالى إلاّ مرّةً واحدة ..... ولو كانت كلمة ﴿ وَٱلْغَٰرِمِين ﴾ تعني المديونين – كما ذهبت التفاسيرُ التاريخيّة – لكان هناك دائن ومدين ، أي مُغرِم ومُغرَم ، وهذا يُناسبه كلمة المُغرَمين ، وليس كلمة الغارمين ، أي لوردت العبارةُ القرآنيّة على الشكل : (وَفِي الرِّقَابِ

والمُغرَمين) ، بينما نراها ترد ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ ﴾ .. فصياغةُ القرآن الكريمُ مُطلقةٌ ، وهي مكمنُ مُعجزتِه كما رأينا ونرى بأمّ أعيننا ..

.. بينما الفعل المُتعدّي أغرمَ .. اسمَ الفاعل منه هو (مُغرِم) ، واسم المفعول هو (مُغرَم) ، فهناك غرامةٌ مُستحقّةٌ على المُغرَم لا بُدّ أن يدفعَها للمُغرِم ، وهذه الغرامةُ حينما تُشكّلُ عبأً على المُغرَم بحيث لا يستطيعُ دفعَ الغرامةِ المُستحقّة للمُغرِم ، وبالتالي تُشكِّلُ حالةً وضائقةً لا يستطيعُ المُغرَم الخروجَ منها ، فإنَّ إخراجَ هذا المُغرَم من حالتِه بدفعِ الغرامةِ عنه ومساعدتِه للخروجِ من تلك الضائقة ، يكون ذلك بمثابةِ فكّ رقبة ، وهذا ما تُصوِّرُهُ العبارةُ القرآنيّة ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ في العبارة ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ ﴾ ..

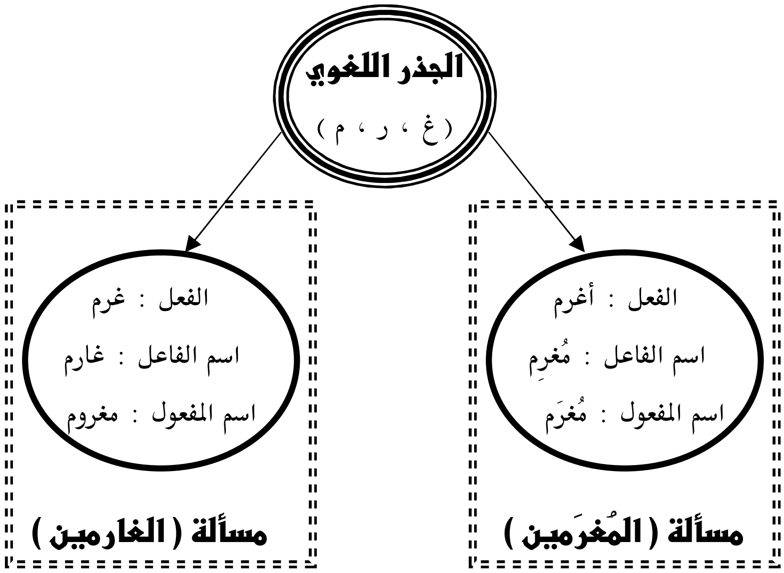

.. إذاً الرقاب وتحريرُها وفكّها ، هو إخراجُ المُغرَم الذي لا يستطيعُ وفاءَ ما عليه من حالتِه التي هو فيها ، من خلال دفع الغرامةِ المُستحقَّة عليه للمُغرِم .. وهذه الحالةُ موجودةٌ في كلّ زمانٍ ومكان ، ولا علاقةَ لمسائلِ العبيدِ ومُلْكِ اليمين – حسب المفهوم التاريخي –

بمسألةِ الرقاب لا من قريب ولا من بعيد ، فكما قُلنا لم يقرنْ القرآنُ الكريم بينهما ولا بأيّ نصٍّ من نصوصه ..

.. وما تمّ تلبيسُهُ لمسألةِ الرقاب من دلالات تاريخيّة بمعنى تحريرِ العبيد وملكِ اليمين ، إنّما هو خروجٌ على حقيقةِ دلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى ، لأنّه في كتابِ اللهِ تعالى لا يُوجَد سبيٌّ – كما رأينا – ولا يحقّ الاعتداءُ على أعراضِ الآخرين وأموالِهم وحريّاتهم ..

(**٢٢**) – القرآن الكريم ، وما يحمله من منهجٍ ن هو رسالة الله تعالى للناس جميعاً دون استثناء ..

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء : ١٠٥]

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١]

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨]

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ [الزمر : ٤١]

وهؤلاء العبيد والمملوكون ملك يمين ، هم من الناس ، وبالتالي فأحكام الله تعالى في كتابه الكريم (سواء الحقوق والواجبات والثواب والعقاب وما لهم وما عليهم) تشملهم كما تشمل غيرهم من الناس .. وأيُّ استثناء في أيِّ مسألة لا بدّ له من نصٍّ قرآنيٍّ يحمل دليلاً واضحاً على هذا الاستثناء ، كما هو الحال في الاستثناءات التي يبيّنها القرآن الكريم للمسائل الأُخرى ، كرخصة الإفطار للمريض والمسافر مع القضاء لاحقاً على سبيل المثال .. وما نراه من أحكام العبيد وملك اليمين في فكرنا الموروث وفي فقهنا ، وما حُسب على الإسلام نتيجة لذلك ، لا علاقة له بكتاب الله تعالى ، والإسلام الحقّ منه براء ، وينقضه كتاب الله تعالى جملةً وتفصيلاً ..

.. جَوْهَرُ القفزِ فوقَ المنهج الذي يحملُهُ كتابُ اللهِ تعالى ، يتجسَّدُ في الإيمان والاعتقاد بأنَّ نصوصَ رواياتِ التاريخ – مهما كانت صحّتُها – نصوصٌ موازيةٌ للنصِّ القــرآنيّ .. فبدلاً من مُعايرةِ الرواياتِ التاريخيّة على كتابِ اللهِ تعالى ، وأخذِها بالمقاربةِ دونَ الــيقين الموازي لليقينِ بدلالاتِ النصِّ القرآني .. بدلاً من ذلك .. راحَ الكثيرون يعتبرونها أحاديثَ مُطلقة ، لا يَرونَ دلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى إلاّ من منظارِها ، وهذا بحقيقتِه تكذيبٌ بأحكامِ القرآن الكريم ..

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

[الجاثية : ٦]

وهكذا نرى بعد بحث مسألة ملك اليمين بحثاً قرآنيّاً مجرّداً عن التصوّرات التاريخيّة المشوّهة ، كيف أنَّ هذه المسألة يحمل لها القرآنُ الكريمُ أحكاماً عادلةً حكيمة ، صالحة لكلِّ زمانٍ ومكان ، وهي ذاتها الأحكام التي يحملها لجميع البشر دون استثناء ، وأنَّ التشريعات الوضعيّة لهذه المسألة (والتي حُسبت على الإسلام) لا علاقة لها بمنهج الله تعالى ، وهي ملفّقة من مقدماتها (الروايات المنسوبة ظلماً للرسول ﷺ) إلى نتائجها (التأطير الفقهي لهذه المسائل) ..

إنَّ الأحكام الوضعيّة التي أُلصقت بالإسلام بالنسبة لهذه المسألة ، هي أحكام عرفيّة تاريخيّة ، كانت سائدة في عصورٍ محدَّدة .. ونتيجة جعل الروايات والرجال وما يُنقل عنهم حجّة حتى على كتاب الله تعالى ، تمَّ تأطير الكلمات القرآنيّة ودلائل العبارات القرآنيّة الخاصّة بهذه المسألة (والكثير غيرها) ضمن إطار هذه التصوّرات العرفيّة التاريخيّة ، وتمَّ تجميد البحث والاجتهاد والتدبّر في كتاب الله تعالى ، ومحاربة كلّ من يحاول فهم دلالات كتاب الله تعالى بشكلٍ مجرّدٍ عن التاريخ ، وتمّ سحب الأحاديث والروايات الخاصّة بهذه المسألة (والكثير غيرها) والتي جمعت بعد قرون من موت النبيّ ﷺ ، وبأدوات تاريخيّة لا تخلوا من الأخطاء والأهواء والعصبيّات (كما بيّنا في كتاب : محطّات في سبيل الحكمة ، وفي كتاب : الحق الذي لا يريدون) ، تمَّ سحبها على كلّ الأزمنة لتصبح نصوصاً مقدّسة ، ومعياراً حتّى لكتاب الله تعالى ... كلُّ ذلك أدّى – كما نرى – إلى وضع أحكامٍ

وضعيّة أُلصقت بالإسلام وحُسبَت عليه ، تجعل من العبيد وملك اليمين مخلوقات بدرجة الحيوانات ، وذلك تحت ستار الإسلام ، وهذا أدّى ويؤدّي إلى الإساءة للإسلام ..

.. وهكذا نرى – من خلال بحثنا لهذه المسألة وغيرها – كيفَ وُضِعَتْ بَعْضُ المعاييرِ التاريخيّة التي تمّتْ صياغتُها من تصوُّراتِ بعضِ السابقين ، لِتُسْتَخْدَمَ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ مانعةَ صواعق ، هدفُها الحيلولةُ دونَ انهيارِ منظومةِ ثقافةِ عبادةِ الأصنام ، وإنشاءُ مجتمعٍ تحكُمُهُ معاييرُ تاريخيّة ، وعقلٌ تُراثيٌّ ، يعيشُ الماضي ويلبسُ ثوبَ الحاضر ..

.. والمهزلةُ الكُبرى أنَّ أصحابَ هذهِ المعاييرِ التاريخيّة ، وأتباعَهُم ، لا ينصاعونَ لأيِّ معيارٍ ، حتى لِتلكَ المعاييرِ التي يُحدِّدونَها بأنفسِهِم .. فمهزلةُ الكثيرِ من الرواياتِ التي لَفَّقَها بعضُ السابقين ، ونسبوها إلى الرسولِ ﷺ ، والرسول منها براء ، انبرى لها الكثيرون مُدافعينَ عنها ، ضاربينَ بِعَرْضِ الحائطِ ، الحدَّ الأدنى مِمَّا يُدْرَكُ مِن كِتابِ اللهِ تعالى ، ومِن قواعِدِ اللغة ، ومن العقلِ والمنطقِ ..

.. وهم بذلك يُحَوِّلونَ التاريخَ ورجالاته إلى مُقَدَّسٍ على حساب قُدسيّة كتابِ اللهِ تعالى ، ويحاولونَ دَفْعَ كُلِّ مُتَدَبِّرٍ لكتابِ اللهِ تعالى ، إلى أَنْ يكونَ هَدَفاً لأبواقِ الشياطين وسهامِهِم .. وبالتالي يُغَيِّبونَ – عن الكثيرين – حقيقةَ الإسلام ، مُقَدِّمينَ أهواءَهم وعصبيّاتِهِم إسلاماً لا علاقةَ له بالإسلام ، لا من قريبٍ ولا من بعيد ..

❁ ❁ ❁

وسننظر من منظار الحكمة المطلقة التي تتّصف بها أحكام كتاب الله تعالى ، إلى مسألة تعدّد الزوجات ، لنرى حقيقة هذه المسألة وموقعها بين الفهم الخاطئ لبعض المسلمين وبعض التفاسير من جهة ، وبين الجحود الذي يمارسه بعضهم بإنكار التعدّد من أساسه من جهةٍ أُخرى ..

لتبيين الحقيقة التي يحملها القرآن الكريم بالنسبة لهذه المسألة ، ولإظهار عمق الحكمة المرتبطة بها ، لا بُدَّ من بحثها من وَجْهَيْن اثنين .. وجه يتعلّق بالواقع الاجتماعي النفسي

المحيط بهذه المسالة ، ووجه يتعلّق بتفسير الصور القرآنيّة التي تحمل أحكام هذه المسالة ، ومن ثمَّ مقارنة هذين الوجهين مع بعضهما ..

لنبدأ بالواقع الاجتماعي النفسي المحيط بهذه المسألة ، ولنبحثه من خلال الاحتمالات المتعلّقة بها ، بشكلٍ مجرَّدٍ عن الأحكام القرآنيّة ..

في المجتمع الإنساني نرى أنَّ عدد الإناث أكبر من عدد الذكور ، فعدد النساء الصالحات للزواج ، يزيد على عدد الرجال الصالحين للزواج .. هذا بالإضافة إلى أنَّ الرجال معرّضون للوفاة والأحداث بنسبٍ أكثر منها عند النساء ، بسبب الحروب وظروف العمل الاجتماعيّة .. كلٌّ ذلك يزيد من ارتفاع نسبة النساء الصالحات للزواج في المجتمع على نسبة الذكور ..

إنَّ فترة الإخصاب وما يتعلّق بها من فطرة غريزيّة عند الرجل تمتدّ في حياته – بشكلٍ عام – لما بعد سنّ السبعين عاماً ، بينما تتوقّف هذه الفترة عند المرأة – بشكلٍ عام – في سنٍّ أقل منه عند الرجل بأكثر من عشرين عاماً .. وهناك حالاتٌ تكون فيها الزوجة راغبةً عن الوظيفة الفطريّة بسبب السن والواقع الذي يفرضه الفارق بين زمني الإخصاب ما بين الزوج والزوجة ، في الوقت الذي ما زال فيه الزوج راغباً في هذه الوظيفة ، وعلى الرغم من ذلك الاثنان لا يريدان الانفصال عن بعضهما ..

هذه الحقائق تفرز – في كلِّ مجتمعٍ يحرّم التعدّد – فائضاً من النساء غير المتزوّجات ، أو فائضاً من زمن الإخصاب في حياة الرجل دون أن يقابله – في الزمن نفسه – إخصابٌ مقابلٌ له عند الزوجة ، أو واقعاً من الاختلال في الوظيفة الفطريّة ..

وهذا الواقع الذي يفرزه تحريم التعدّد في المجتمع يقع على الاحتمالات التالية :

النساء الفائضات اللاتي لم يتزوجن :

(١) – إمّا أنّهن يكبتن فطرهن ، فلا يعرفن الرجال في حياهن .. وبالتالي فالخاسر هو المرأة ، كونها حُرمت من أن تعيش حياتها الفطريّة كأيّ امرأة متزوّجة ..

(٢) – أو أنّهنّ يعرفن الرجال كأخلاء في الظلام بعيداً عن العلاقة الشرعيّة الشريفة .. ولّما كانت هذه فائضات أي لا يقابلهنّ رجال ، بسبب كون نسبة النساء أعلى من

الرجال ، فإنَّ علاقتهنّ غير الشرعيّة وغير الشريفة مع الرجال إمّا أن تكون مع رجال متزوّجين وبالتالي التسبّب بخيانة نساء أُخر ، وإمّا مع رجال غير متزوّجين وفي هذه الحالة لن تتغيّر نسبة الفائض من النساء .. وهكذا نرى أنَّ الخاسر هو المرأة أيضاً ، لأنَّ زوجها يخونها من خلال علاقة غير شريفة مع تلك النساء الفائضات ..

الرجال الذين يُوجَد عندهم فائض من الإخصاب دون أن يقابله إخصابٌ عند زوجاتهم ، والذين يرغبون في الوظيفة الفطريّة دون أن ترغب زوجاتهم بذلك ، بسبب فارق امتداد فترة الإخصاب وما يتعلّق بها من الوظيفة الفطريّة :

(**٣**) – إمّا أنّهم يكبتون فطرتهم ، وبالتالي فالخاسر هو الرجل ..

(**٤**) – أو أنَّهم يعرفون نساء أُخر كخليلات من خلال خيانة زوجاتهم ، وبالتالي فالخاسر هي المرأة ، لأنَّها – في هذه الحالة – يخونها زوجها ..

وهذا الاحتمال مستقلٌّ عن الاحتمال رقم (٢) وإن كانت النتيجة واحدة هي خيانة الزوجات من قِبَل أزواجهن ، وبالتالي خسارة المرأة ، فنحن ندرس المسألة من منظار الاحتمالات المطروحة ، لا من منظار النتائج ..

ففي الاحتمال رقم (٢) دفعت المرأة ثمن خيانة زوجها لها لأنَّ الخيانة حصلت كون امرأة من النساء الفائضات لم تكبت فطرتها ، وبالتالي كون تلك المرأة الفائضة تجد في الرجل المتزوّج حلاً لوظيفتها الفطريّة .. بينما في هذا الاحتمال رقم (٤) حصلت خيانة الزوج بسبب أنَّ الزوج لم يكبت فطرته الفائضة بسبب فارق الإخصاب ، وبالتالي بسبب كون هذا الرجل يجد في نساء أُخر حلاً لوظيفته الفطريّة ..

(٥) – أو أنّهم يطلّقون زوجاتهم لاستبدالهن بأُخر ، وبالتالي فالخاسر هو المرأة ..

الواقع	رقم الاحتمال	الاحتمالات المطروحة	الطرف الخاسر
النساء الفائضات	(١)	كبت فطرتهن	المرأة
	(٢)	إقامة علاقة غير شريفة مع الرجال والتسبّب بالخيانة لنساء أُخر	المرأة
الرجال فائضو الإخصاب والوظيفة الفطريّة	(٣)	كبت فطرتهم	الرجل
	(٤)	خيانة زوجاتهم	المرأة
	(٥)	طلاق زوجاتهم	المرأة

((أربع خسارات للمرأة مقابل خسارة واحدة للرجل))

وهكذا نرى أنّ الخسارةَ التي تدفعُها المرأةُ من مستحقّاتِ منعِ تعـدّدِ الزوجـاتِ في المجتمعِ هي بنسبةِ : ٤/٥ = ٠،٨ ، في حين أنّ الخسارةَ التي يدفعُها الرجلُ هي بنـسبة : ١/٥ = ٠،٢ .. فما تدفَعُهُ المرأةُ من خسارةٍ نتيجةَ منعِ تعدّدِ الزوجـات ، هـو أربعـةُ أضعافِ ما يدفَعُهُ الرجل ..

وهنا نقول للذين يُنادون بمنع التعدّد بحجّة حماية المرأة .. مـن الخاسـر الأوَّل فيمـا تنادون به ؟ .. كيف تكون المرأةُ رابحةً من منع التعدّد الذي تنادون به وهي تدفع أربعـة أضعاف ما يدفعه الرجل من مستحقّات منع هذا التعدّد ؟!!! ..

والعاقِلُ يعرفُ هذه الحقيقةَ دون بذلِ الكثيرِ من الجهدِ ، فكونُ نسبةِ الإناثِ أكبر من نسبةِ الذكور ، يقتضي أنّ منعَ التعدّدِ هو ضدُّ مصلحةِ النساءِ أوّلاً ، لأنّهُ إذا حُرِمَ بعـضُ الرجالِ من الزواجِ بزوجةٍ أُخرى ، فإنّه تُحرَمُ بعضُ النساءِ من الزواج نهائيّاً ..

نحن نعلم أنَّه عند زيادة العرض تقلُّ قيمة الطلب ، فكيف إن حُجِّمَ الطلب عند زيادة العرض ؟ .. فبدلاً من أن يقرع الرجل باب المرأة لتكون له زوجةً كريمةً مع زوجة أُخرى ضمن إطار الأسرة الكريمة ، ستقرع المرأة باب الرجل المتزوّج – في حال منع التعـدّد – ليكون لها خليلاً في الظلام ، بعيداً عن ساحة صون كرامتها الإنسانيّة ، أو ستكبت فطرتها مدى الحياة ..

إذاً .. حتى يحصلَ التوازنُ الاجتماعيُّ الإنسانيُّ الفطريُّ في المجتمعِ ، لا بُدَّ من إباحـةِ حُكمِ تعدّدِ الزوجات ، ضمن شروطٍ تحفَظُ كرامةَ المرأةِ والرجل ، وبحيث يُغطّى الفـائضُ من النساءِ غيرِ المتزوّجات ، وتُلغى مُستحقَّاتُ خسارةِ منعِ التعدّدِ .. ولّما كانـت هـذه المستحقَّاتُ تتوزّعُ – كما رأينا – بين الرجلِ والمرأة بنسبةِ واحد إلى أربعة ، فإنّ الحـدَّ الأعلى المُباحَ به لتعدّد الزوجات لا بُدّ أن يكونَ موافقاً لهذهِ النسبةِ ، ولا يتجاوزُها بـأيِّ شكلٍ من الأشكال .. فحاجةُ المرأةِ لحُكمِ تعدّدِ الزوجات هو –كما رأينـا – أربعـةُ أضعافِ حاجةِ الرجل .. عند ذلك يُوضع إطارٌ لحلِّ المسألة ن أولاً لصالح المرأة ، وثانيـاً لصالح المجتمع بأسره ..

وحتى تُصان كرامةُ المرأةِ وحتى تكونَ إباحةُ التعدّدِ لصالِحها ، لا بُدّ أن تُشرَط إباحةُ التعدّدِ هذه بحصولِ العدلِ ، وبحمايةِ حُقوقِ الزوجةِ الأولى ، وبحريّـةِ المـرأةِ الكاملـةِ في الزواج وفي الفِراق ، فإن هي لم ترغب بأن تكونَ زوجةً لرجلٍ متزوّجٍ بزوجة أُخـرى ، وإن اختارت عدمَ الزواجِ ، لا أحد يمنعُها من تحقيقِ رغبتِها ، وبحيـثُ يكـونُ خيارُهـا للزواجِ من رجلٍ متزوّجٍ ، هو بديلٌ لخيارِ عدمِ الزواج ..... وإن اختارت المرأةُ المتزوّجـةُ الفِراقَ تُحفَظُ حقوقُها وحقوقُ زوجِها ، ضمن إطارِ معيارِ منهجِ الله تعالى ..

هذه هي المسألةُ من زاويةِ الواقعِ الاجتماعيِّ الإنسانيِّ .. ولنبحث المسألةَ من خـلالِ دلالاتِ القرآنِ الكريمِ لها ، عَبر الإبحارِ في الدلالاتِ والمعـاني الـتي تحمِلُهـا الـصورتان القرآنيّتان التاليتان :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [النساء : ٣]

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ ﴾ [النساء : ١٢٩]

إنّ الصورةَ القرآنيّةَ التي تحملُ حُكمَ إباحةِ التعدّدِ هي : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ ﴾ ، ومن الواضحِ أنّ حُكمَ التعدّدِ الذي تحمِلُهُ مشروطٌ بقولِه تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ .. فوقوعُ حكمِ إباحةِ التعدّدِ - في كتاب الله تعالى - جواباً لشرطٍ ، ليس مصادفةً ، وليس عبثاً ..

وساحةُ الشرطِ هي ذاتُها ساحةُ الجزاءِ .. فالشرطُ ضمانٌ لحقِّ النساءِ اللاتي سيتزوجنَ رجالاً متزوِّجين (بدليلِ أنّه تمّ البدءُ في عبارة الجزاء بالمثنى) ، والجزاءُ إباحةٌ في التعدّدِ للأزواجِ المتزوِّجين الذين سيتزوَّجون من تلك النساءِ اللاتي يضمنُ الشرطُ حقوقَهُنَّ ..

وما ذهب إليه معظمُ المفسِّرين من أنّ الجزاءَ الذي يحملُ حُكمَ إباحةِ التعدّدِ ، يدعو الرجالَ إلى تركِ النساءِ اللاتي تضمنُ عبارةُ الشرطِ حقوقَهُنّ ، وإلى الزواجِ من غيرِهنّ ، بمعنى إذا خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا غيرَهُنّ من النساءِ مثنى وثلاث ورباع .. هذا المذهبُ من التفسيرِ لا يحملُ له القرآنُ الكريمُ أيَّ دليلٍ ، فلو كان صحيحاً لوردت كلمةُ غيرِهنّ (فانكحوا غيرَهنّ ما طاب لكم من النساء) ، أو لأُضيفت عبارةُ الإعراضِ عن نكحِهنّ (لا تنكحوهنّ وانكحوا غيرَهُنّ ما طاب لكم من النساء) .. فعبارةُ الشرطِ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ تَخصُّ ساحةً محدَّدةً تتعلّقُ بها النساءُ المرشّحاتُ للزواجِ من رجالٍ متزوِّجين ، وعبارَةُ الجزاءِ ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ ﴾ تخصُّ ساحةَ الإباحةِ بحيثُ يُضمَنُ الحقُّ الذي تحمِلُهُ عبارةُ الشرطِ لتلك النساء ..

ولو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً ، لما أتى حكم إباحة التعدّد (وهو الوحيد في القرآن الكريم عبر هذه الآية الكريمة) جزاءً لشرط ، ولكان حُكم إباحة التعدّد معطوفاً على جملة الشرط ، وليس جزاءً لها .. (لا تقسطوا في اليتامى وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) ..

وحملُ الشرطِ – في الآيةِ الكريمةِ – على النساءِ اليتيماتِ المُرادُ نكحُهنّ ، بحيث يُؤوَّل الجزاءُ على النهيِ عن الزواجِ من تلك النساء ، ونكحِ غيرِهنّ ، ليس سليماً ، ولا بأيِّ وجهٍ من الأوجه ..... هذا الحمل وهذا التأويل ليس سليماً للأسباب التالية :

(١) – عند بلوغ النكاح تنتهي مرحلة اليتم (المعروف بفقدان الأب) ، والصورة القرآنيّة التالية تشير إلى ذلك **﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ...... ﴾** [النساء : ٦] ، وحديث الرسول ﷺ **[لا يتم بعد احتلام]** يبيّن ذلك .. فكيف تكون كلمة **﴿ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾** – في عبارة الشرط متعلّقةً بالنساء المُراد نكحهن ، أي النساء اللاتي تجاوزن مرحلة الاحتلام ودخلن بمرحلة النكاح ، والقرآن الكريم وقول الرسول ﷺ يؤكّدان أنَّ اليتم مسألة تنتهي حين بلوغ مرحلة النكاح ، وحين وصول مرحلة الاحتلام ؟ ..

(٢) – لو كان الشرط **﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾** متعلّقاً فقط في بالنساء اليتيمات (يتم فقدان الأب) المراد نكحهن ، لتسرّب احتمال السماح بوقوع الجور (عدم القسط) على النساء الأُخريات (غير اليتيمات) ، وهذا محال ، أو لتعلّق التعدّد في هذه الحالة فقط ، أي لا يُسمح التعدّد إلى بنساء يتيمات (يتم فقدان الأب) مع وجود الخوف من الجور عليهن ، وهذا يتنافى مع الهدف من إباحة التعدّد الذي يهدف أوّلاً إلى تغطية الفائض من النساء ..

(٣) – لو كان الجزاء **﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾** يعني الابتعاد عن النساء اليتيمات المراد نكحهن ن لكان ذلك ضدّهن وليس في مصلحتهن ، فأمرٌ إلهيٌّ بالابتعاد عن نكح اليتيمة ، وتركها دون زواج ، ليس بصالحها ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال ..

(٤) – لا يمكن أن يكون الجور الذي يحمله الشرط ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ هو عدم العدل بين هذه اليتيمة (المرشحة كزوجة ثانية) والزوجة الأولى .. فكما رأينا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) ، لا ترتبط مشتقّات الجذر (ق ، س ، ط) بمسألة العدل بين الزوجات ، لأنّها تعني قياس الأمور في ميزان واحد ولا علاقة لغير اليتيم بهذا القسط المطلوب .. بينما مشتقّات الجذر (ع ، د ، ل) هي التي ترتبط بمسألة العدل بين الزوجات ، والعبارة القرآنيّة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ في الآية ذاتها تؤكّد ذلك .. فالقسط الذي يحمله الشرط يتعلّق فقط بين اليتامى والزوج الذي يريد نكح امرأة ثانية مع زوجته ، ولا علاقة للزوجة الأولى بذلك ، بينما العبارة القرآنيّة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ هي المتعلّقة بالعدل بين الزوجة الأولى والزوجة الجديدة ..

(٥) – لو كان الشرط ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ متعلّقاً فقط بالزواج من اليتيمة (يتم فقدان الأب) ، لما بُدئ بالمثنّى في عبارة الجزاء ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾ ، ولبُدئ بالواحدة ، وهذا ينفي التفسير التاريخي لهذه الآية الكريمة ... ولذلك نرى أنّه عند عدم توفّر الشرط يأمر الله تعالى بالاكتفاء بالواحدة (الزوجة الأولى الموجودة مسبقاً) .. فالصورة القرآنيّة هي خطابٌ موجَّهٌ للمتزوّجين من الرجال الذين يريدون الزواج بامرأة ثانية أو أكثر ..

(٦) – لو كان الشرط ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ يخصّ النساء اليتيمات (يتم فقدان الأب) المُراد نكحهنّ – حسب ما ذهبوا – والخوف هو عدم العدل بهنّ ، لما كان داعٍ للعبارة القرآنيّة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ التي تأتي بعد عبارة الجزاء مباشرةً ، ولكانت – من هذا المنظار – زيادة لا فائدة منها ، لأنَّ عبارتي الشرط والجزاء تؤمّنان العدلَ وعدمَ السماح بإباحة التعدّد إلاّ بعدم الخوف من وقوع الجور .. والعبارة القرآنيّة التالية لها مباشرة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ تحمل

أيضاً شرط العدل ، فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لكان هذا تكراراً ، ولتنافى ذلك مع مطلق الصياغة القرآنيّة المترّهة عن التكرار والحشو الذي لا فائدة منه ..

(٧) – كلمة ﴿ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ في عبارة الشرط ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ تحمل إطلاقاً لا يمكن حصره فقط بالنساء اليتيمات دون الذكور (حسب ما ذهب إليه معظم المفسّرين) .. وما يقوّي ذلك هو ورود الكلمة ذاتها ﴿ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ بإطلاقها هذا ، في الآية السابقة لهذه العبارة مباشرة ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ .... ﴾ [النساء : ٢ – ٣] ... فكيف يتمّ الجزم بأنّ كلمة ﴿ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ في عبارة الشرط لا تعني إلاّ النساء المُراد نكحهن ..

والسؤالُ الذي يطرحُ نفسَهُ .. ما هو الرابطُ بين عبارتي الشرطِ والجزاءِ في الآيةِ الكريمةِ الوحيدةِ التي تحملُ حُكمَ إباحةِ تعدّدِ الزوجات ، وما هي حدودُ الأحكامِ التي تحملُها هذه الآية ؟ .. للإجابة على هذا السؤالِ لا بُدّ من الوقوفِ عند كلمةِ ﴿ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ وإظهارِ الدلالاتِ والمعاني التي تحملُها هذه الكلمةُ ، وذلك من منظارِ القرآنِ الكريم ..

الإطارُ العامُّ لمشتقّات الجذر (ي ، ت ، م) في القرآنِ الكريم ، هو داخلُ معنى الانفرادِ بالنسبةِ للمسألةِ التي يتعلّقُ بها اليتمُ ، وهو عَدَمُ وجودِ مأوىً ونظيرٍ بالنسبةِ لهذه المسألة .. فاليتيمةُ – من هذا المنظار – تأخُذُ معنى المرأةِ المفردةِ عن زوجها ..

وداخلُ هذا الإطارِ العامِّ يُوجَدُ إطارٌ خاصٌّ بمسألةِ الأُبوّة ، ويعني الانفرادَ وعدمَ وجودِ مأوىً ونظيرٍ بالنسبةِ لهذه المسألة ، وهو اليتمُ المعروفُ بفقدانِ الأب ..

إذن هناك وجهان للمعاني التي تحملها كلمةُ اليتيمِ في كتاب الله تعالى :

[١] – الوجهُ العامُّ ، ويكونُ فيه اليتيمُ بمعنى المنفردِ الذي ليس له مأوىً ولا نظيرٌ بالنسبة لمسألةٍ ما .. والصورةُ القرآنيّةُ التالية تحملُ هذا الوجهَ بشكلٍ واضحٍ جليٍّ :

﴿ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢٢٠]

من الواضح أنّ الإطارَ العامَّ لكلمةِ اليتامى في هذه الآيةِ الكريمة ، هو إطــارُ يتــامى الانفرادِ وعدمِ المخالطةِ (من الطبيعي أن يشملَ هذا الإطارُ اليتمَ المعروفَ بفقدان الأب) ، والعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ ﴾ تُشيرُ إلى ذلك .. فكلمة ﴿ تُخَالِطُوهُمۡ ﴾ ترتبطُ بأنفسِهم ، ولا يُمكن حصرُها بأموالِهم ومتاعِهم ، ودليلُ ذلك هــو الــضميرُ المتَّصلُ (هم) ، ولذلك فالمخالَطَةُ هنا هي مُخالطةٌ اجتماعيّةٌ معنويّةٌ تشملُ حتى الزواج .. وكلمةُ ﴿ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ ﴾ تؤكّدُ – أيضاً – هذا العمقَ المعنويَّ الاجتماعي ، وتنفي العمقَ الماديَّ ، فالأُخوّةُ مسألةٌ إيمانيّةٌ وليست ماديّةً ، والعدلُ بالعمقِ الماديِّ وصــيانةِ حقــوقِ الآخرين ماديّاً ، مسألةٌ واجبةٌ حتى معَ غيرِ المؤمنين وغيرِ اليتامى (يــتم فقــدان الأب) ، ولذلك فكلمةُ ﴿ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ ﴾ تُشيرُ إلى العمقِ المعنويِّ الاجتماعي ..

والصورةُ القرآنيّةُ التاليةُ : ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى : ٦] تحملُ هذا الوجهَ (العامَّ) من اليُتمِ ، فلا يُمكن حصرُ اليُتمِ في هذه الصورةِ القرآنيّةِ بمجرّدِ فقدانِ الأب ، ويأتي فقدانُ الأبِ وجهاً خاصّاً داخلَ إطارِ الوجهِ العامِّ لليُتمِ الذي تحملُهُ هذه الصورةُ القرآنيّة ..

وبقراءةِ الصوَرِ القرآنيّةِ التاليةِ لهذه الصورةِ تتوضّحُ هذه الحقيقةُ بشكلٍ أكبر : ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ [الضحى : ٦ – ٨] .. فكما أنّ كلمةَ ﴿ ضَآلّٗا ﴾ تُقابلُ كلمةَ ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ ، وبالتالي فإنّ الهُدى أنهى حالةَ كونِه ضالاً .. وكما أنّ كلمةَ ﴿ عَآئِلٗا ﴾ تُقابلُ كلمةَ ﴿ فَأَغۡنَىٰ ﴾ ، وبالتالي فإنّ الغنى أنهى حالةَ كونِه عائلاً .. كذلك فإنّ كلمةَ ﴿ يَتِيمٗا ﴾ تُقابلُ كلمةَ ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾ ،

وبالتالي فإنّ المأوى أنهى حالةَ كونِه يتيماً .. ولو تمّ سجنُ الدلالاتِ والمعانيَ التي تحمِلُها كلمةُ ﴿ يَتِيمًا ﴾ داخلَ إطارِ يتمِ فقدانِ الأب ، دون أن تخرُجَ من هذا الإطارِ ، لتنافى ذلك مع مُطلقِ المعاني التي تحمِلُها هذه الصورةُ القرآنيّة ..

وهكذا .. فالصورةُ القرآنيّةُ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ تقولُ : لقد منّ اللهُ تعالى عليكَ فآواك بعدَ أن كُنت وحيداً (كفطرةٍ نقيّة) بينَ قومِك ، مُنفرداً عنهم عديمَ النظير .. وبالتالي فاليُتمُ في هذه الصورة القرآنيّة يحمل إطاراً عامّاً ، أوسعَ من مجرّدِ يُتمِ فقدانِ الأب ..

وفي هذا الإطار من معنى اليتم تدخل النساء الفائضات على عددِ الرجالِ الصالحَين للزواج .. فتلك النساءُ المنفرداتُ الفائضاتُ اللاتي لا يجدنَ أزواجاً ، تشملُهُنَّ كلمةُ اليُتْمِ بإطارِهَا العام ..... وقد وصفهنَّ اللهُ تعالى في كتابِه الكريمِ بعبارةِ : ﴿ يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، أي المنفرداتِ الفائضاتِ من جنسِ النساءِ اللاتي لا يجدنَ نظيراً يتزوجنَهُ .. يقولُ تعالى ..

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧]

.. لذلك نرى أنَّ العبارةَ القرآنيّة ﴿ يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، تَحملُ دلالاتٍ خاصّةً تتميّزُ عن دلالات كلمةِ ﴿ ٱلنِّسَآءِ ۖ ﴾ الواردةِ في الصورة القرآنيّة ذاتِها ... فاللهُ تعالى يُفتي في النساء حيث تُبيِّنُ ذلك كلمة ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ، ويُفتي في ﴿ يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ ممَّا يُتلى علينا في الكتاب ..... فلو كانت عبارةُ ﴿ يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ تعني النساءَ الصغيرات فاقداتِ الأب ، لَشُملَتْ بِكلمةِ ﴿ فِيهِنَّ ﴾ التي تُشيرُ إلى النساء ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ ... لو كان الأمرُ كذلك ، لَمَا رُسِمَت العبارةُ ﴿ يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ مع كلمةِ ﴿ ٱلنِّسَآءِ ۖ ﴾ في عبارةٍ قُرآنيّةٍ واحدة ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ

فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ❱ .. فكلمةُ النساءِ تشملُ جنسَ النساءِ صغيرات وكبيرات ، فاقدات أبٍ وغير فاقدات ..

.. ونحنُ نعلمُ أنَّ اليُتْمَ بمعنى فقدانِ الأب وعدمِ بلوغِ النكاح ، عامٌ ليس خاصّاً بالنساءِ وليس خاصّاً بالرجال ... ونرى أنَّ التعريف في العبارة القرآنيّة : ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ هو تعريف إضافة : ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ ، فالله تعالى لم يقل : (اليتامى من النساء) ، إنما يقول ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ .. إذاً .. العبارةُ القرآنيّة ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ (بهذه الصياغة) خاصّةٌ بموضوعٍ يتعلّقُ بالنساءِ حصراً ، وبالتالي فاليتمُ المعنيُّ لا يتجاوزُ جنسَ النساء .. ونحنُ نعلمُ أنَّ المرأةَ التي تبلغُ النكاحَ كالمعنيةِ في هذه الصورةِ القرآنيّةِ ، لا تُوصَفُ باليتيمةِ أصلاً .. ونرى كيف تُذكَرُ كلمةُ ❰ **ٱلنِّسَآءِ** ❱ في الصورةِ القرآنيّةِ ذاتِها التي تُذكَرُ فيها العبارة ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ .. ونرى كيفَ تُذكَرُ كلمةُ ❰ **لِلْيَتَٰمَىٰ** ❱ في الآيةِ الكريمةِ التي اجتزأنا منها كلمة ❰ **ٱلنِّسَآءِ** ❱ والعبارةَ ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ ...... ❰ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا** ❱ [النساء : ١٢٧] ..... كُلُّ ذلك يُؤكّدَ صحةَ ما نذهبُ إليه في استنباطِ دلالاتِ العبارةِ القرآنيّةِ ❰ **يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ** ❱ ..

[٢] - الوجهُ الخاصُّ ، ويكونُ فيه اليتيمُ بمعنى فاقدِ الأب ، والذي لم يبلغ النكاحَ ، والصورةُ القرآنيّةُ ❰ **وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ....** ❱ [النساء : ٦] تُشيرُ إلى هذا الوجهِ من اليُتم ..

ولنعد إلى الآيةِ الكريمةِ التي تحوي حُكمَ إباحةِ تعدّدِ الزوجات ، ولننظـر إلى كلمـةِ اليتامى فيها ، من منظارِ الوجهين العامِّ والخاصِّ لمسألةِ اليُتم :

(١) – لو نظرنا من منظارِ الوجهِ العامِّ لمسألة اليُتمِ ، وهو - كما رأينا - بمعنى الانفرادِ ، وعدمِ توفّرِ النظير ، وعدمِ المخالطةِ ، فإنّ عبارةَ الشرطِ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ تعني : وإن خفتم أن تجوروا على النساءِ المنفرداتِ الفائضات اللاتي لم يجدنَ أزواجاً (اليتيمات) .. وهذه العبارةُ ترتبطُ مع عبارةِ الجزاءِ ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ برباطِ الاقتضاء ، والتعلّقِ بتحقيقِ مُرادِ الشرط .. فإنّ من مقتضياتِ عدمِ الجورِ في حقوقِ تلك النساءِ المنفردات انفرادَ زوجيّة (اليتيمات) ، هو الزواجُ منهنّ ، ولو كانت إحداهُنّ زوجةً ثانيةً أو ثالثةً أو رابعة ..

فالصورةُ القرآنيّةُ ، شرطُها وجزاؤها - من منظار الوجهِ العامِّ لمسألةِ اليُتمِ - تقولُ : إن أنتم لم تتزوّجوا الفائضاتِ المنفرداتِ (انفراد زوجيّة) اللاتي لم يجدنَ أزواجاً ، حتى وإن كانت إحداهُنّ الزوجةَ الثانيةَ أو الثالثةَ أو الرابعةَ ، فسيكونُ ذلك جوراً في حقّهنّ ، وعدمَ عدلٍ فيهنّ ، ولولا ذلك لما شُرِعَ تعدُّدُ الزوجات .. فتشريعُ إباحةِ تعدّدِ الزوجاتِ هو لتغطيةِ هذا الفائضِ من النساءِ ، وحتى لا تبقى هناك نساءٌ منفرداتٌ فائضاتٌ (يتيمات) لا يجدنَ أزواجاً ..

(٢) – لو نظرنا إلى الآيةِ الكريمةِ من منظارِ الوجهِ الخاصِّ لمسألةِ اليُتمِ ، والذي يعني فقدانَ الأبِ ، وعدمَ بلوغِ مرحلةِ النكاح ، فإنّ كلمةَ اليتامى في عبارةِ الشرطِ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ تعني الأطفالَ الواقعين تحتَ الولاية ، والخطابُ موجّهٌ لوليِّ أمرِ هؤلاءِ الأيتام ، ولأيِّ إنسان تعنيه مساعدة هؤلاء الأيتام .. وما يُقوّي ذلك هو السياقُ القرآنيُّ السابقُ واللاحقُ لهذه الصورة ، وخصوصاً الآية الكريمة التي تسبقُ هذه الصورةَ مباشرةً ، والتي تُخاطبُ أولياءَ أمورِ اليتامى :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء : ٢ – ٣] .. فالذي يُمكنُه أن يأكُلَ أموالَ

اليتامى إلى ماله ، هو وليُّ أمرِ اليتيم ، أكثر من أيِّ إنسانٍ آخر .. وبما أنّ الآيةَ (٢) من سورةِ النساءِ تُخاطبُ أولياءَ أمورِ اليتامى ، فإنّ عبارةَ الشرطِ التي تليها مباشرةً ، تُخاطبُ – من منظارِ وجهِ اليُتمِ الذي يعني فقدانَ الأبِ وعدمَ بلوغِ النكاح – أيضاً أولياءَ أمورِ اليتامى ، وأيّ إنسان يريد مساعدتهم ..

وهذه الحالةُ تكون حينما يُتوَفَّى رجلٌ ويتركُ وراءه يتامى وزوجةً تحت ولايةِ رجلٍ غيرِ مُحرَّمٍ – بعد موت الزوج – على هذه الزوجة .. وفي هذه الحالةِ إن تزوّجت الأمُّ من رجلٍ آخر ، كان ذلك على حسابِ اليتامى ، الذين سيفقدون رعايةَ أُمّهم وحنانَها ، وإن بقيت دون زواجٍ كان ذلك على حسابِ حياتها ، وإن ترك وليُّ الأمرِ اليتامى وأمَّهم كان ذلك ليس في صالِحِهم .. لذلك فالحلُّ الأفضلُ هو أن يتزوّجَ وليُّ أمرِ اليتامى (أو غيره) أمَّ اليتامى – إن أرادت ذلك – لِيَضُمَّهم إليه ، وتكونَ أُمُّهم زوجتَهُ ، وبالتالي يقتربُ منهم ومن تعويضِهم ما فقدوه من حنانِ الأبِ ورعايتِه ..

إذاً .. الخطابُ القرآنيُّ في عبارةِ الشرط ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ ، من منظار هذا الوجه لليتم ، إضافةً إلى أنّه موجّهٌ لأولياءِ أمورِ اليتامى ، فهو أيضاً خطابٌ موجّهٌ لجميع المتزوِّجين الذين يُريدون مُساعدةَ اليتامى وتربيَتَهُم ورعايتَهُم ، فاكتمالُ الرعايةِ يكونُ حينما تكونُ أمُّ اليتامى معهم ، وفي الوقت الذي يكون فيه أولادُها اليتامى بمكانةِ أبناءٍ لزوجِها الجديدِ الذي يُريدُ مساعدةَ هؤلاء الأيتام ..

وهكذا يكون الربط – من منظار الوجه الخاصّ لليتم الذي يعني فقدان الأب وعدم بلوغ مرحلة النكاح – بين الشرط والجزاء في الآية الكريمة التي تحمل حكم إباحة تعدّد الزوجات ، هو أنَّ الذين يخشون الجور على اليتامى ن ويريدون مساعدتهم وإعطاءهم حقّ الرعاية والتربية ، فإنَّ ضمّهم والزواج من أمّهم ، هو من مقتضيات هذه الخشية ، وإن كانت أمّ اليتامى هي الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ..

وفق هذين العُمقين فقط يُمكن الربطُ بين عبارتي الشرطِ والجزاءِ في آيةِ إباحةِ تعدّدِ الزوجاتِ ، ربطاً منطقيّاً يحمِلُهُ القرآنُ الكريم ، ويُناسِبُ قواعدَ اللغةِ العربيّة ، ولا يتعارَضُ مع بديهيّاتِها ..

فالهدفُ من إباحةِ تعدّدِ الزوجاتِ في المجتمعِ هو إيجادُ حلٍّ لمشاكلِ هذا المجتمعِ ، سواءٌ في مشكلةِ الفائضِ من النساء ، أم في مشكلةِ الأيتام .. وإباحةُ التعدّدِ في كتابِ الله تعالى نراها تُغطّي تماماً مُستحقّات خسارةِ منعِ التعدّدِ ، ما بين الرجلِ والمرأة ، والتي هي — كما رأينا — بنسبةِ واحد لأربعة .. فالعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾ التي تُصوِّرُ الحدَّ الأعلى لإباحةِ تعدّدِ الزوجات ، نراها تحملُ المعادلةَ التي ترسمُ الإطارَ الأكبرَ لحلِّ هذه المسألة ، بشكلٍ يتمُّ فيه تسديدُ مستحقّاتِ خسارةِ منعِ إباحةِ تعدّدِ الزوجاتِ ، تسديداً عادلاً متوازناً ، وبالتالي إنهاءُ المضاعفات الاجتماعيّة والنفسيّة الناتجة عن منعِ هذه الإباحةِ ، فليس عبثاً أن يكونَ الحدُّ الأعلى للتعدّدِ هو أربعُ نساء ..

وبعدَ هذا الشرطِ في إباحةِ تعدّدِ الزوجات ، يُبيّنُ اللهُ تعالى شرطاً آخرَ يُلغي عدمُ تحقيقِهِ هذه الإباحةَ من أساسِها ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ .. هذا الشرطُ هو حصولُ العدلِ ، وفي حالِ عدمِ تحقّقِ العدلِ فإنّ التعدّدَ خروجٌ على حدودِ الله تعالى ..

وفي ورود كلمة ﴿ أَوۡ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ بدلاً من حرف العطف (و) في الصورةِ القرآنيّةِ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ ، تأكيدٌ على أهمّيّة شرطِ العدل ، فمعنى هذه العبارة القرآنيّة هو : فواحدة أو واحدة ممّا ملكت أيمانُكم .. فلو كانت المرأةُ المرتبطةُ بعقدِ مُلكِ يمينٍ خارجَ إطارِ العدلِ ، لأتت العبارةُ القرآنيّةُ على الشكلِ (فواحدة وما ملكت أيمانكم) ..

ومع أنّ الصورةَ القرآنيّةَ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ تُشيرُ إلى الجانبِ المادّيِّ للعدلِ الذي يستطيعُ الإنسانُ عليه ، ومع أنّ الصورةَ القرآنيّةَ ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ [النساء : ١٢٩] تُشيرُ إلى الجانبِ العاطفيِّ المعنويِّ الخارجِ عن إطارِ استطاعةِ الإنسان .. فإنّنا نجدُ عُمقاً جديداً من الدلالاتِ والمعاني ، عَبر تقاطُعِ هاتين الصورتين القرآنيّتين ..

الصورةُ القرآنيّةُ ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ تقولُ : إنّ العدلَ بين النساءِ هو خارجُ استطاعةِ الرجلِ مهما كان حريصاً ، وبالتالي يكونُ تقديرُ الصورةِ القرآنيّةِ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ من منظارِ تقاطعِ هاتين الصورتين القرآنيّتين هو : من خاف منكم عدمَ حصولِ العدلِ فعليه بالواحدةِ فقط ، لأنَّ العدلَ لن تستطيعوا عليه مهما حرصتم ، فعليك أن تعلمَ يا من جمعتَ بين أكثر من زوجةٍ ، أنّكَ خرجتَ من دائرةِ العدلِ التام بين الزوجات ..... وهكذا فالصورةُ القرآنيّةُ ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ هي خبرٌ من الله تعالى على عدمِ حصولِ العدلِ التامِّ بين الزوجاتِ مهما كان الرجلُ حريصاً ..

ومن يتوهّمُ أنّ الصورةَ القرآنيّةَ ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ تنسَخُ إباحةَ التعدّدِ ، المشروطةَ في قوله تعالى ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ ، إنّما يفرضُ سلفاً أنّ اللهَ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً لم يكن يعلم حقيقةَ الأحكامِ التي ينزِلُها ومدى صلاحيّتِها للبشر ، ثمّ اكتشف بعد ذلك عدمَ صلاحيّتِها فَنَسَخَهَا ، وقد بيّنا بما فيه الكفاية أنّه من المستحيلِ أن يكونَ في القرآنِ الكريمِ ناسخٌ ومنسوخ ..

لننظر إلى الصورة القرآنيّة ..

﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦]

فهل خروج المُعَاقِب بمثل ما عُوقِب من إطار الخير الذي ينتظر الصابرين ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ بأن لا يصبر ويعاقب بمثل ما عوقِب ، هل يُلغي ذلك إباحة أن يُعاقِب الإنسان بمثل ما عُقِب ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ ﴾ ؟

.. أبداً .. القضيّة قضيّة درجات على سلّم الثواب عند الله تعالى ..

والعبارةُ القرآنيّةُ ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ في نهايةِ الآيةِ الكريمةِ التي تحملُ حُكمَ إباحةِ التعدّدِ ، تُبيّن لنا أنّ الاستعمالَ السليمَ لحُكمِ إباحةِ التعدّد ، عَبرَ الالتزامِ بشروطِهِ ، هو اقترابٌ من عدمِ الجورِ والظلمِ بشتّى جوانبه .. فكلمة ﴿ تَعُولُواْ ﴾ تعني : تجوروا وتميلوا وهي من الجذر (ع ، و ، ل) ، ولا تعني : تكثرُ عيالُكم ، فلو كان كذلك لكان من الأولى مجيءُ العبارةِ القرآنيّةِ بالصيغةِ (ذلك أدنى ألاّ تعيلوا) من الجذر (ع ، ي ، ل) ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ [التوبة : ٢٨] ..

وحُكمُ إباحةِ التعدّدِ (كما بيّنه الله تعالى) لا يُمكنُ أن يكونَ ظالماً للمرأة كما يتخيّلُ الكثيرون ، لأنّهُ لا تُكرَهُ المرأةُ (في الإسلام) على الزواجِ من رجلٍ متزوِّجٍ ، أو غيرِ متزوّجٍ ، كما لا تُكرهُ على عدم الفِراقِ من زوجِها ، فالمسألةُ حُكمٌ مُباحٌ ضِمنَ شروطٍ تَضمَنُ حقوقَ طرفيّ المعادلة ، هدفُه وضعُ إطارٍ سليمٍ لحلِّ المشكلاتِ الناتجةِ عن طوارئَ اجتماعيّةٍ تؤدّي في النهايةِ إلى مضاعفاتٍ من شأنها خلخلةُ توازن المجتمعِ بأسرِه ..

وما نراهُ من مضاعفاتٍ خطيرةٍ تنشأ عن معظمِ حالاتِ تعدّدِ الزوجات في المجتمعاتِ الإسلاميّة ، ناتجٌ عن عدمِ الالتزامِ بشروطِ التعدّدِ التي بيّنها اللهُ تعالى في كتابِه الكريم ، وناتجٌ عن سوءِ الأخلاقِ وانعدامِ الضمير ، وعن إلباسِ الجاهليّةِ القَبَليَّةِ ثوبَ الإسلام ، وارتداءِ هذا الثوب على أجسادِ جُربٍ ، بداخلها أنفسٌ سلبيّةُ الإرادة ..

إنّ هؤلاء الذين يأخذونَ ببعضِ الكتابِ ويُعرضونَ عن بعضٍ ، يُجسِّدون أمثلةً سيّئةً تُشيعُ التمرّدَ على حُكمِ اللهِ تعالى ، وتُعطي ضعيفي الإيمان حيثيّاتِ هذا التمرّدِ ، لإيهامِ ضعيفي الإدراك بعدمِ صلاحيّةِ أحكامِ كتابِ اللهِ تعالى ..

فالظلمُ الذي نراهُ نتيجةَ معظمِ حالاتِ تعدّدِ الزوجات ، ليس ناتجاً عن حُكمِ التعدّدِ ، وإنّما عن الموروثاتِ الجاهليّةِ والعصبيّاتِ المتخلّفةِ التي لا ترى في المرأةِ أكثرَ من سلعةٍ هدفُها متعةُ الرجل ، ولا تحمل إلاّ العار ، ولذلك فالظلمُ واقعٌ ، سواءٌ في ساحةِ تعدّدِ الزوجات أم خارجَ هذه الساحةِ ..

ولكن حينما تأخذُ المرأةُ مكانَها الحقيقيَّ في المجتمع ، كما أرادهُ اللهُ تعالى لها ، بعيداً عن جاهليّةِ الوأدِ الاجتماعيِّ والإنسانيِّ ، وبعيداً عن الجاهليّةِ الخلاعيّةِ التي تـضرُّ بـالمرأةِ وبكرامتِها أكثرَ من جاهليّةِ الوأدِ ، وحينما يتمُّ تمثُّلُ أحكامِ كتابِ اللهِ تعالى كما يُريـدُ اللهُ تعالى ، من منظارِ الصياغةِ اللغويّةِ لآياتِ كتابِه الكريم .. حين ذلك نرى بصورةٍ سـليمةٍ واضحةٍ كيف أنّ حُكمَ تعدّدِ الزوجات هو فرصةٌ أمامَ المرأةِ ، تأخُذُ بها حينمـا تُريـد ، وليس قيداً لسجنِها داخلَ أنفاقِ شهوةِ الرجلِ وعصبيّاتِ المجتمعات المتخلّفة ..

.. وهكذا فالتمثُّلُ السليمُ لحُكمِ تعدّدِ الزوجات (كما يريدُهُ اللهُ تعالى) يكون حينما تختارُهُ المرأةُ كأفضلِ خيارٍ أمامَها دونَ أيِّ إكراهٍ ، وحينما تَجدُ فيه الخيارَ الوحيدَ لـتَحيى حياتَها الفطريّةَ بشكلٍ سليمٍ ، بعيداً كبتِ فطرتِها ، وبعيداً عن غرَقِها في مستنقعِ الفاحشةِ فتخسرُ الدنيا والآخرةَ على حدٍّ سواء ، وحينما لا تُظلمُ فيه الزوجـةُ الأولى ، ولا تُكـرهُ على استمرارِ الاقترانِ بزوجِها .. وبالتالي حينما يكونُ حلاً لمشكلاتِ المجتمع ، لا خلقـاً لمشكلاتٍ يدفعُ ثمنَها المجتمعُ بأسره ..

إنّ أحكامَ كتابِ اللهِ تعالى متكاملةٌ ، يُنظَرُ إليها من منظارِ كُليّةِ القرآنِ الكريم ، لا من منظارِ الأهواءِ والشهوات ، ولا من منظارِ الأعرافِ الاجتماعيّة ، وهي أحكامٌ مجرّدةٌ عـن التاريخ والمكان والزمان .. وإنَّ فرض التصوّرات البشريّة على النصوص القرآنيّة ، وعـدم النظر إلى النصوص القرآنيّة إلاّ من منظار روايات التاريخ وأقوال رجالاته ، يُـشوّه – في نفوس البشر – صورة الأحكام القرآنيّة المطلقة العادلة ، حيث يتـوهّم ضـعيفو الإدراك بخضوع الدلالات القرآنيّة للأحداث التاريخيّة المرحليّة ، ويضع أفق الفكـر الإسـلامي في إطار تصوّرات البشر وأهوائهم ، كما رأينا في مسائل العبيد وملك اليمين ، وكما نـشهد في مسألة تعدّد الزوجات من مضاعفات اجتماعيّة ونفسيّة ، يـدفع ثمنَهـا الإنـسان أوّلاً وآخراً ..

❁ ❁ ❁

الخاتمة

أودّ أن تكون هذه النظريّة نوراً يُبدِّدُ قيود التصوّرات الزمانيّة المكانيّة التاريخيّة التي فُرضت على بعض النصوص القرآنيّة ، وأن تُقدِّم منهجاً سليماً لتفسير النصوص القرآنيّة التي ظاهرها أحداث تاريخيّة زمانيّة مكانيّة ن وأن تسمو بفكرنا وأفق تصوّرنا باتّجاه إطلاق النصّ القرآني إطلاقاً يتناسب مع قدسيّته وماهيّته المجرّدة عن الزمان والمكان والتاريخ ..

لقد آن الأوان لإطلاق ثورة فكريّة هادفة تسمو بالبحث القرآني والفكر الإسلامي المرتبط به ، سموّاً متوازناً ما بين الواقع الحضاري من جهة ، وحقيقة أحكام الله تعالى المتعلّقة بهذا الواقع من جهةٍ أُخرى .. وإنَّ علينا أن ننظر إلى الفكر الإسلامي من منظار نبعه الأهواء ، وعن التصوّرات المسبقة الصنع ، وعن القيود التاريخيّة المفروضة على تفسير بعض النصوص القرآنيّة ، كما رأينا في مسألة العبيد وملك اليمين ..

لا بدَّ أن نميّز بين النصّ القرآني المقدّس الذي تكفّل الله تعالى بحفظه ، وبين تفاسيره البشريّة المعرّضة للخطأ والصواب من قِبَل البشر .. وبالتالي فإنَّ كلّ تقديس لأيِّ تفسيرٍ بشري للنصوص القرآنيّة على حساب قدسيّة النصّ القرآني وصريح صياغته ، هو في النهاية وجهٌ من أوجه الشرك ، وهو شهادة زور تُبعد صاحبها عن الشهادة لوحدانيّة الله تعالى ..

وقولنا هذا لا يعني القفز فوق ما صحّ من التفاسير الموروثة كما سيفتري عابدو أصنام التاريخ علينا ، ولا يعني أن يفهم كلٌّ النصَّ القرآنيَّ كما يحلو له .. إنّما يعني

تفسير النصوص القرآنيّة تفسيراً أقرب ما يكون إلى التجرّد عن كلّ ضغط فكريٍّ لجيلٍ من الأجيال ، وفق منهجيّة لا تخرج من مقدّماتها إلى نتائجها عن ثوابت كتــاب الله تعالى (القرآن الكريم) والعلم والعقل والمنطق ..

وأخيراً أقول لكلٍّ من لا يستطيع النظر إلى القرآن الكريم إلاّ من منظار التــاريخ والزمان والمكان ، لا يحقّ لك أن تفرض علينا تصوّراتك التي تراها من هذا المنظــار ، لأنّه لا يحقّ لك – قبل كلّ شيء – أن تفرض تصوّراتك على القرآن الكــريم ، ولأنّ القرآن الكريم أكبر من أن تحيط به تصوّرات منظارك هذا ، وتصوّرات أيِّ مخلــوق ، فما يتعلّق بصفات الله تعالى أكبر من أن تحيط به التــصوّرات الخاضــعة للمقــاييس الزمانيّة المكانيّة ..

تمّ بعونه تعالى عام ١٤١٩ هجري

الموافق ١٩٩٨ ميلادي

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

المقدّمة ٧

الفصل الأوّل

الحكمة المطلقة في رموز القصّة القرآنيّة ١٩

الفصل الثاني

الأسماء القرآنيّة تجسيدٌ لجوانب الحكمة المطلقة ٨٣

الفصل الثالث

الوجه المطلق للدلالات التاريخيّة في النصّ القرآني ١٣٧

الفصل الرابع

نقطة من بحر دلالات النصِّ القرآني ٢١١

الفصل الخامس

من منظار الحكمة المطلقة ٢٣٧

الخاتمة ٣٠١

الفهرس ٣٠٣

مركز الذِّكْر
للدراسات الإسلاميّة
موقع :
الكاتب والمفكِّر الإسلامي
المهندس عدنان الرفاعي
www.thekr.net
adnan@thekr.net

أخي القارئ

تمَّ تنضيد الكتب على عجل

وأيّ خطأ مطبعي

هو نتيجة الإسراع

في تنزيل هذه الكتب على النت

نزولاً عند رغبة الإخوة القرّاء

ونتيجة عدم مراجعتها

لذلك نعتذر

إن وُجدت بعض الأخطاء المطبعية

ونعد بتصحيحها لاحقاًبإذن الله تعالى

المهندس عدنان الرفاعي